501
HARLEQUIN

٥٠١

دار م. النحاس

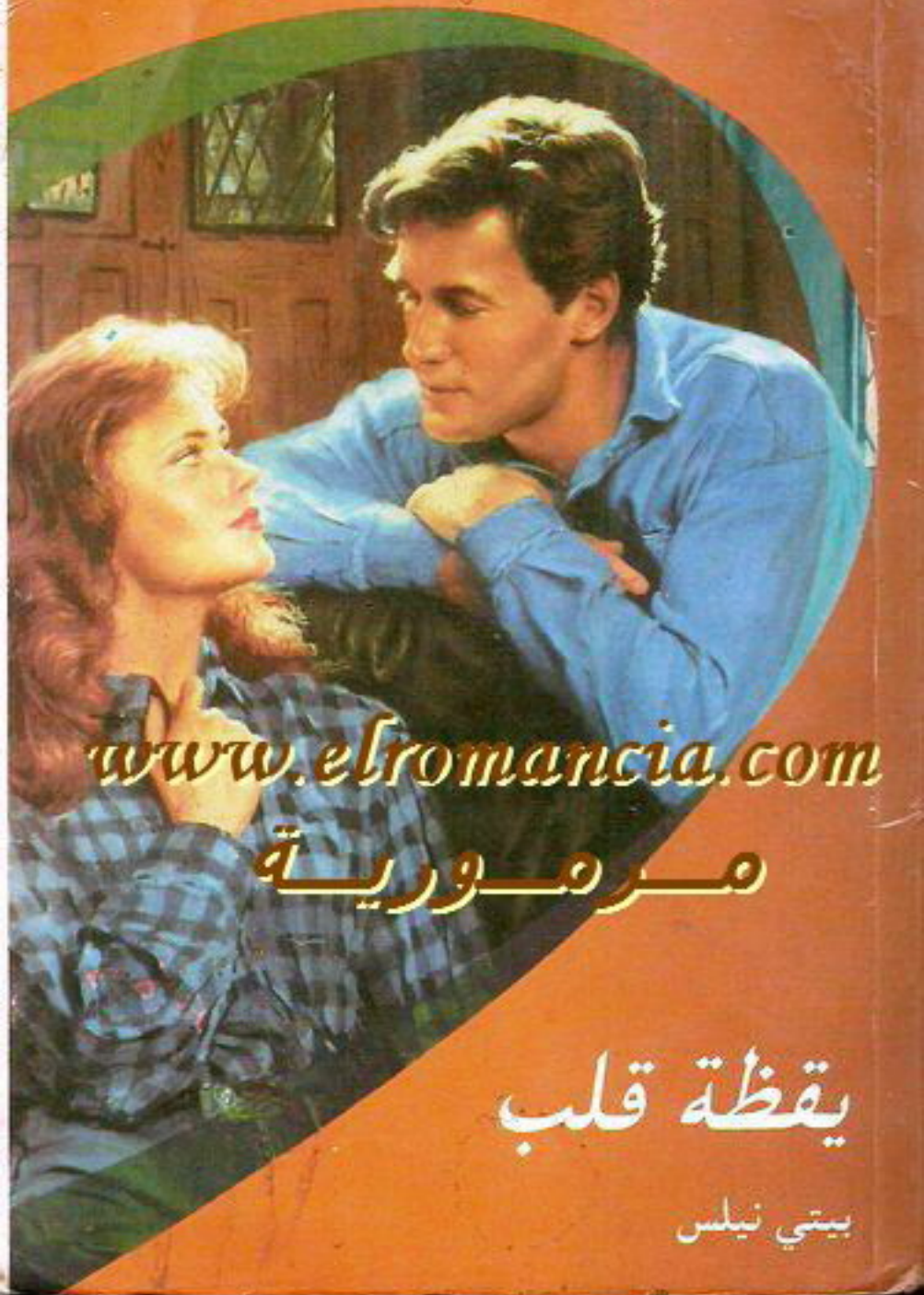

عبير

www.elromancia.com
مرمورية

يقظة قلب

بيتي نيلس

يقظة قلب

بيتي نيلس

لقد اختبرت صوفي مرارة الحب الفاشل وآلامه إلى حد لم تعد متأكدة معه من انها تريد أن تنجرف مع مشاعرها مرة أخرى. ولكن، هل تكون الصداقة طريقاً للزواج أكثر سلامة؟ إن رجلاً نابغة في جراحة المخ، هو البروفسور «ريجيك فان تاك تير ريجسما» بدا انه يفكر بنفس الطريقة، حين تقدم من صوفي يطلب يدها. فقد تكلم عن الاهتمامات المشتركة والزمالة والتلاؤم التي يمكن لها جميعاً أن تقدم زواجاً ناجحاً من دون ذلك الحب العاصف الذي تتقلب معه المشاعر المضطربة.

لقد قبلت صوفي عرض الزواج ذاك، على هذا الأساس تماماً، ولكن، لماذا تراها تجد نفسها تطمح إلى شيء آخر؟

يقظة قلب

بيتي نيلس

لقد اختبرت صوفي مرارة الحب الفاشل وآلامه إلى حد لم تعد متأكدة معه من انها تريد أن تنجرف مع مشاعرها مرة أخرى. ولكن، هل تكون الصداقة طريقاً للزواج أكثر سلامة؟ إن رجلاً نابغة في جراحة المخ، هو البروفسور «ريجيك فان تاك تير ويجسما» بدا انه يفكر بنفس الطريقة، حين تقدم من صوفي يطلب يدها. فقد تكلم عن الاهتمامات المشتركة والزمالة والتلاؤم التي يمكن لها جميعاً أن تقدم زواجاً ناجحاً من دون ذلك الحب العاصف الذي تتقلب معه المشاعر المضطربة.

لقد قبلت صوفي عرض الزواج ذاك، على هذا الأساس تماماً، ولكن، لماذا تراها تجد نفسها تطمح إلى شيء آخر؟؟

«تتزوجين مني يا صوفي؟»

وتلاشت إبتسامتها في نظرة بالغة الدهشة وهي تقول: «أتزوج منك؟ ولماذا؟ وما الذي يدعوني إلى ذلك؟»

وابتسم «ريجيك» لقولها هذا وقال: «ذلك لأنني أريد امرأة تشاركني حياتي. أريد رفيقة تجعل من بيتي مسكناً بكل معنى الكلمة. إمرأة تجعل من أصدقائي أصدقاء لها.»

ونظرت هي ببراءة إلى عينيه الممتلئتين عزماً، وقد تضرّجت وجنتاها، وقالت متلعثمة: «ولكننا... أعني... ألا يجب أن يكون ثمة حب بيننا أيضاً؟؟»

بيتي نيلس

أمضت «بيتي نيلس» فترتي الصبا والحداثة في «ديفو نشاير» قبل أن تتخذ التمريض والقبالة مهنة. وقد عملت ممرضة في الجيش أثناء الحرب العالمية الثانية. تزوجت من رجل هولندي وعاشت في هولندا مدة أربعة عشر عاماً. وهي الآن تعيش مع زوجها في «دورسيت»، وعندها إبنة وحفيد. تهوى القراءة والحيوانات والأبنية القديمة والكتابة.

لقد ابتدأت «بيتي» الكتابة عند تقاعدها من مهنة التمريض بعد أن حثتها على ذلك سيدة تعمل في مكتبة عامة، حين أخذت تتحسّر على نقص الروايات العاطفية.

www.elromancia.com

الفصل الأول

كان بعد ظهر ذلك اليوم من تشرين الأول/اكتوبر، كئيباً منبئاً بمساء ممطر، وكان رذاذ المطر يبلل المارة المسرعين إلى بيوتهم خارجين من أعمالهم. كانت الأرصفة مزدحمة بينما كانت حوانيت بيع الألبسة ومركز بيع الأثاث المستعمل ومكاتب العمل الصغيرة بواجهاتها القذرة، كلها مقفلة إثر انتهاء العمل ذلك النهار. وإن كان ما زال هنالك بعض العربات المتفرقة التي تعرض بضائع مختلفة. ولكن الشارع الذي كان مستشفى «سانت آغنس» الضخم يلقي عليه ظله، كان يبدو أنه سيخلو من المارة تقريباً بعد ساعة أو نحو ذلك. إنما، حالياً، كان مزدحماً بأولئك العائدين إلى بيوتهم، عدا شخص واحد هو فتاة طويلة القامة كانت تقف جامدة وقد بدا على وجهها القلق والحيرة، غير عابئة بصدمات المارة حولها، من وقت لآخر.

إذا كان المارة يتناوبون الاصطدام بها دون انتباه منهم، فإن ذلك لم يكن شأن ذلك الرجل الذي كان واقفاً عند نافذة غرفة المستشارين في المستشفى والمشرفة على الشارع. لقد راقبها لعدة دقائق دون اهتمام، في البداية، إنما ما لبث أن قطب حاجبيه بحيرة، ولما لم يكن لديه ما يعمله في المستشفى، فقد اتخذ طريقه خارجاً إلى الشارع.

كانت الفتاة تقف على الرصيف المقابل، فقطع الشارع إليها دون تردد، مخترقاً الزحام بقامته الفارعة وكتفيه

العريضتين، وسألها بصوت هادىء عميق: «هل يمكنني مساعدتك؟» فنظرت الفتاة إليه وقد بدا الارتياح في عينيها وهي تقول: «إنه شيء تافه. لقد دخل كعب حذائي في شق مصرف الماء ولم أستطع نزعه حيث أن يديَ مشغولتان كما ترى. فإذا تكرمت بحمل هذه الأشياء عني... إن حذائي بأربطة بحيث لا أستطيع إخراج قدمي منه.»

جعل الحجم الكبير للرجل، المارة يفسحون لهما المكان. وقال لها: «هل تسمحين؟» ثم انحنى يفك رباط الحذاء. وعندما أخرجت قدمها منه أخذ هو يعالج الكعب بعناية إلى أن أخرجه من الميزاب الضيق، فأمسك بفردة الحذاء إلى أن عادت فأدخلت قدمها فيها، ثم شد رباطها وشكرته الفتاة وهي تبتسم في وجهه الوسيم لتصدم بعينيه الزرقاوين الباردتين ومظهره الجامد، كما لو أنه كان قد كلف بعمل متعب.

حسناً، ربما كان العمل متعباً، ولكن ما كان له أن ينظر إليها بهذه الطريقة. لقد ابتسم لها الآن، ولكنها ابتسامة صغيرة لم تكد تتجاوز رؤية فمه الصارم مما أعطاها انطباعاً بأنه فهم ما يجول في ذهنها.

بهتت ابتسامتها وهي تنظر إليه بعينيها القاتمتين الرائعتين، متمتمة بتحية الوداع، ثم تستدير منضمة إلى الجموع المسرعة حولها. لقد جمّد مشاعرها دون أن تدرك السبب. وطردته من ذهنها وهي تتحول إلى شارع جانبي تقوم على جانبيه منازل قديمة الطراز، دلت الستائر المسدلة على نوافذها على تمسك المستأجرين بالنظام. وفي منتصف الشارع، دخلت منزلاً منهاراً كان يبدو أفضل

نوعاً ما من المنازل المجاورة، ثم أغلقت الباب خلفها. كانت الردهة ضيقة مظلمة نوعاً ما وقد انتشرت في جوها روائح أطعمة متنوعة. وتشممت الفتاة الجو بأنفها الجميل ثم ابتدأت تصعد السلم حين تناهى إلى مسامعها صوت من غرفة قريبة قائلاً:

«أهو أنت يا آنسة بلونت؟ لقد أتت لك مخابرة هاتفية.»

وبدا من الباب وجه سيدة متوسطة السن متوجاً بشعر أشقر مستعار. وقالت: «لقد اتصلت بك والدتك العزيزة وقد أخبرتها بأنك ستكونين هنا الساعة السادسة.»

توقفت الفتاة على درجات السلم قائلة: «شكراً يا آنسة فيبس. سأتصل بها حالما أدخل غرفتي.»

ابتسمت لها وهي تتمتم، ثم تابعت صعود السلم قفزاً إلى الطابق الأعلى لتفتح باب الغرفة الوحيدة هناك. كانت غرفة فارهة بنافذة مشعة تطل على الشارع، ونافذة أصغر تطل على المنظر الخلفي الكئيب للمنزل الذي تعترضه حبال الغسيل. ولكن كان ثمة شجرة تكمن بين أغصانها طيور السنونو تنتظر فتات الخبز على حافة النافذة. وكان في الغرفة «مغسلة» في أحدى زواياها وموقد غاز صغير قرب المدفأة القائمة في الزاوية. كان ثمة مدفأة غاز صغيرة. هذا كله حسب ما تقول الآنسة فيبس يضيف نوعاً من الرفاهية العصرية. وكان الحمام في الطابق الأسفل مشتركاً بين المستأجرين. ولكن لم يكن ثمة مشكلة بالنسبة إليها حيث كان عملها ليلياً بينما عمل بقية المستأجرين كان نهارياً.

وضعت مشترياتها على منضدة صغيرة تحت النافذة وخلعت معطفها ثم حذاءها ووضعت قدميها في الخف

وانحنت ترفع القطة الصغيرة التي كانت تنام مكورة حول نفسها إلى جانب الجدار وهي تقول: «هيا يا مابيل سأعود حالاً لأضع لك العشاء.»

كان الهاتف في قاعة الجلوس مما كان يجعل المكالمات الخاصة مستحيلة، إذ أن الآنسة فيبس كانت من النادر أن تغلق باب غرفتها.

رفعت الفتاة السماعة تطلب منزلها، ليتناهى إلى مسمعها صوت أمها: «مرحباً، صوفي... لا شيء مهماً يا ابنتي... لكنني أردت أن أطمئن إلى أنك بخير وأن أعرف متى يمكنك القدوم لقضاء يوم أو يومين معنا.»

قالت صوفي: «كنت أعتزم القدوم آخر هذا الأسبوع. ولكن زميلتي الآنسة سايموندس مريضة ولن يمكنها العودة إلى العمل قبل نهاية الأسبوع القادم مما سيعطيني الحق عند ذاك، بأخذ إجازتين للراحة الأسبوعية بدلاً من إجازة واحدة أي حوالي الأسبوع.»

جاءها الرد: «هذا حسن، اعلمينا إذن بموعد قدومك لنرسل اليك من ينتظرك في محطة القطار. هل أنت مشغولة؟»

أجابت صوفي: «ليس كثيراً فالعمل هو نفسه.»

كان هذا جواب صوفي الدائم. فقد كانت في الحقيقة مشغولة دوماً. فقسم الطوارىء وغرفة الحوادث لا تعرف الهدوء ولا تميز بين الليل والنهار. وقد كانت تعرف أن فكرة أمها عنها أنها تجلس طوال الليل إلى مكتب منظم تعطي الإرشادات لتقوم من وقت لآخر بتفقد سير العمل والحالات الخطيرة... ولم تحب صوفي أن تغير من فكرة أمها تلك. لقد كانت في الليالي التي يشتد فيها العمل، لا تكاد

www.elromancia.com

ترى مكتبها ذاك وهي تضع منزرها البلاستيك حولها، وترفع كميها لتعمل حيثما يحتاج الأمر إلى تدخلها.

تابعت أمها: «هل الآنسة فيبس تستمع إلى الحديث؟»

أجابت صوفي: «بالطبع...»

قالت الأم: «ماذا سيحدث لو عدت إلى غرفتك مع رجل لتناول العشاء معك؟» وأتبعت كلامها بقهقهة.

قالت صوفي: «ومتى كنت أملك الوقت لمثل هذا؟» قالت ذلك وقد سرحت أفكارها مع ذلك الرجل ذي العينين الزرقاوين الباردتين. وبعث منظر غرفتها بشبه ابتسامة إلى شفتيها. لا بد أنه لم ير شيئاً مثل هذا في حياته.

أنهتا المخابرة إذ لم يكن الحديث سهلاً وشعر الآنسة فيبس المستعار يلوح من خلال فتحة بابها وهي تستمع. وصعدت صوفي إلى غرفتها حيث أطعمت القطة مابيل، ثم فتحت النافذة لتسمح لها بالخروج بعد ذلك للتنزه، ثم نظمت مشترياتها في أماكنها. ومن عمل إلى آخر استطاعت بصعوبة أن تجد الوقت لإعداد عشائها. وقبل ذهابها إلى العمل، أعدت الشاي وفتحت علبة بازيلا وقلت بيضة، ثم أصلحت من شعرها وزينتها أمام مرآة قديمة الطراز علقت على الجدار فوق المغسلة. وتأملت وجهها المرهق وهي تقول لقطتها التي كانت تراقبها من على السرير: «سوف تزحف التجاعيد إلى وجهي قبل أن أعرف ماذا سيكون مستقبلي.»

لكن لم يكن لمثل هذه الأفكار أية صحة، فقد كانت تتمتع بوجه جميل وعينين رائعتين وأنف دقيق يعلو فماً رقيقاً ممتلئاً، إلى أهداب طويلة مقوسة داكنة بلون شعرها الكثيف

المصفف بطريقة تبقيه على أناقته وشكله على الدوام وكيفما كان انشغالها.

توقفت لتضع قبلة على رأس القطة، وتناولت حقيبة الكتف وخرجت من الغرفة ممشوقة القوام رائعة الساقين.

قد تفتقد شقتها الصغيرة جمال منزلها في الريف ولكنها كانت قريبة من مكان عملها في المستشفى، خمس دقائق فقط مشياً على الأقدام.

اجتازت الساحة بينما الرجل الذي كان قد ساعدها في استخلاص حذائها، يراقبها من غرفة اجتماع اللجنة مرة أخرى فيما كان يتبادل أحاديث متفرقة مع زملائه وقد ارفض الاجتماع ووقفوا متباطئين في الخروج. غداً سيكون يوماً حافلاً، لقد قدم إلى انكلترا خصوصاً ليقوم باجراء عملية جراحية لاستئصال ورم في المخ. وكان من المشهود لهم بالخبرة الفائقة في جراحة المخ. ولهذا فقد كانت أكثر عملياته يجريها دولياً. وقبل ذلك بلغت شهرته في بلده أعلى الدرجات.

وقف الآن يتطلع من النافذة متفحصاً قوام صوفي الرائع وهي تجتاز باحة المستشفى.

قال يسأل صديقه القديم الدكتور ويلز طبيب التخدير الذي عمل معه هذا الصباح، سأله وهو يشير إلى صوفي: «من تكون تلك؟»

أجابه: «إنها صوفي الممرضة الليلية في قسم الحوادث الطارئة. إنها تستحق وزنها ذهباً... وهي جميلة.»

افترقا إلى حين، واتجه هو، البروفسور ريجيك متمهلاً نحو مدخل المستشفى، وقبل أن يصل أوقفه جرّاح كان

عليه أن يكون المساعد له في عملية الصباح التالي. وبينما استغرقا في الحديث، علا صوت عربة الاسعاف في طريقها إلى قسم الحوادث الطارئة.

كانا ما يزالان يستعرضان عمل الصباح عندما قاطعهما رنين هاتف الجيب «البليب» في جيب الجرّاح المساعد.

استمع الجرّاح إلى «البليب» برهة ثم قال: «إنها إصابة في الرأس دخلت تواً. الحالة اختلاط رضّة وتمزق...»

تناول البروفسور الهاتف وأدار رقماً ليقول: «مرحباً، جون! ريجيك، بيتر سمول معي هنا وهم يطلبونه في غرفة الحوادث حيث أن حالة إصابة في الرأس دخلت تواً. وحيث إنني هنا هل يمكنني إلقاء نظرة على الحادث؟ إنني أعلم أنك لست المسؤول الليلة...» واستمع برهة ثم قال: «حسناً... سنذهب لإلقاء نظرة.»

أعاد الهاتف إلى زميله قائلاً: «لا أظنك تمانع إذا أنا ألقيت نظرة على الحالة. ربما كان هنالك شيء يمكنني أن أقترحه...»

قاطعه هذا: «ذلك حسن جداً يا سيدي إذا لم يكن عندك مانع.»

أجابه: «كلا... أبداً.»

كانت غرفة الحوادث مشغولة كالعادة. وبنظرة خبيرة ألقتها صوفي على المريض، أرسلت مساعدتها مع ممرضتين تلميذتين للتصرف مع الحالات الأقل أهمية، مبقية معها الممرضة الثالثة في الوقت الذي أدخل فيه المريض على الكرسي ذي العجلات ليمدد على السرير الخاص. وكان ضابط قسم الحوادث هناك، وبينما أخذ

يتصل بالجرّاح المسؤول، أخذت صوفي وزميلتها تعلقان الأنابيب الطبية المختلفة وتتفحصان أسطوانة الأوكسجين، وكانتا تعملان بثبات وثقة تدلان على طول خبرتهما العملية. فقد علمت صوفي حين نظرت إلى المصاب أنه في حالة سيئة. وكانت تحاول عد النبض الواهن عندما انتبهت إلى شخص يقف خلفها مباشرة ثم يزيحها برفق إلى ناحية ثم يمد يداً عريضة قوية ترفع الضماد عن الرأس المصاب.

قال البروفسور: «ما هي معلوماتك عن الحالة يا أخت؟»

ابتدأت تقول: «سقوط من الطابق السادس إلى الرصيف. النبض واهن وبطيء وغير منتظم. سائل النخاع الشوكي يتدفق من الأذن...»

كان تدريبها الجيد ظاهراً وهي تتكلم ببطء وثبات وبكلمات مختصرة بينما كان ذهنها يعمل بسرعة مسجلاً أن هذا الرجل إلى جانبها، كان منذ أقل من ساعتين، يربط لها حذاءها.

فكرت، يا له من عالم صغير. ونظرت مرة أخرى إليه ولكن لثانية واحدة فقط إذ كانت مشغولة جداً بتعليق الأنابيب العلاجية حسب إرشاد الجرّاح.

انحنى الرجلان فوق المريض بينما كانت هي تأخذ ضغطه ذا الصعود المخيف والطبيب المناوب يتطلع إلى كسور وأضرار أخرى في الجسد.

أخيراً اعتدل البروفسور في وقفته قائلاً: «ثمة كسر داخلي عميق. فلنأخذ له صورة بالأشعة ثم ندخله غرفة العمليات.»

www.elromancia.com

نظر إلى زميله «بيتر سمول» قائلاً: «هل توافق؟ ثمة حظ حسن لهذا المصاب...»

تطلع إلى صوفي قائلاً: «أظن من الأفضل لو اتصلت بغرفة العمليات لإخبارهم يا أخت، وشكراً.»

ألقى عليها نظرة مختصرة. وفكرت صوفي في أنه لا يبدو عليه أنه عرفها. ولكن لماذا يعرفها؟ إنها ترتدي الآن ملابس التمريض الزرقاء القديمة الطراز والقبعة «المكشكشة» على الرأس والتي رفضت لجنة الإدارة في المستشفى استبدالها «بقبعة» من الورق المقوى والنايلون، وابتعد الرجلان تاركين لها تدبير أمر انتقال المريض إلى قسم العمليات، وابلاغ ممرضة العمليات الليلية وقسم العناية الفائقة وقسم الجراحة للرجال... وعند انتهاء كل ذلك، يأتي دور انجاز الأوراق الثبوتية الرسمية: الإسم والعنوان والجنسية والأسرة... وفكرت صوفي في أن هذه الليلة ستكون متعبة حقاً بكل هذه التسجيلات والإتصالات الهاتفية ومعاملات الشرطة، وفي نفس الوقت ملاحظة الحوادث الطارئة المستجدة. ليس ثمة ما هو خطير من الناحية الطبية ولكنه سيىء بدرجة كافية بالنسبة إلى مصاب يأتي متألماً من التواء في كاحله أو جرح في رأسه أو كسر في ذراعه أو ساقه. وجميعها بحاجة إلى عناية أو صور أشعة أكس، وتنظيف وخياطة الجروح ووضع ضمادات وأربطة، وأحياناً إدخال إلى المستشفى.

كانت الساعة الثانية صباحاً عندما أنهت التهام شطيرة وكوب من الشاي إذ لم يكن وقتها يسمح لها بالذهاب إلى المطعم لتأكل شيئاً، حين أحضرت طفلة تصرخ بين ذراعي

والدتها، لتسلمها هذه إلى صوفي وهي تقول: «لقد وقعت من أعلى السلم وما زالت تصرخ إلى الآن.»

مددت صوفي الجسد الصغير برفق على أحد الأسرّة وهي تسأل الأم: «متى حدث ذلك؟»

هزت المرأة برأسها قائلة: «لا أدري. لقد أخبرتني جارتي بذلك عند عودتي إلى البيت حوالي الساعة التاسعة.»

أخذت صوفي تفحص جسد الطفلة برفق وهي تسأل الأم: «هل تركت سريرها؟»

أجابت الأم: «السرير؟ إنها لا تذهب إلى سريرها قبل حضوري إلى البيت.» وأرسلت صوفي ممرضة لتخبر الطبيب المناوب، وعندما جاء برفقتها، تركت صوفي الممرضة مع الطبيب ثم أشارت إلى الأم لتأتي إليها في المكتب حيث قالت لها: «أريد منك اسمك وعنوانك واسم الطفلة. كيف استطاعت أن تصعد السلم؟ هل الشقة عالية؟»

ألقت نظرة أخرى على العنوان وعادت تسأل: «إنها في نهاية شارع مونتروز أليس كذلك؟»

أجابت: «هذا صحيح. إنها في الطابق الخامس. إنني أترك عادة الباب مفتوحاً لتتمكن جارتي من تفقد الطفلة ترايسي...»

سألتها: «هل تتركينها وحدها أثناء النهار؟»

أجابت: «ليس دائماً. وأحياناً في الليل عندما أذهب إلى الحانة الليلية.»

قالت صوفي: «حسناً. دعينا نرى ما سيقوله الطبيب عن

www.elromancia.com

حالة ترايسي. ربما يجد من الأفضل إدخالها المستشفى ليوم أو اثنين.»

قالت الأم: «هذا أفضل فإن عويلها سيسبب لي الجنون.»

كانت ترايسي قد توقفت عن الزعيق عدا فترات متقطعة كانت تعبّر بها عن تعاستها.

سألت صوفي الطبيب: «هل تريد إدخالها المستشفى للمراقبة يا دكتور رايت؟»

في الوقت نفسه قطبت جبينها محذرة الطبيب وكان الدكتور رايت وصوفي صديقين منذ مدة طويلة وكان يفهم معنى تقطيبها ذاك.

أجاب: «بالتأكيد، وأرجو تدبّر أمر إدخالها.» ونظر إلى المرأة متابعاً: «هل هذه أمها؟»

بادرت المرأة تقول بسرعة: «إنه ليس ذنبي. من حقي أن أحظى بشيء من المتعة بعد أن هجرني زوجي. أليس كذلك؟»

فكرت صوفي في أن الزوج لا بد معه الحق في ذلك. فقد كانت المرأة قذرة، وبينما كانت في غاية التبرج وتلبس ملابس عصرية رخيصة الثمن، كانت الطفلة كريهة الرائحة قذرة الملابس وليس عليها حفاظ. وقالت لها صوفي: «إنك تستطيعين زيارتها متى شئت. هل تريدين البقاء معها إلى حين استقرارها؟»

أجابت الأم: «كلا، شكراً. عليّ أن أنال قسطاً من النوم، أليس كذلك؟»

أومأت إلى الطفلة قائلة: «إلى اللقاء الآن... ليلة سعيدة للجميع.»

قالت صوفي: «سنذهب الآن إلى قسم الأطفال. سألف

هذه الطفلة في حرام وأحملها إلى هناك. من المؤسف أننا لن نستطيع غسلها هنا فإنني لست في غنى عن أي من ممرضاتي الآن.»

لفّت الطفلة بالحرام جيداً. لم يكن ثمة كسور في جسدها لحسن الحظ، وإنما كدمات كثيرة. وعند الصباح سيمر طبيب الأطفال ليراها ويفحصها بشكل شامل ليتأكد من عدم حدوث أية أضرار كبيرة في جسمها.

استقلّت المصعد إلى الطابق الثالث حيث مشت في ممر طويل لتصادف البروفسور الفارع القامة آتياً من الناحية المقابلة. وكان ما يزال في ثياب العمليات.

سألها بوجه مشرق: «هل كانت ليلتك شاقة يا أخت؟»

أجابت باختصار مهذب: «نعم يا سيدي.»

عاد يقول: «الليل ليس هو المكان المناسب لتجديد التعارف. أليس كذلك؟»

وقف جانباً مفسحاً لها الطريق لتمر، وهو يتابع: «فلنأمل في أن يسعفنا الحظ بلقاء آخر.»

كانت صوفي متعبة وفي حاجة ماسة إلى كوب من الشاي والجلوس لفترة ترتاح فيها قليلاً. ولم تكن في حالة تسمح لها بتبادل المجاملات. فقالت وهي تعدل من وضع الطفلة النائمة فوق كتفها: «هذا غير محتمل.»

تجاوزته بنظراتها وتابعت السير بضع خطوات لتقف فجأة ثم تلتفت إليه قائلة: «ماذا بالنسبة لذلك الرجل الذي أجريت له العملية؟»

أجاب: «لقد حظي بشيء من الحظ والتمريض الحسن. وسيعيش.»

www.elromansy.com روايات رومنسية

أومأت برأسها وهي تتابع طريقها: «أوه... إنني مسرورة لذلك.»

عندما جاءت الممرضة المسؤولة في الصباح، ابتدأت بالشكاوى. كانت في الأربعين من عمرها أي السن التي تصبح فيها الشكوى مجرد عادة. ونفد صبر صوفي وهي تستمع إلى الانتقادات المختلفة لحالة الجو، ونوع الفطور وعدم تهذيب تلميذات التمريض، واستحالة العثور على الحذاء المناسب الذي تريد... الخ. وما لبثت أن تثاءبت ثم ودعت زميلتها وخرجت.

كان طعام الفطور يبعث دوماً في نفس الممرضات البهجة على الرغم من التعب الذي يشعرن به عادة، بعد سهر الليل.

سكبت صوفي لنفسها كوباً من الشاي ووضعت بعض الطعام في طبق وجلست مع بعض زميلاتها يثرثرن. وبرغم الإرهاق الذي كنُّ يعانينه جميعاً بعد السهر، فقد كان الحديث الذي دار بينهن شيقاً مليئاً بالحيوية.

استحوذ حديث ممرضة العمليات على اهتمامهن جميعاً وهي تقول: «لقد ابتدأنا في الساعة التاسعة ولم ننته إلا في الساعة الثانية صباحاً. لقد كان ذلك الرجل المتفوق هو الذي يقوم بإجراء العمليات. إنه من هولندا وهو هنا الآن يقدم بعض الطرق المستحدثة في الجراحة. ولقد قام في الواقع بما يشبه المعجزة أثناء إجراء العملية لذلك الشاب المسكين.»

أشرق وجه احداهن وكانت شقراء ذات عينين زرقاوين واسعتين، وهي تقول باندفاع: «إنه رائع... يجب أن تريه.

إنه فارع الطول أزرق العينين أشقر الشعر بسالفين أبيضين جميلين. وهو سيقوم بإجراء عملية أخرى الساعة العاشرة. وعندما سمعت الأخت تاكر به قالت إنها ستقف معه كمساعدة...»

علا الضحك. فقد كانت الأخت تاكر شديدة الكبرياء ومن المسؤولات في العمليات ونادراً ما كانت تقوم بالعمل بنفسها.

قالت احداهن: «وماذا عنك يا جيل؟ أراهن على أنك تتمنين لو وقفت أنت أيضاً على العملية مع البروفسور. وأنت يا صوفي... هل تظنين أنه رجل معجزة؟»

قالت صوفي وهي تتناول قطعة من الخبز المحمص: «نعم، لقد أتى إلى غرفة الحوادث مع الدكتور بيتر سمول، أظنه حديث الوصول إلى هنا.» ورفعت قطعة الخبز إلى فمها، ولكن رفيقاتها أخذن يسألنها بفارغ صبر: «حسناً... كيف يبدو؟ هل نظرت إليه جيداً؟»

أجابت: «ليس تماماً... إنه طويل وعريض...» ونظرت حولها وهي تستطرد: «لم يكن ثمة وقت...»

قالت إحداهن: «هذا حظ سيىء إذ من غير المحتمل أن تريه مرة أخرى. جيل فقط هي الحسنة الحظ.»

جاء سؤال من أخرى: «أي منكن عندها إجازة ليلية؟»

أجابت المحظوظات بالإيجاب، وسألت إحداهن صوفي: «أنت يا صوفي؟ أليست إجازتك آخر هذا الأسبوع؟»

أجابت صوفي: «نعم، ولكن آيدا سايموندس مريضة مرة أخرى، ولهذا يتوجب عليَ أن أحلّ مكانها في العمل آخر هذا الأسبوع. ولكن لا بأس فسآخذ الأسبوع بأكمله عندما

www.elromancia.com

تعود.» ورفعت كفها تغطي تثاؤبها وهي تقول: «يجب أن أذهب إلى الفراش.» وتركت الممرضات المائدة متجهات إلى غرفة تغيير الملابس. ليتفرقن بعد ذلك في اتجاهاتهن المختلفة. وكان البروفسور في سيارته في باحة المستشفى يراقب صوفي وهي تخرج من المدخل ثم تتجه إلى الشارع، وذلك قبل أن يخرج من سيارته ويتمشى إلى غرفة العمليات حيث كانت الأخت تاكر في انتظاره.

اعدّت صوفي لنفسها، في غرفتها الصغيرة، كوباً من الشاي ثم أطعمت قطتها. بعدها وجدت أن أفكارها تتحول نحو البروفسور. لم تشأ الاعتراف بذلك ولكنها ترغب في مقابلته مرة أخرى. وساورها شعور بالذنب في أنها قد تكون تصرفت معه بشيء من الغلظة عندما تقابلا وهي في طريقها إلى قسم الأطفال. ولكن لماذا قال إنه يتمنى لو يتقابلا مرة أخرى؟

لم تكن صوفي فتاة مغرورة، ولكنها كانت تدرك أنها حسنة المنظر وإن تكن أكبر من أن تعد جميلة، ومع أنها جميلة حقاً فإنها لم تفكر قط في كونها رائعة الجمال. ولم تكن تنقصها دعوات الأطباء إلى الخروج حقاً. وكانت تلبي بعضها أحياناً، لكن قلبها بقي خالياً ورضيت بالبقاء كما هي إلى أن يأتي الرجل المناسب. لقد تلقت عدة عروض بالزواج وردتها بلطف قدر إمكانها، وذلك في انتظار رجل الأحلام الذي سيقتحم قلبها دون أن يترك في نفسها مكاناً للشكوك.

اندسّت في فراشها محتضنة قطتها لتستغرق في نوم عميق متجاهلة النصيحة الطيبة التى قدمتها إليها صاحبة

المنزل بأن التمشي قليلاً قبل النوم سيكون نافعاً لها كممرضة ليلية. ذلك لأنها، أي صاحبة المنزل، لم تكن يوماً ما، ممرضة ليلية ليكون عندها فكرة عن التعب الذي تشعر به الممرضة عند رجوعها إلى بيتها بعد انتهاء الدوام، عدا عن أن هذه المنطقة من لندن لم يكن فيها ما يشجع على التمشي.

استيقظت صوفي شاعرة بالنشاط، فاغتسلت وأطعمت القطة، ثم أعدّت لنفسها كوباً من الشاي وجلست وهي ما زالت في معطفها المنزلي، بجانب المدفأة. وكانت على وشك أن تدفع الكوب إلى شفتيها حين قرع الباب.

تمتمت صوفي غاضبة تكلم قطتها التي أجابتها بالمثل. لا بد أنها الآنسة فيبس جاءت تقبض الإيجار كعادتها قبل أن يحل نهاية الأسبوع. والتقطت صوفي كيس نقودها ثم فتحت الباب. ولكن... كان الأمر فقط أن الطارق لم يكن الآنسة فيبس وإنما... كان البروفسور «فان تاك تير ويجسما.»

فتحت صوفي فاها، ولكن، قبل أن تقول شيئاً كان قد وضع اصبعه على فمها.

قال البروفسور بصوت جعله مسموعاً لتلك السيدة التي كانت واقفة في أسفل الدرج تستمع: «إن صاحبة المنزل الطيبة كانت بالغة اللطف إذ سمحت لي بزيارتك لأمر بالغ الأهمية.»

أثناء كلامه كان يدفعها برفق إلى داخل الغرفة، ليغلق الباب بعد ذلك خلفهما.

قالت صوفي وقد شعرت بحرارتها ترتفع: «حسناً... ماذا بحق السماء تفعل هنا؟ ابتعد حالاً.»

www.elromancia.com

تذكرت أنها ما زالت في معطفها المنزلي المصنوع من الساتان الوردي... فاستطردت تقول: «ترى أنني غير مرتدية ملابسي.»

أجاب: «لقد لاحظت ذلك. ولكني بما أن لي خمس شقيقات أراهن دوماً في ثيابهن المنزلية، فإن منظرك لم يكن غريباً عليّ.» وأضاف وهو يتأملها: «مع أن ثوبك هذا يناسبك تماماً.»

قالت صوفي بحدة: «وما هو الأمر المهم الذي جئت لأجله؟ لا يمكنني تصور ماذا يمكن أن يكون.»

قال برقة: «كلا طبعاً. وكيف يمكنك أن تعرفي؟ سأذهب غداً إلى ليفربول وسأعود يوم الأربعاء. وأظن أن رحلة داخل الريف أثناء فراغك من العمل قد تعجبك... أعني بالنسبة للهواء الطلق، تعرفين ذلك... على أن أعيدك قبل الساعة الواحدة ظهراً لكي تذهبي إلى فراشك مباشرة.» أخذ يطوف في أرجاء الغرفة متفحصاً كل شيء ليقول بعدها: «لماذا تعيشين في هذه الغرفة المريعة مع تلك المرأة الفظيعة صاحبة المنزل؟»

قالت: «لأنها قريبة من المستشفى ثم إنني لا أستطيع دفع إيجار أعلى لغرفة أفضل.» وسكتت برهة ثم استطردت: «هيا... اخرج... لماذا أنت هنا؟ لا أستطيع أن أفكر في سبب قدومك.»

أجاب: «السبب هو لأخبرك بأنني سأحضر إلى هنا لاصطحابك صباح الأربعاء في رحلة هادئة، وهذه الرحلة ستهدىء أعصابك.»

وقفت أمامه محاولة التفكير في الكلمات المناسبة

لتعلمه رأيها فيه، ولكنها لم تستطع العثور عليها. وقال هو برقة: «سأكون هنا عند الساعة التاسعة والنصف.»

انحنى يحمل القطة مابيل التي استندت إلى كتفه وهي تخرخر مسرورة.

انتاب صوفي شعور مخجل بأن الاستناد إلى كتفه هذه لا بد أن يكون ممتعاً. وأحست بنفسها تقف أمام رياح عاصفة على وشك أن تقذفها بعيداً. وسمعت نفسها تقول: «لا بأس. إنما لا يمكنني معرفة السبب. حسناً، اذهب الآن إذ يتوجب عليّ الذهاب إلى العمل بعد نصف ساعة.»

قال: «سأنتظرك في الأسفل لكي نتمشى معاً نحو المستشفى. لا تتأخري إذ أظن أنني سأتعرض إلى أسئلة لن تنتهي من الآنسة فيبس.»

خرج تاركاً إياها لترتدي ملابسها بسرعة وتصلح من شعرها وزينتها، وتقضي شؤون قطتها لهذه الليلة. وكانت أثناء ذلك تفكر في البروفسور. وفكرت في أنه متعجرف قد اعتاد فرض نفوذه وإرادته الخاصة وبدون شك، يحصل على أية رغبة تعرض له، هل لأنه حدث أن كان موجوداً عندما كانت بحاجة إلى المساعدة لأجل ذلك الحذاء اللعين، أصبح له الحق بالتطفل عليها؟ وقالت تخاطب مابيل: «سأخبره بأنني غيرت رأيي. ليس ثمة سبب يجعلني أخرج معه.»

وضعت قطتها الصغيرة في سلتها والتقطت حقيبة الكتف، ثم خرجت من الغرفة.

كانت الآنسة فيبس وقد توردت وجنتاها وانحرف شعرها الذهبي المستعار عن مكانه، واقفة تتكلم مع

البروفسور وتخبره بأدق التفاصيل بمقدار الألم الذي يسببه لها مسمار اللحم في قدمها. وكان البروفسور الذي لم يكن له أية علاقة بمسامير اللحم في الأقدام منذ سنوات يستمع إليها بلطف وبشاشة ثم نصحها بكل حرارة، بزيارة طبيبها الخاص. ثم تمنى لها ليلة سعيدة وهو يأخذ بيد صوفي ويقودها إلى الشارع المظلم.

قال وهو يتأبط ذراعها: «إنني لا أحب هذا الشارع.»

لسبب ما شعرت لدى ملامسة ذراعه، بشيء من القلق. وأجابته وهي تدرك أن ما تقوله خال من التهذيب: «حسناً... ليس عليك أن تسكن فيه، أليس كذلك؟»

كان جوابه حاسماً وهو يقول: «يا فتاتي المسكينة، يجب أن تعيشي في الريف حيث الحقول المثمرة و...»

قاطعته بنزق: «حسناً... إن بيتنا في الريف.»

سألها بلهجة عفوية: «ألا تحبين أن يكون عملك قريباً من منزلك؟»

جعلتها لهجته تجيب دون تفكير: «سيكون ذلك رائعاً لو حصل. ولكن البيت بعيد عن أي مكان أميالاً عديدة.الى جانب ذلك فأنا أصل إلى البيت من هنا بسهولة.»

لم يعلق هو على كلامها المتناقض، إذ كانا قد وصلا إلى باحة المستشفى حيث أدلى ببعض الملاحظات عن بناء المستشفى. وعندما أصبحا في الداخل تمنى لها ليلة طيبة ثم فارقها متجهاً إلى غرفة المستشارين. وفي غرفة الملابس التي كانت مكتظة بالممرضات في ملابس التمريض، جاءها صوت جيل من أقصى الغرفة يقول: «لقد بقي يعمل في غرفة العمليات قسماً كبيراً من النهار،

وسيحضر لإلقاء نظرة على مرضاه هذا المساء في قسم الرجال للجراحة، وسأذهب أنا عند ذلك إلى هنالك مختلقة عذراً ما فقط لكي أراه.» ووجهت حديثها إلى ممرضة الليل في ذلك القسم قائلة: «كيتي... هل لك أن تتصلي بي هاتفياًحال وصوله؟ إنه راحل غداً صباحاً. هل تعرفين هذا؟ ولكنه سيعود.»

سألتها واحدة منهن: «كيف علمت بذلك؟»

أجابت: «لقد ثرثرت هاتفياً لبعض الوقت مع ممرضة العمليات.»

ضحكت الفتيات جميعاً حتى صوفي ضحكت شاعرة في نفس الوقت بما يشبه الشعور بالذنب... ولكن شيئاً ما منعها من أن تخبر الفتيات بزيارة البروفسور غير المتوقعة لها هذا المساء، ولا بما دار بينهما من حديث. وفكرت في أنهن لن يصدقنها على أي حال. إنها نفسها لا تكاد تصدق ذلك.

مرت ليالٍ وجاء صباح الأربعاء المنتظر وكان عدم رؤيتها للبروفسور بعد ذلك الموعد، قد منعها من أن تعود فترفض الخروج معه.

قالت تحدث قطتها التي كانت تنظف شاربيها غير آبهة لها: «سأخبره بذلك عندما يأتي.»

شعرت صوفي بعد ليلة مجهدة بتوتر بالغ جعلها تطوف في أنحاء غرفتها دون جدوى مترددة بين الاغتسال أو تناول كوب شاي يريح أعصابها قبل ذلك، حين صعدت الآنسة فيبس إليها تخبرها بمخابرة هاتفية قائلة لها وهي تبتسم: «ذلك السيد الظريف قال لي بأن أخرجك من الحمام

لو اقتضى الأمر... إنها مزحة كما ترين والرجال يحبون المزاح البسيط.»

كتمت صوفي جواباً فظاً ثم نزلت السلم وصاحبة البيت تتبعها حيث اتجهت إلى غرفتها مباشرة دون أن تنسى إبقاء الباب مفتوحاً قليلاً.

قالت صوفي محملة صوتها أقوى ما تستطيع من عجرفة: «مرحباً.» وجاءها صوت البروفسور يقول بلطف: «طبع سيىء جداً. سأكون عندك بعد عشر دقائق.»

أقفل الهاتف دون أن يترك لها مجالاً للرد. وما أن وضعت السماعة حتى رن الهاتف مجدداً فرفعتها ليأتيها صوته ثانياً: «إذا لم أجدك أمام الباب فسأصعد إليك في غرفتك. لا تهتمي فسأكون مصطحباً صاحبة البيت.»

وضعت صوفي السماعة بعنف متجاهلة التساؤل في وجه صاحبة البيت التي كانت تتلصص من وراء بابها. ثم صعدت تجر نفسها إلى غرفتها لتحدث قطتها قائلة: «لا أريد الخروج. إن ذلك آخر شيء أرغب في القيام به.» ولكنها مضت تصلح من شعرها وزينة وجهها، ثم ارتدت معطفها وهي تطمئن القطة إلى أنها لن تتأخر ثم نزلت إلى أسفل.

كان البروفسور هناك يتبادل الحديث مع الآنسة فيبس التي رمقت الفتاة بنظرة مريعة يتجلى فيها الاشمئزاز وهي تقول شيئاً عن الفتيات الجميلات اللواتي لا يهتممن بالنوم صيانة لجمالهن.

رمقتها صوفي بنظرة مهينة، وألقت إلى البروفسور تحية باردة ومشت تاركة إياه يودع صاحبة البيت بتحية رقيقة، خارجة تستقبل صقيع الصباح.

حيرها صمته وهو يقود السيارة خارجاً من لندن، مجتازاً الضواحي لينحرف في طريق جانبي إلى الريف ثم منحرفاً مرة أخرى في طريق أضيق لا نهاية له.

سألها: «هل تشعرين بتحسن؟»

أجابت: «نعم، شكراً.»

عاد يسألها بصوت هادىء: «هل تعرفين هذه المنطقة؟»

أجابت: «كلا... خاصة الطرق الجانبية.» وتوقفت عن الكلام في الوقت المناسب.

قال: «أظنه أكثر سرعة بالنسبة إليك إذا استدرت عند رومفورد مجتازة «تشيبين أونغار».

استدارت تنظر إليه ولكنه كان ينظر إلى الأمام وقد بدا جانب وجهه هادئاً.

سألته: «كيف عرفت مكان سكني؟»

لقد انتبهت جيداً الآن بعد أن كانت شبه غافية.

أجابها: «لقد سألت بيتر سمول. هل عندك مانع؟»

قالت: «عندي مانع؟ لا أدري ولا أستطيع أن أفهم لماذا تريد أن تعرف. هل هو مجرد فضول؟»

أجاب: «كلا... أبداً. إنني لا أسمح للفضول بأن يتطرق إلى نفسي. والآن إذا لم أكن مخطئاً، هناك مكان عام في القرية التالية حيث نستطيع أن نتناول القهوة.»

كان المكان ساحراً، نظيفاً ومكشوفاً نوعاً ما. وكان ثمة نار تتأجج في مدفأة مبنية من الحجر وقد استلقى أمامها كلب عجوز.

استقبلهما صاحب المكان وقد سره أن يرى زبائن يأتون إليه قبل الظهر، مقدماً إليهما خبزاً مدهوناً بالزبدة مع القهوة.

www.elromancia.com

عادت صوفي تسأل البروفسور وهي تقضم قطعة الخبز الثالثة: «لماذا أردت أن تعرف أين أعيش؟» قالت ذلك وقد بعثت فيها القهوة و«التوست» مع الشعور بالاسترخاء، شعوراً بالصداقة نحو رفيقها.

أجاب: «لا أدري إذا كنت تصدقينني إن أنا أخبرتك. هل أقول لك إنني أشعر أننا على الرغم من بداية تعارفنا غير المطمئنة، قد نصبح صديقين؟»

قالت: «وما الفائدة من ذلك؟ أعني أنك تعيش في هولندا أليس كذلك؟ أنا أعيش هنا، إلى جانب ذلك فلا يعرف أحدنا شيئاً عن الآخر.»

أجاب باسماً: «بالضبط ولذلك سيتوجّب علينا سد ذلك النقص، أليس كذلك؟ أظن أن نهاية الأسبوع ستكون إجازتك بعد السهر. حسناً، سآخذك إلى بيتك بسيارتي.»

قالت صوفي مكررة قوله كالببغاء: «تأخذني إلى بيتي بسيارتك؟ وبماذا أفسر الأمر لأمي؟»

قال بهدوء: «يا فتاتي العزيزة... لا تحاولي أن تقولي إنك لم تتعودي أن يوصلك الشبان إلى منزلك.»

أجابت بحيرة: «حسناً، نعم... ولكنك مختلف عنهم.»

ابتسم فجأة وهو يقول: «تعنين أكبر سناً؟»

اكتشفت هي أنه يعجبها أكثر مما كانت تظن. وتابع هو قائلاً: «اعترفي أنك تشعرين بتحسن يا صوفي. إنك بحاجة إلى رفقة رجل. لا ضرورة لأن يكون الأمر جدياً. فقط لبضع ساعات ممتعة من وقت لآخر. إنني على كل حال كما قلت أعيش في هولندا.»

سألته: «هل أنت متزوج؟»

ضحك برقة وهو يقول: «كلا يا صوفي. وأنت؟»

هزت رأسها نفياً وهي تقول: «قد يكون حسناً أن أتخذ صديقاً أحياناً. إنني لست متأكدة من شعوري. هل يعرف أحدنا الآخر جيداً بحيث أنام في السيارة عند رجوعنا؟»

www.elromancia.com

الفصل الثاني

نامت صوفي، ملقية برأسها على كتف البروفسور وقد انفرجت شفتاها قليلاً، لينبهها بلطف عند باب مسكن الآنسة «فيبس» ثم يساعدها في النزول من السيارة وهي غير منتبهة تماماً ثم يدخلها المنزل.

قالت صوفي: «أشكرك كثيراً. لقد استمتعت كثيراً بالرحلة.» ونظرت إليه وقد بدت عيناها شديدتي الاتساع في وجهها المتعب.

قال: «هل الساعة العاشرة من صباح السبت هو وقت مبكر بالنسبة إليك؟»

أجابت: «كلا.. فإن «مابيل» ستأتي معنا أيضاً.»

قال: «بالطبع. أتمنى لك نوماً مريحاً يا صوفي.»

قادها برفق نحو السلم ووقف يراقبها في صعودها بينما كانت الآنسة «فيبس» تراقبه من خلال بابها المفتوح قليلاً. وعندما سمع باب غرفة صوفي يقفل، استدار يتمنى للآنسة «فيبس» ليلة سعيدة ثم خرج.

حدثت صوفي نفسها بأن شعورها بالرضاء عن الحياة سببه هو تغيير المناظر ليس إلا. ونهضت من النوم يتملكها شعور بأن شيئاً ما يبعث على السرور قد حدث. صحيح أن البروفسور أدلى ببعض الملاحظات الغريبة نوعاً ما، وربما قد تكلمت هي أكثر مما يجب، ولكن ذاكرتها كانت غير واضحة، فقد كانت متعبة جداً، ولم يكن ثمة فائدة من

الاهتمام بهذه الأمور الآن. لقد كانت فكرة السفر بالسيارة إلى منزلها يوم السبت تبعث السرور في نفسها.

عندما ابتدأت عملها ذلك المساء، كان قسم الطوارىء حافلاً بالعمل. ولكن، لم يكن ثمة أي حادث خطير بل لا شيء على الإطلاق في غرفة الحوادث. وكان ذهابها إلى حيث تتناول وجبة منتصف الليل، في الوقت المحدد على غير العادة، كان ذلك مدار تعليقات مختلفة من زميلاتها.

سألتها جيل: «ماذا حدث لك يا صوفي؟ تبدين وكأنك كسبت رهاناً...» وأردفت أخرى من الجانب الآخر للمائدة: «أوقعت في الحب. ما الأمر يا صوفي؟»

أجابت صوفي: «لا شيء. كل ما في الأمر هو أنني نمت جيداً، وأن العمل هادىء في قسم الطوارىء والحمد لله.»

عادت جيل تقول: «إذا كنت تقولين ذلك، فقد خسرت أنا الرهان. ولكن ثمة خبراً أكثر إثارة، إذ أن ذلك الرجل الوسيم سيقوم بإجراء عملية غداً الساعة الثامنة صباحاً. ولقد تقدمت لأساعد «الأخت تاكر» في غرفة العمليات.»

تعالت الضحكات من الفتيات. بينما تابعت هي حديثها: «وبهذا يكون كل شيء جاهزاً لأجله. ولا يهمني أن أتأخر بضع دقائق عن العودة إلى منزلي، في سبيل ذلك.» وابتسمت ابتسامة عريضة وهي تستطرد: «ربما يمكن أن يحصل بيننا شيء ما.»

قالت «الأخت ميدلتون» المسؤولة في قسم الرجال للأمراض الداخلية والوحيدة التي كانت متزوجة منهن، ولم تكن لهذا، متأثرة بشكل خاص بما يدور من حديث، بلهجتها

www.elromancia.com

العملية: «ربما هو متزوج وأب لنصف دزينة من الأولاد. فهو لا يبدو فتياً. أليس كذلك؟»

قالت جيل بحدة: «إنه حتى لم يصل إلى السن المتوسطة لقد رأيته أنت يا صوفي.. ألا يبدو شاباً في الثلاثينات؟؟»

أجابت صوفي بلهجة غامضة: «ربما...» وسكتت وهي تمد يدها نحو طبق المربى.

قالت جيل بسعادة: «حسناً.. إنني أجرؤ على القول إنه يحب الفتيات الصغيرات المليئات بالرغبة مثلي.»

عادت الفتيات إلى الضحك وشاركتهن ذلك صوفي. إنها لم تشعر في نفسها بمثل هذه الثقة التي تغمر نفس جيل نحو البروفسور. فإن اصطحابها في رحلة خلوية لا يعني انه يهتم بها. في الحقيقة، ربما كان تصرفه هذا طريقة ذكية يخفي بها اهتمامه بجيل، التي كانت على كل حال من نوع الفتيات اللاتي يعجبن الرجال، وبرغم حيويتها وكفاءتها في غرفة العمليات، كانت من دون ملابس التمريض ضعيفة محتدمة العواطف تحتاج إلى من يحميها، وكان الضعف واحتدام العواطف غريبين عن شخصية صوفي.

في الليالي التي سبقت نهاية الاسبوع وهو موعد إجازة صوفي من العمل، لم تشاهد البروفسور. ولكنها سمعت الكثير عنه من جيل التي كانت تجهز له غرفة العمليات عقب انتهائها من العمل وقبل ذهابها إلى المنزل وقد ملأ نفسها وسامته وسحره، وزاد على ذلك أنها كانت محظوظة في الليلة التالية حين وصلت إلى عملها لتجده مازال في غرفة العمليات يجري عملية لحالة طارئة، فبادلها بعض الكلمات.

قالت جيل وهي تنظر الى ما حول مائدة الإفطار: «لا أدري أين يذهب، عادة، في عطل نهاية الاسبوع.»

لكن صوفي بقيت صامتة ولم تشأ اخبارها بجواب عن سؤالها. وبدلاً من ذلك، أعلنت أنها ستسارع في الذهاب إلى منزلها حالما تغيّر ثيابها... ثم ما لبثت ان أومأت لزميلاتها محيية، ثم تركتهن وخرجت.

ارتدت سترة جميلة مختلطة الألوان يغلب عليها اللون الأحمر مع تنورة تناسبها، ولفّت عنقها بشال سكري اللون، ووضعت قدميها في حذاء أسود عالي الكعب. وبعد أن اتقنت زينة وجهها وتصفيف شعرها، وقفت أمام المرآة المستطيلة القديمة الطراز داخل خزانتها، ومضت تنظر إلى صورتها بإعجاب. وقالت تحادث قطتها وهي تضعها في سلتها: «إن منظري لا يبدو سيئاً جداً.» ثم علقت سلة الإجازة في كتفها، ونزلت إلى الطابق الأسفل لتقف أمام الباب الخارجي. كانت الساعة العاشرة، دون أن تسمح لنفسها بالتفكير في ما يتوجب عليها عمله في ما لو لم تجده.

لكنه كان هناك جالساً في سيارته الفارهة يقرأ في صحيفة. وخرج عندما فتحت الباب حيث وقفت خلفها الآنسة «فيبس» مبقية الباب مفتوحاً دونما ضرورة لذلك. وألقى البروفسور تحية الصباح على صوفي متناولاً منها مابيل، التي كانت تدمدم غاضبة في سلتها، ثم تمنى نهاراً طيباً للآنسة «فيبس» وهو يطمئن إلى استقرار صوفي ومابيل، ثم ركب السيارة يقودها بسرعة معتدلة كادت، مع ذلك، أنفاس صوفي تتوقف خشية منها.

www.elromancia.com

وعندما ابتعد، قالت باقتضاب: «صباح الخير يا بروفسور.»

قال: «لقد ساورني الظن في أنك تضايقت من تحيتي الجافة. لقد شعرت بضرورة التحرك بسرعة، تخلصنا من تلك المرأة المتعبة وخشية أن تبدأ معنا حديثاً لا ينتهي. إنها متعبة.»

قالت صوفي ببراءة: «كلا أبداً. إنني لم أتضايق. ولكنني، في الحقيقة لم أكن متأكدة من أنك ستأتي. وبالنسبة إلى الآنسة فييس، فأنا أعتقد بأنها تشعر بالوحدة.»

ألقى إليها بنظرة جانبية وهو يقول: «من الصعب أن أصدق هذا. وأشد صعوبة منه هو أن أصدق أنك لا تثقين بكلمتي. لقد أخبرتك انني سأكون عند بابك في العاشرة صباحاً.»

قالت ببطء: «أنا لا أعني انني لا أثق بك، ولكنني لم أكن متأكدة من السبب الذي يجعلك توصلني إلى بيتي. أعني أن بيتي ليس في طريقك لتوصلني أليس كذلك؟»

أجاب: «إنني أحب أن أتعرف إلى المناطق الانكليزية قدر استطاعتي ما دمت هنا.»

لم تكن متأكدة ما إذا كان قوله هذا يعني به تعنيفاً رقيقاً أم لا... وعلى كل حال، لم تعرف بماذا تجيب، ولهذا أدلت بملاحظة عن حالة الجو، ورد هو بجواب مناسب، ليخيم عليهما بعد ذلك صمت لم يكن يشوبه سوى همهمة احتجاج من مابيل، أحياناً، من مكانها في المقعد الخلفي.

استغرقت صوفي في أفكارها متسائلة عما يجب أن

تفعله حين وصولهما إلى المنزل. هل تدعوه إلى الدخول وتناول كوب من القهوة أو الأفضل أن تشكره فقط لشهامته في التطوّع لتوصيلها، ثم تتركه يتابع طريقه إلى حيث كان يريد الذهاب؟

كانت قد اتصلت هاتفياً بأمها البارحة وأخبرتها أن ثمة من سيوصلها إلى البيت، ولم تقل شيئاً آخر.

قال فجأة وكأنه يقرأ أفكارها: «هل تحبين أن نتوقف لتناول كوب من القهوة، أم تظنين أن أمك لا بد وأن تكون جهزتها لنا؟»

قالت: «إنني متأكدة من أنها تتوقع منك الدخول لتناول القهوة، وإنما إذا شئت أن تتوقف...»

قال بإلفة: «إنني أحب أن أتعرف إلى والديك.»

وجدت نفسها تسأله: «كم ستمكث في انكلترا؟»

أجاب: «عليّ أن أعود إلى هولندا في غضون اسبوعين.»

من الغريب أن جوابه هذا أشعرها بنوع من الإحباط.

كانا قد تجاوزا الضواحي الشرقية للندن الآن، ليتحوّل إلى الطريق المؤدي إلى «تشيبينغ أونغار» وبدا الريف خالياً بشكل مستغرب حالما تجاوزا الطريق العام. وعندما دخلا في طريق جانبي قبل أن يصلا إلى تلك المدينة، سألته بدهشة: «أوه، هل سبقت لك معرفة بهذه المنطقة من الريف؟»

أجاب: «في الخريطة فقط، فقد وجدت ما يدعو إلى السرور أن يدع المرء الطرق العامة بسهولة ليتوه مرتاحاً في أنحاء الأرياف.»

قالت: «ألا يمكنك أن تفعل هذا في هولندا؟»

أجاب: «ليس تماماً، ذلك أن الريف منبسط، ولهذا دوماً

www.elromancia.com

هنالك مدينة أو قرية في الأفق.» وسكت برهة ليعود فيقول: «ما الذي تنوين فعله بحياتك، يا صوفي؟»

أجابت بدهشة: «أنا؟»

كان سؤاله غير متوقع لدرجة لم تعرف معها بماذا تجيب. وقالت أخيراً: «حسناً، إن عندي وظيفة جيدة في مستشفى «سان آغنس...»

قاطعها: «أليس عندك صديق محب؟ أو تفكير بالزواج؟»

أجابت: «كلا.»

ضحك قائلاً: «وهذا ليس من شأني... أخبريني، هل يكون أسرع لو تابعنا السير باتجاه كوكسميل غرين أم نتجه إلى اليسار نحو مفترق الطريق التالي؟»

أجابت: «لو كنت وحدك لكان من الأفضل أن تتابع طريقك نحو «كوكسميل غرين» ولكن، بما أنني برفقتك لأريك الطريق، فالأفضل أن تتجه شمالاً، حيث لا يوجد قرى إلى أن نصل إلى «شيلو رودنغ.»

بدا الريف الآن خلوياً رائعاً حيث الحقول المنبسطة على جانبي الطريق مسيّجة بالأشجار والسياجات... وعلى مدى البصر، بدا للناظر برج كنيسة القرية، ثم أكواخ القرية المتناثرة بجدرانها البيضاء المتوجة بسقوف القش، والتي ما لبثت أن بدت متكاثفة إلى ناحية بينما كانت الكنيسة إلى الناحية الأخرى، وأمامها كان يمتد صف من الحوانيت الصغيرة الأنيقة.

قال البروفسور: «ما أروع هذا.» وهو يتبع إرشادات صوفي فيستدير بالسيارة في طريق ضيق الى جانب الكنيسة.»

كان منزلها على بعد عدة مئات من الياردات. وكان يبدو

قديماً يحمل علامات أجيال متعددة. فكانت الجدران حائلة اللون بدت فيها نوافذ متنوعة. وكان يحيط بالحديقة جدار من الحجر. واجتازا بوابة مفتوحة بمسافة قصيرة إلى الباب الأمامي للمنزل.

أوقف البرفسور السيارة في مكان هادىء، ثم نزل منها ليفتح الباب لصوفي ثم يتناول سلة القطة «مابيل» من المقعد الخلفي. وفي نفس الوقت، كان باب المنزل يفتح لتخرج منه والدة صوفي متقدمة لاستقبالهما.

كانت سيدة طويلة القامة تشابه بنيتها الرائعة، بنية ابنتها، وقد وخط الشيب شعرها القاتم، ومازال وجهها رائع الجمال. وكان يتبعها كلبان هما «جاك راسل» و«ويبت..» وكان الإثنان ينبحان ويتواثبان حول صوفي.

قالت السيدة بلونت: «ما أجمل أن أراك يا عزيزتي.» ثم قبلت ابنتها واستدارت إلى البروفسور باسمة.

قالت صوفي: «إنه البروفسور «فان تاك تير ويجسما» الذي تلطف بتوصيلي إلى هنا. إنها أمي يا بروفسور.»

قالت السيدة بلونت: «إنه بروفسور، يمكنني القول إنك تبدو هائل المقدرة.»

ابتسمت له معجبة. وفكرت صوفي وهي ترى ابتسامته لأمها، أن ما عليه إلا أن يبتسم بهذا الشكل ليحمل الجميع على حبه. ولكن، ليس بالنسبة إليها هي. فكرت بذلك دون اهتمام معتبرة إياه مجرد صديق لا أكثر.

قادتهما السيدة «بلونت» إلى الداخل وهي تقول: «من المؤسف أن الأولاد غير موجودين وإلا كانت سيارتك سحرتهم.»

www.elromancia.com

تمتم البروفسور قائلاً: «ربما في وقت آخر.» وبدا كأنه يعطي انطباعاً بأنه يعرف الأسرة جيداً كأي صديق قديم. وأخرجت صوفي قطتها من السلة وقد انتابها الإمتعاض دون أن تعرف السبب. لم يكن ثمة وقت لمثل ذلك الحديث على كل حال.

راقب الكلبان صوفي والزائر، ثم ابتدآ يعبثان إلى أن استطاعت صوفي تهدئتهما، واستقرا في المطبخ الذي كان واسعاً أنيقاً قد انتصب فيه «درسوار» يحوي مختلف أنواع الأطباق والصحون. وفي الوسط قامت مائدة تحيط بها كراسي خشبية قديمة الطراز، وقد توسطها إناء كبير يحوي أثمار التفاح. وإلى جانبه طبق يحوي كعكاً، وإناء قهوة قديم الطراز هو أيضاً.

قالت السيدة بلونت: «المطبخ أكثر دفئاً. ولو كنت أعرف من تكون، لكنت أخرجت أجمل الأواني الصينية من الخزانة.»

كانت صوفي قد خلعت معطفها وانضمت إليهما على المائدة.

سألت الأم: «هل تعملان معاً في المستشفى؟»

أجاب البرفسور: «أحياناً. أليس كذلك يا صوفي؟»

قالت صوفي بدون اكتراث: «إن عملي هو في الليل.»

وناولته الكعك. ولما كان الإثنان ينظران إليها، أضافت: «إذا كان ثمة حالة تناسب البروفسور، إنه اختصاصي في جراحة المخ.»

سألته السيدة بلونت وهي تعيد ملء كوبه: «إنك لا تعيش هنا أليس كذلك؟»

أجاب: «كلا... إن بلدي هو هولندا، ولكنني أطوف غالباً في البلاد.»

قالت الأم: «من المؤسف أن أباك ليس موجوداً يا صوفي ليتعرف إلى البروفسور «فان تاك...» وتوقفت برهة ثم قالت متابعة: آسفة، فقد نسيت بقية الإسم.»

قال البروفسور باسماً: «لا بأس، ادعني «ريجيك» فهذا أيسر كثيراً، ربما يكون لي الشرف بمقابلة زوجك في وقت آخر يا سيدة «بلونت.»

أجابت السيدة بلونت: «أرجو ذلك، إنه بيطري كما أظنك تعلم، وهو يقوم بإجراء عملية جراحية في القرية هنا، وهو الشريك المسؤول في مركز البيطرة في «تشيبينغ أونغار» إنه مشغول على الدوام.»

تناولت صوفي قهوتها دون أن تتكلم كثيراً. لقد وجد البروفسور طريقه داخل أسرتها بسهولة. وأحست بالإمتعاض لهذا. كان كل شيء حسناً جداً... وكان كل حديثه عن الصداقة، ولكنها أحست بنفسها تندفع نحو شيء آخر... شيء يختلف عن الصداقة التي يتحدث عنها.

نهض مودعاً، فصافح السيدة بلونت، وطبع قبلة تحية على وجنة صوفي معلناً أنه سيزورها يوم الأحد من الاسبوع القادم حوالي الساعة الثامنة مساء. خرج إلى سيارته يستقلها تاركاً المكان، تاركاً صوفي مضرّجة الوجه بينما بدا التفكير على وجه الأم، التي ما لبثت أن قالت ببساطة: «ما أظرفه من شاب.»

أجابت صوفي: «إنه ليس شاباً كما تظنين يا أماه.»

www.elromancia.com

قالت الأم: «إنه شاب بالنسبة لمركزه، ألا يعجبك يا عزيزتي؟»

أجابت: «إنني لا أعرفه جيداً. وقد تفضل بتوصيلي إلى هنا. أعتقد أنه جرّاح قدير جداً في اختصاصه.»

تفرست السيدة بلونت في وجه ابنتها المتضرّج وهي تقول: «سيكون توم في المنزل نصف دوام خلال اسبوعين، أظنك لن تستطيعي القدوم إلى هنا أثناء وجوده، كما أن جورج وبول سيكونان هنا أيضاً.»

قالت صوفي: «سأبذل جهدي في تدبير الأمر. لقد عادت زميلتي من إجازتها المرضية لتوها، وهي لن تتردد في تأدية العمل عني خلال نهاية الأسبوع على أن أؤدي العمل عنها في الاسبوع التالي. وسأتصل بك هاتفياً لأخبرك بما يحصل.»

كان وجودها في البيت يملؤها بهجة. ولقد ساعدت والدها في علاج الحيوانات الصغيرة مطوفة به في السيارة بين المزارع حيث يحتاجون معونته. وكذلك ساعدت أمها في المنزل. وكانت تستمع إلى أخبار القرية من السيدة «بروم» التي كانت تأتي لزيارتهم مرتين في الاسبوع، وكانت امرأة صغيرة الجسم تعرف أخبار كل شخص في القرية وتنقلها إلى من يشاء الاستماع. ولكن، بما أنها لم تكن تؤذي أحداً، لم يكن أحد ليبالي بها. ولم يدهش صوفي أن تعلم أنهم قد شاهدوا البروفسور عن قرب وأعجبوا به، وكان عليها أن ترد ظنون السيدة «بروم» بأن ثمة رباطاً عاطفياً بينها وبين البروفسور.

قالت السيدة بروم بحدة: «حسناً، ما زال الوقت مبكراً

للحكم. من يدري؟ ولكن الوقت قد حان لتتزوجي يا آنسة صوفي.»

مر الاسبوع بسرعة، فقد كانت الأيام قصيرة ولكن الليالي كانت تملؤها البهجة حيث كانوا يتجمعون حول المدفأة في غرفة الجلوس يقرأون ويتبادلون الأحاديث، أو حتى كسالى لا يقومون بأي عمل.

لقد افتقدت البروفسور، ليس فقط رفقته، بل الإحساس بوجوده قريباً منها، ولو أنها لم تكن تراه إلا لماماً. وكان اقتراحه بأن يكونا صديقين والذي لم تحمله في ذلك الحين على محمل الجد، هذا الاقتراح قد أصبح يلقى منها بعض الاعتبار. وفكرت في أنه ربما لم يكن جاداً. ألم يقل أن لا شيء جدياً؟ وقررت أخيراً أن تبدي شيئاً من البرود عندما تلقاه في المرة القادمة.

جاء عند الساعة الثامنة مساء بالضبط من يوم الأحد. وسرعان ما كانت خطتها في أن تستقبله ببرود، قد تبخرت. نزل من سيارته، وعندما فتحت له الباب وتقدمت تستقبله لف ذراعه الكبيرة حول كتفيها وقبل وجنتها، وكان ذلك على مرأى من والديها. ولم تجد فرصة تعبّر فيها عن شعورها إزاء هذا التصرف إذ ان لقاءه الحار لها أنساها ما كانت تعدّه له من كلمات الاستياء. وكان يتصرف كصديق قديم للأسرة وقد سحرهم، في الوقت نفسه بسلوكه الرائع. ولقد كان بامكانها أن تلمس مقدار انجذاب والديها إليه.

فكرت صوفي في أن هذه هي آخر مرة تسمح له بتقبيلها وبكل ذلك الكلام عن الصداقة وضرورة مرافقة الرجال. إنه ليس أفضل من محدلة الطرق.

www.elromancia.com

لم تستطع تصوره بشكل أخف وزناً من تلك الآلة، مع أن سلوك البروفسور كان بعيداً عن الانتقاد. وبعد عناقه لها، عاد ليصبح الرجل الذي عرفته، هادئاً لا يحاول اجتذاب الاهتمام إلى نفسه. وأثناء تناول القهوة التي قدمتها أمها، استغرق بالحديث عن المزارع وحيواناتها، مع والدها. ولذعت صوفي لسانها بالقهوة الساخنة... ولم تشأ الإعتراف، بينها وبين نفسها، بأن استغراقها في الاستماع إلى صوته العميق الهادىء الرقيق، هو السبب... وانتابها الضيق لذلك.

كانت في قمة الاستمتاع بتلك الجلسة حين سألها البروفسور ما إذا كانت جاهزة للخروج. ومنعت نفسها من أن تجيبه بجفاء أنها جاهزة منذ لحظة وصوله... وتمتمت، وهي تخرج من الغرفة، بكلمات عن وضع قطتها في السلة. وعادت بعد خمس دقائق وقد حملت القطة في سلتها ووضعت حقيبتها على كتفها، وبعد أن قبلت والديها، رافقت البروفسور، الذي حمل عنها سلة القطة، نحو السيارة.

لم يكن البروفسور يحب إطالة تحية الوداع. ولوحت بيدها لوالديها الواقفين أمام الباب الخارجي. وعندما انطلقت بهما السيارة التفت اليها قائلاً: إنني ألاحظ شيئاً من البرود منك. هل ترى أخطأت بشيء؟ لقد شعرت بك متضايقة في الساعة الأخيرة من جلوسنا.»

فأجابت صوفي بحدة: «إنه تقبيلك لي بذلك الشكل. ما الذي سيتبع ذلك؟»

قاطعها برقة: «ولكننا صديقان. ألسنا كذلك يا صوفي؟ الى جانب ذلك فقد بدا عليك السرور لرؤيتي.»

ولم يمكنها إلا أن تقرّ بذلك. «حسناً، إذن.» قال البروفسور ذلك وهو يضغط بقدمه في الأسفل، لتقفز السيارة مسرعة، ثم تأخذ مكانها على الطريق الرئيسي.

سألها: «متى ستأخذين إجازتك الأسبوعية؟»

أجابت: «ليس قبل الثلاثاء أو الأربعاء من الاسبوع القادم.»

قال: «سأدعوك للخروج معي يوماً ما.»

أجابت صوفي بحذر: «سيكون ذلك جميلاً جداً منك. ولكن ألا يتوجب عليك العودة إلى هولندا؟»

قال: «ليس قبل منتصف الاسبوع القادم. دعينا نستغل الفرصة في الاستمتاع قبل أن تفوتنا.»

قالت باسمة: «لغتك الانكليزية جيدة جداً.»

أجاب: «من المفروض أن تكون كذلك، فقد كان لي ولأخوتي مربية انكليزية.»

سألته: «هل عندك اخوة وأخوات؟»

قال وهو يستدير بسيارته حول سيارة فورد يقودها رجل يرتدي قبعة. «لي اخوان وخمس أخوات وأنا أكبرهم.»

قالت صوفي: «مثلي أنا.»

قال البروفسور: «إننا متشابهان في أمور كثيرة. من المؤسف أن عليّ إجراء عملية غداً صباحاً وإلا لتناولنا الغداء معاً.»

شعرت صوفي هي أيضاً بالأسف ولكنها لم تقل شيئاً. لقد شعرت بأن البروفسور يتسلم مقاليد الأمور بسرعة. إنهما لا يعرفان بعضهما البعض جيداً. وكادت تقفز من

www.elromancia.com

مكانها مندهشة عندما قال بهدوء: «علينا أن نعرف بعضنا البعض جيداً بأسرع وقت ممكن.»

قالت بضعف: «أحقاً؟ ولماذا؟»

لم يجب عن سؤالها بل أخذ يعطي ملاحظات تافهة عما يحدق بهما من مناظر. وفكرت في أنه يبعث على الضيق أحياناً.

وضعت في تلك الليلة برنامجها الاسبوعي. كانت تمر بها أحياناً ليالٍ هادئة، ولكن الآن يبدو أن كل ليلة كانت تأتي أسوأ من سابقتها. ونهاية الأسبوع كان العمل فيه أسوأ من بقية أيام الاسبوع. حتى عندما يضاف إلى الممرضات ممرض رجل لينوب عن ممرضة مجازة، كان العمل يقصم الظهر. وفي ليلة الاثنين، قال الممرض «تيم بيلي» وقد تملكه الإرهاق: «لا أدري كيف تطيقين هذا يا صوفي، ليلة إثر أخرى..»

أجابت: «أنا نفسي أعجب لهذا. إنما أحصل على إجازة ليالٍ متتابعة. ليلتان فقط إذ أن زميلتي آيدا مريضة مرة أخرى.»

سألها: «هل ستذهبين إلى بلدتك في الإجازة؟»

أومأت برأسها متعبة: «سأكون في النعيم هناك. أنام، وآكل، ثم أنام وآكل. وماذا عنك أنت؟»

أجاب: «بعد ليلتين في العمل أحصل على إجازة يومين، ثم أعود إلى العمل نهاراً.»

وضع كوب الشاي من يده وهو يقول: «إنني أسمع صوت سيارة إسعاف مرة أخرى.»

تناولت صوفي طعام الفطور وهي تحلم بسعادة.

ستذهب إلى بلدتها في أسرع وقت ممكن وحالما تضع بعض الأشياء في الحقيبة ثم تضع «مابيل» في سلتها. ستتناول الغداء في المطبخ الدافىء، ثم تذهب إلى الفراش لتنام إلى وقت متأخر، ثم إلى الفراش مرة أخرى. وانطلقت إلى مدخل المستشفى وقد بدت السعادة في نظراتها، لتجد نفسها وجهاً لوجه البروفسور.

سألته باستغراب: «أما زلت هنا؟ ظننتك قد سافرت.»

أجاب وهو يدفعها إلى داخل سيارته: «كلا.. كلا.. سأوصلك إلى البيت ولكن، قبل ذلك، إلى غرفتك.»

وكانت من الإرهاق بحيث لم تستطع الجدال معه. وبعد عشر دقائق كانت في غرفتها تضع أشياءها في حقيبتها دون أن تهتم بزينة وجهها أو تصفيف شعرها، ثم تهرع إلى أسفل خوفاً من أن يكون قد غيّر رأيه وذهب. ولم يبد وجهها الرائع الجمال من قبل بمثل ما بدا به الآن من جمال وهو دون تبرّج.

أدخل البروفسور صوفي إلى السيارة، واضعاً القطة مابيل في المقعد الخلفي. ثم ابتعد بالسيارة دون أن ينسى التلويح بيده بشكل مهذّب، إلى الآنسة فيبس.

تمتمت صوفي وهي تدفع شعرها المربوط بقطعة من شريط الساتان ليتهدل على كتفيها: «إنك بالغ اللطف. أرجو أن لا أكون قد سببت لك أن تحوّل وجهتك عن طريقك.»

ثم أغلقت عينيها وراحت في نوم هادىء لمدة نصف ساعة، لتستيقظ بعدها وقد دب فيها الانتعاش لتجد أنهما يتوجهان بهدوء نحو بلدتها.

قالت: «لقد أخبرت أمي أنني سأكون عندهم حوالي الساعة الواحدة.»

www.elromancia.com

أجاب: «لقد اتصلت أنا أيضاً بهم هاتفياً فلا تكوني متوترة.»

قالت: «متوترة؟ إنني لست متوترة. على كل حال، إنك تأتي لتغيّر كل خططي قبل أن ترحل... إنني آسفة... آسفة جداً في الحقيقة. إنني لم أعن كلمة مما قلته. إنني أتفوّه بكلمات حمقاء لأنني متعبة. إنني ممتنة لك جداً..»

عندما لم يجب، عادت تقول: «صدقني إنني.. لا تغضب هكذا...»

قال بهدوء: «عندما تعرفينني جيداً يا صوفي، ستعلمين انني لا أغضب بسهولة ولا ينفد صبري أبداً. خصوصاً معك.» وابتسم لها وهو يتابع: «لماذا لا تحظين بسوى ليلتي إجازة بعد ثماني ليال من العمل المرهق؟»

أجابت: «ذلك لأن زميلتي في العمل مريضة مرة أخرى.»

سألها: «أليس ثمة من يأخذ مكانها سواك؟»

أجابت: «ليس حالياً. ذلك ان ممرضة الليل في قسم الجراحة تنوب عني عندما أكون في إجازة.»

كانا قد اقتربا من البلدة عندما قال بشكل عفوي: «إنني عائد إلى هولندا غداً.»

سألت: «هل سيكون هذا نهائياً؟»

كان صوتها حاداً، فسألها بهدوء: «هل ستفتقدينني؟ أرجو ذلك.»

نظرت من النافذة إلى الحقول الممتدة تحت المطر، ثم قالت: «نعم.»

قال: «إننا لم نتناول ذلك الغداء، الذي تحدثنا عنه، بعد، أليس كذلك؟ ربما يمكننا تدبير ذلك عندما أعود.»

سألته: «وهل ستعود قريباً؟»

قال: «نعم. عليّ أن أذهب إلى «بيرمينغهام» ثم إلى «ليدز» ومن هناك إلى «أدنبرغ.»

سألت: «ولكن، أليس إلى هنا.. إلى لندن؟»

قال بغموض: «ربما..»

فكرت هي في أن جوابه هذا ليس إلا لباقة منه. فقالت: «أظنك مسروراً بالعودة إلى بلدك.»

أجاب: «نعم.»

لم يضف شيئاً، وبعد دقائق كانا قد وصلا إلى بيتها لتستقبلهما والدتها عند الباب حتى قبل أن تتوقف السيارة، وكان استقبالهما مشرقاً حاراً. وفكرت صوفي بأن محادثتهما لم تكن مرضية... بل إنها لم تكن محادثة بالمعنى المفهوم... وعانقت أمها، ثم دخلت المنزل مع البروفسور وسلة القطة، تجر قدميها جراً.

وضع هو سلة القطة على الأرض وفك أزرار معطفها وساعدها على خلعه ليضعه على كرسي ويتبعه بمعطفه هو، ثم دفعها برقة إلى المطبخ الدافىء. واندفع الكلبان للقائهما، بينما أطلق هو القطة من سلتها لتنضم إليهما، في الوقت الذي كانت فيه السيدة بلونت تضع القهوة على المائدة.

سألته برجاء: «هل ستبقى لتتناول الغداء معنا؟»

فأجاب: «كنت أحب ذلك لو لم يكن عليّ قضاء بعض المصالح قبل عودتي إلى هولندا.»

سألته: «هل ستعود؟»

أخفى ابتسامته وهو يرى الخيبة تكسو ملامحها.

قال: «أوه... نعم... قريباً جداً كما أرجو.» ونظر إلى

www.elromancia.com

صوفي وتابع: «إن صوفي متعبة جداً، ولن أمكث طويلاً إذ أنني متأكد من أنها تبغي الذهاب إلى فراشها.

كان عند كلامه وهو يحدث مضيفته متمنياً أن يراها مرة أخرى بأقرب وقت. ثم محيياً صوفي راجياً لها نوماً مريحاً ناصحاً إياها بالخروج بعد ذلك إلى الهواء الطلق، قال: «إنني متأكد من أننا سنجتمع ثانية عند عودتي إلى انكلترا.» وتمتمت صوفي بكلمات المجاملة. وفكرت بضيق في أنه لم يخبرها كم سيطول غيابه. هل يظن انها رهن إشارته في أي وقت يفكر في زيارتها؟

فكرت في كل ذلك ولم يغب عن بالها أن تبادلهما للحديث أثناء الرحلة، كان قليلاً وكانت هي أقرب إلى الجفاء، ولا بد أن هذا قد أشعره بخيبة أمل عميقة.

داخلها الأسف وهي تحييه مودعة إلى أن غاب عن أنظارها.

مضى اليومان بسرعة بين النوم وتناول الطعام والتجوال في الحديقة الواسعة غير المنظمة، تصلح من وضع النباتات أو تحفر حولها، أو تقطف الأزهار.

عندما حان موعد رجوعها إلى العمل، كانت قد استردت حالتها الطبيعية. وتمنت أمها، وهي تنظر إلى وجهها الجميل، لو كان البروفسور هنا ليرى ابنتها. وعزت نفسها بانه من نوع الرجال الذين يمكن أن يثق الإنسان بكلامهم. إنه وصوفي لا يخرجان عن كونهما صديقين في الوقت الحاضر. ولكن، مع الوقت، والفرصة... قد...

وتنهدت. إنها لا تريد لابنتها أن تشعر بالتعاسة التي انتابتها منذ سنوات.

كان شهر تشرين الثاني، يلقي بظلاله القاتمة على

الشوارع القذرة حول المستشفى. حتى في أكثر أيام الصيف إشراقاً، لم يكن يبدو في تلك الشوارع ما يستحق النظر. ولقد أصبحت الآن غاية في الكآبة، فقد تناثرت في أنحائها علب الكوكا كولا الفارغة، أكياس السمك والبطاطا المقلية، صفحات حائلة اللون من الجرائد..

مرت صوفي قاصدة شقتها قبل ساعات قليلة من ابتداء عملها وهي تفكر في كناسي الشوارع الذين يبذلون غاية جهودهم في كنسها وتنظيفها ليعودوا في الصباح التالي ليجدوها قد عادت إلى ما كانت عليه من قذارة. وفكرت في أن ذلك أشبه بحالتهم في المستشفى، حين ينتهون من جموع المرضى ليعودوا في اليوم التالي ليجدوا وجوهاً أخرى في انتظارهم.

حال دخولها، بدت الآنسة «فيبس» في باب غرفتها تغرقها بالأسئلة: «هل أمضيت إجازة حسنة؟ وهل عدت بالقطار؟»

أجابتها صوفي بالإيجاب بسرعة معتذرة بضرورة الإسراع إلى غرفتها خشية أن يفوتها موعد العمل. وفي غرفتها أطلقت القطة من السلة وأطعمتها وأعدت لنفسها كوباً من الشاي، وملأت حقيبتها بما قد تحتاجه أثناء الليل، وكانت نادراً ما تحتاجها ولكنها كانت تشعر بالإطمئنان إذ تعلم أن كل ما قد تحتاجه هو موجود هناك.

عندما دخلت قسم الطوارىء، كانت غرفة الحوادث هادئة، ولكن القسم كان مكتظاً بالمرضى. وتسلّمت العمل من زميلتها ممرضة النهار وهي تنظر في قائمة أسماء المرضى الذين سبق وانتهى علاجهم. ثم اتصلت هاتفياً

بزميلها «تيم بيلي» للقدوم بسرعة ليرى حالة اشتبهت في انها كسر في العظام. ثم ابتدأت تحضّر الضمادات للمحتاجين لها من المرضى.

جاء الممرض تيم بعد خمس دقائق، وقال: «لقد سبق ورأيت هؤلاء المرضى. إنهم بحاجة فقط إلى ضمادات وحقن. وبالتأكيد تستطيعين أنت أن...»

قاطعته قائلة: «أعلم ذلك، ولكن هذا المصاب قد وصل لتوه واشتبه في أن عنده كسراً في العظم، فإذا رأيت ذلك فإننا سنرسله إلى غرفة التصوير بعد أن تضع إمضاءك على طلب التصوير.»

منحته ابتسامة ساحرة جعلت فيها شيئاً من حنان الأمومة مما جعله يضحك قائلاً: «آسف... لم أقصد اعطاء أوامر. والآن، فلنلق نظرة على الرجل.»

كانت على حق، ووقع هو طلب التصوير بالأشعة قائلاً: «اتصلي بي هاتفياً لأحضر وأضع الجبيرة. إنما امنحيني وقتاً أنهي به عشائي إذا تفضلت.»

أجابت: «سيكون عندك من الوقت ما يكفي لعشائين، وذلك إلى أن أحصل على صورة الأشعة. إنك تعرف «الآنسة شورت» وطبيعتها الحادة.»

تتالت حالات كسور العظام على قسم الطوارىء، إلى الجروح، وطعنة خنجر ويد مهشمة.

حدثت صوفي نفسها، في الصباح، وهي تستلقي في فراشها، بأنها ليلة عادية... وهكذا كانت الليالي التي تلت، بما فيها ليلة السبت الحافلة بنتيجة عراك الشوارع وحوادث السيارات.

مرّ الاسبوع التالي على مثاله.. وعندما حلت الإجازة كان قد استبد بها الإرهاق. وحدثت نفسها وهي تضع القطة مابيل في سلتها، أن كل ذلك لا يهم... ومن ثم ابتدأت رحلتها إلى بلدتها. كم يكون جميلاً لو كان البروفسور ينتظرها بسيارته عند الباب. ولكنها أمانٍ فقط إذ لم يكن ثمة خبر عنه.

كان مكوث صوفي في منزلها يغمره بهجة الريف وإشراقه بعد ضباب لندن. كما أن منظر الحقول الهادئة الجرداء بسبب حلول فصل الشتاء، كان تغييراً هي بأشد الحاجة إليه بعد تلك الشوارع المزدحمة حول المستشفى.

أمضت معظم الوقت تطوف بين المزارع في صحبة أبيها، أو حول البيت، وتستمتع بنوم لا يشعر معه المرء إزعاجاً. كانت سعيدة وإن لم تكن سعادتها تامة، فقد كانت صورة البروفسور تعترض أفكارها في أغلب الأحيان، ولم تجد سبباً يجعلها تنساه. ولم تجد الفرصة المناسبة لتتحدث عنه مع والدتها، كما أن هذه لم تأت على سيرته قط.

عادت في النهاية إلى المستشفى يخامرها شيء من الأمل في أن تراه. وحدثت نفسها بأن رؤيته لا تهمها كثيراً ولكن، فقط لأنه قال إنه سيعود و...

لم يك ثمة خبر عنه. مع أنه كان هنالك كثير من الحديث، حول مائدة الفطور في المستشفى، بعد إجازتها الأولى، وكان أكثره لا يخرج عن التخمينات وعن خطط «جيل» عما ستفعله وتقوله عندما تراه في المرة القادمة، وهي تنهي حديثها مبتسمة لمن حولها: «ذلك لأنني سأكون الفتاة المحظوظة.. أليس كذلك؟ وعندما يكون قائماً بعمله، فإنني

www.elromancia.com

دوماً أجد سبباً وجيهاً للبقاء في غرفة العمليات أثناء النهار...»

يتبع ذلك موجة من الضحك من الممرضات. فتقول: «حسناً، يمكنكن الضحك كما تشئن.. ولكن سأكون أول من يراه.»

لكن ظهر في ما بعد أنها كانت مخطئة.

كانت صوفي منحنية على فتى يعاني من إصابة خطيرة في رأسه في محاولة يائسة لإبقائه حياً، محاولة جهدها إتباع إرشادات «تيم» بكل ما تملك من حذق ومهارة. ووقفت منحازة إلى ناحية لتفسح المجال للجرّاح ليصل إلى المصاب، وفي الوقت نفسه، لاحظت أن ثمة من يقف الى جانبها. وعرفت من يكون دون أن تراه. ومع أن قلبها خفق بالبهجة فإنها لم تدع ذلك يؤثر على العمل الذي تقوم به، وتقدم هو إلى المصاب ينحني متفحصاً الإصابة المؤثرة. متبعاً تحية الدكتور «بيتر سمول» المرحة: «مرحى صوفي..» بتحية منه رصينة: «مساء الخير يا أخت.»

تمتمت مجيبة ومازالت معنية بما تقوم به من عمل. وفي نصف الساعة التالية لم تجد فرصة تتوجه فيها إليه بأفكارها وهي تستمع إلى الرجلين متبعة أوامرهما بأخذ عينات من الدم، واستدعاء موظف التصوير بالأشعة مع آلة التصوير المتنقلة، وإبلاغ غرفة العمليات بأن البروفسور سيقوم بإجراء عملية في خلال ساعة. وسمعت ضحكات السرور من جيل وهي تخبرها بذلك.

على مائدة الفطور ابتدأت جيل تدلي بأخبار البروفسور

للفتيات، وتحركاته خطوة خطوة. لقد أخبرتهن كيف قام بإجراء عملية رائعة، ثم بعد ذلك، تناول القهوة في مكتبه. حدثتهن انه كان هادئاً، ولكنه كان قد وصل فقط منذ ساعتين ليتحدث عن سير العمليات مع «بيتر». ولا بد انه كان متعباً. ولمعت عيناها وهي تقول فجأة: «لا بد انه سيكون ثمة عمليات أخرى لهذه الليلة.» وسكتت برهة لتستطرد: «ستكون إجازتي بعد يومين. لقد رأيت اسمه على قائمة العمليات، وهو سيقوم بإجراء عمليتين لاستئصال ورم سرطاني غداً. وربما سيكون متفرغاً بعد ذلك.»

ارتفع صوتها عبر المائدة: «مرحى، صوفي، ألم يذهب إلى غرفة الحوادث؟ هل قال لك شيئاً؟»

أجابت صوفي: «لقد قال لي مساء الخير يا أخت.. ثم سألني عن المكان الذي قدم منه المصاب.»

قالت جيل مبتهجة: «لا أحب أن تظنوا بي قلة الذوق، ولكنني متأكدة من أنه يحب الفتيات الصغيرات الرقيقات المنظر مثلي.»

نهضت الفتيات إلى غرفة الملابس. وغيرّت صوفي ملابسها لتتجه بعد ذلك إلى باب الخروج. وكان المطر ينهمر في الخارج مما قد يفسّر سبب شعورها بالإكتئاب.

كان البروفسور واقفاً الى جانب جدار يقرأ الملاحظات على اللوحة. واستقام وهو يراها قادمة، ثم اتجه إليها. وعندما اقترب منها قال: «مرحى، صوفي.» وابتسم لها، وأدخلت ابتسامته الدفء إلى نفسها. وبادلته ابتسامته بابتسامة متعبة. وقالت: «إنني مسرورة لكونك هنا. هل سيشفى المصاب؟»

www.elromancia.com

أجاب: «أظن ذلك وإن كان الوقت مبكراً للحكم. ولكنه يملك حظاً للشفاء.»

مشى بجانبها نحو الباب وهو يسألها: «هل أنت مسرورة لوجودي لأجل المصاب أم لأنك تحبين رؤيتي، يا صوفي؟»

توقفت تنظر إليه وتقول: «الإثنان..» فأدخل يده تحت مرفقها وهو يقول: «هذا حسن. هل ما زلنا صديقين؟ إنني متفرغ إلى ما بعد الظهر، ونحن الإثنان بحاجة إلى بعض الهواء النقي. هيا بنا.» فقالت بتوتر أثاره تعب الليل: «ليس لي رغبة في الهواء النقي. أفضل الذهاب إلى فراشي.»

قال: «هذا طبيعي، ولكن ما زال الوقت مبكراً. سنتمشى قليلاً ثم نتناول كوباً من القهوة ثم نعود في حوالي منتصف النهار.»

فقالت صوفي بضعف: «ومابيل؟»

فأجاب: «سنذهب إلى هناك أولاً وسأصعد معك إلى غرفتك، وإلا فقد تنسين كل شيء عني وتذهبين إلى فراشك.»

قالت: «كلا.. لا تأتي معي، لن أتأخر أكثر من خمس دقائق أو نحوها.»

وأدخلها السيارة وصعد إلى جانبها وفي دقائق، كان يقف أمام باب شقتها الأمامي. وقال يذكرها: «خمس دقائق.» واستدار يتحدث إلى الآنسة فيبس التي كانت قد خرجت من غرفتها بشعرها المستعار مائلاً إلى جانب واحد وكلها رغبة في تبادل الحديث.

أطعمت صوفي قطتها، وأصلحت زينة وجهها، وربطت شعرها ثم نزلت السلم ولم تستطع إلا أن تعجب بالطريقة

التي كان البروفسور يدير بها الحديث مع الآنسة فيبس والتي أدخلت إلى نفس صاحبة المنزل الرضا الذي دفعها إلى إنهاء الحديث بنفسها.

وقالت صوفي له بنزق: «من السهل على أي شخص أن يظن أنها تعجبك.»

وتمنت فجأة وهي تقول ذلك لو لم تأت معه، حتى أنها لا تذكر أنها قد وافقت على ذلك.

قال: «كلا أبداً.. لا شيء من هذا. ولكن، لو جعلتها تشعر بعدم الرضا، أعني لكان باستطاعتها طردي ومن ثم يكون علينا أن نلتقي في الشارع أو الحديقة العامة.. وهذا حسن جداً إنما في الصيف وليس في مثل هذا الجو الشتوي.»

تنفست صوفي بعمق وهي تقول: «ماذا تعني بكلمة نلتقي؟ وما الذي سيجعلنا نلتقي، ولماذا؟»

قال: «يا فتاتي العزيزة، لو تستعملين ذكاءك المتعب، كيف لنا أن يعرف أحدنا الآخر إذا نحن لم نمض الوقت معاً من وقت لآخر؟»

أجابت: «ولماذا علينا أن نتعرف إلى بعضنا البعض ما دمت لا تسكن هنا؟»

سرعان ما أدركت مبلغ حماقة كلماتها هذه حالما تفوّهت بها.

«هذا جدال لا يعني شيئاً بالنسبة للقاءاتنا المتكررة أثناء وجودي هنا، متى ذهبت إلى بلدتك منذ آخر مرة رأيتك فيها؟»

وهدأ حديثه الرقيق من توترها وتلاشى شعورها بالحدة، وإن بقي التعب. ووصلا إلى ناحية من الغابة

www.elromancia.com

بلغت من الهدوء بحيث شعرت برغبة في التمشي في ممراتها الى جانبه. حتى أنها عندما اقترح أن يذهبا للبحث عن مكان يتناولان فيه القهوة، شعرت بعدم الرغبة في ترك هذا المكان، دون أن تعرف ما إذا كان الهدوء والسكينة اللذان يخيمان على المكان هما السبب، أم لأنها لم تشأ أن تفقد شعور المتعة بقربه في هذا المكان الساحر؟

مرت عليهما في السيارة خمس دقائق أو نحوها، حين نبهته إلى أنه قد تجاوز الطريق.

لكنه طمأنها إلى أنه أراد أن يتناولا القهوة في «انغادستون» حيث ثمة مكان جميل في شارع «رومان رود.»

كان هذا المكان فندقاً من طراز القرن الخامس عشر، وقد جدّد بشكل رائع. وبدا له أنه لا بُدَّ أن يكون مزدحماً في الأماسي ولكنه الآن لا يحوي سوى أفراد قلائل يجلسون في غرفة جميلة بجانب المدفأة يتناولون القهوة. ولكن لم يكن لصوفي أن تبقى طويلاً إذ قال لها البروفسور: «إذا أنت جلست هنا مدة أطول فسيغلبك النوم، وسيكون عليّ أن أحملك وأصعد بك إلى غرفتك، عند ذاك ستذهب سدى كل جهودي لأبقى على رضى الآنسة فيبس.»

ضحكت صوفي وهي تشعر بالدفء والرضى.

مرة أخرى رافقها إلى باب شقتها متمنياً لها نوماً مريحاً وتابع طريقه تاركاً إياها تحاول إشباع فضول الآنسة فيبس بينما لا تكاد لشدة النعاس تجد طريقها إلى غرفتها.

لم تره أثناء الليلة التالية، إذ كانت ليلة هادئة وقد اجتمعت الفتيات جميعاً في المطعم يتناولن وجبة منتصف

الليل. وكانت جيل هي التي ابتدأت بالإتيان على ذكره، إذ قالت باستياء: «لقد قام بإجراء العملية في الواحدة بعد الظهر حيث لم أستطع النهوض من فراشي في منتصف النهار. ثم أنني لم أستطع العثور على عذر مقبول للعودة إلى غرفة العمليات. ولكن الحظ بجانبي يا بنات، فهو سيقوم باجراء عملية في الساعة الثامنة والنصف هذا الصباح. وهكذا سأتعمد نسيان أي شيء في مكان عملي لأعود لأجله في تلك الساعة ولأظفر بحديث معه.»

قالت واحدة منهن: «يجب أن أعترف لك بالذكاء. أليس لواحدة منا مثل هذا الحظ؟»

تطلعت جيل حول المائدة قائلة: «يجب أن نعترف بأنني النوع الذي يحب. فالرجال الضخام يحبون النساء الصغيرات الحجم.»

لم تقل صوفي شيئاً وفمها مملوء بالطعام.

شاهدت سيارة البروفسور متوقفة في الموقف التابع لغرفة المستشارين، وهي في طريقها خارجة من المستشفى. إنه يقوم بإجراء عملية الآن ولا بد أن جيل وجدت عذراً للعودة إلى غرفة العمليات. وحدثت نفسها وهي تعود إلى شقتها بأن جيل قد تكون على حق في قولها إن الرجال الضخام يحبون الفتيات الصغيرات الأجسام. ولكن إذا كان هذا صحيحاً، لماذا يلاحقها ويتجشم عناء الاجتماع بوالديها، ويصطحبها لتتمشى لتحافظ على صحتها؟

أمعنت صوفي الفكر في هذه المعضلة، ولكنها لم تستطع أن تجد لها تفسيراً. إن أية فتاة مغرورة يمكنها الإدعاء بأن

www.elromancia.com

جمالها هو ما جذب البروفسور إليها. ولكنها لم تكن مغرورة.

ألقت تحية الصباح على الآنسة فيبس بذهن شارد وصعدت إلى غرفتها لتجد قطتها تنتظرها بنفاد صبر.

أطعمت القطة واغتسلت ثم اعدّت لنفسها كوب كاكاو وذهبت إلى الفراش تحاول أن لا تفكر في متعة نزهة على القدمين في غابة وحدثت نفسها والنعاس يغالبها، في أنها ستذهب غداً بالحافلة ثم بعربة الترام حول حديقة هايد بارك حتى ولو كان المطر منهمراً.

أغمضت عينيها مستكينة إلى خرير مابيل لتستغرق في سبات عميق.

أخبرتها جيل وهما حول وجبة منتصف الليل بأنها ذهبت إلى غرفة العمليات فعلاً لتجد أن البروفسور قد ابتدأ فعلاً بإجراء العملية ولم ينته قبل العصر. وتابعت تقول: «وفوق كل هذا، فهو قد سافر إلى فرنسا حيث الفرصة الأخيرة لفتاة صغيرة تشكو من ورم في المخ. وما زال في انتظار عدة حالات هنا، فهو لهذا عائد حتماً. «وتطلعت عيناها الزرقاوان إلى أعلى بغيظ وهي تقول: «أتمنى لو كنت أعمل نهاراً لرأيته لمدة أطول.»

قالت صوفي بجفاء: «ذلك فقط في حالة قدوم من يكون مصاباً بأذى شديد في الرأس، وأي منا تتمنى حدوث هذا؟»

نظرت إليها جيل بإمعان لتقول: «حسناً، كلا بالطبع يا صوفي. لا أعتقد أنك تملكين ذرة من الشاعرية في نفسك. لو لم تكوني بهذه الضخامة لوجدت الرجال يدورون حولك.»

انفجرت الفتيات ضاحكات. وتلاحقت أصواتهن بالقول:

«ضخامة؟ إن هذا الوصف لا ينطبق على قوام صوفي الرائع،» بينما كانت هي تشرب اللبن من غير أي اهتمام دون أن يغيب عن بالها عدد الرجال الذين عرضوا عليها الزواج معترفين لها بحبهم. لقد أعجبوها جميعاً ولكن ليس إلى حد القبول بالزواج من أحدهم. والوحيد الذي انتابها نحوه شعور مختلف قد غابت الآن صورته عن ذاكرتها. إنها لم تعد متأكدة ما إذا كان إيمانها بالحب ما زال هو هو.

قطع تأملاتها رنين هاتف الجيب عندها. وعادت إلى القسم لتجد رجلاً قد طوّح به السكر، سقط على باب زجاجي. ولم تكن جراحه خطيرة ولكنها بحاجة إلى خياطة طويلة. وأخذ منها تدوين التفاصيل عن اسمه وعنوانه والإتصال بزوجته للحضور لاستلامه بعض الوقت. وتلك الساعة كانت هي الأسوأ في تلك الليلة. وكانت الساعة الرابعة تقريباً وهو الوقت الذي تشتد فيه الرغبة في النوم والى جانبها أكواب الشاي وقد مضت في تنظيم غرفة الحوادث وقسم الطوارىء. ولم تتذكر صوفي صباحاً ما لم يصل فيه مريضان على الأقل فتسلمهما إلى ممرضات النهار.

وتحقيقاً للوعد الذي سبق و أخذته على نفسها أمضت ساعة الصباح في حديقة هايد بارك مستمتعة بالتمشي مسافات طويلة. وكان الجو حسناً والهواء منعشاً، وعادت بالباص إلى شقتها فأعدت لنفسها الكاكاو، ثم اغتسلت لترتمي في فراشها مستسلمة للنوم، إلى أن أيقظها مواء مابيل طالبة الطعام.

حدثت صوفي نفسها، وهي ترتدي ثيابها وتعد لنفسها القهوة بأنه لم يبق سوى أيام ثلاثة على موعد إجازتها

www.elromancia.com

القادمة. كانت تعرف أن الليلة التي تواجهها الآن ستكون متعبة. وفي نهايتها كانت من الإرهاق بحيث لم تستطع تناول فطورها كاملاً. تناولت بعض الحليب والشاي ثم تركت المائدة.

قالت لها ممرضة القسم الداخلي للرجال: «لقد أمضيت ليلة متعبة ولا بد أنك متلهفة إلى فراشك.»

أجابت: «لقد كانت كذلك إنما من حسن الحظ، ليس الأمر كذلك كل ليلة. إنها المناقشات المعتادة عن هذا الأمر وذاك ثم ينتهي بهم الأمر بالعراك الذي ينتهي بهم في قسم الطوارىء.»

سألتها إحداهن: «هل إجازتك قريبة؟»

أجابت: «بعد ثلاث ليالٍ. وقد وُعدت بتلميذ ممرض وما دامت «آيدا» لن تغيب في إجازات مرضية بعد الآن، فإن المستقبل يبدو ورديا.. حسناً إلى اللقاء.»

ذهبت تغيّر ملابسها وترتديها كيفما اتفق على غير عادتها ولكنها الآن لم تكن تفكر سوى بالفراش. وما أن خرجت حتى وجدت البروفسور عند الباب فأخذ بذارعها مجتازاً بها باحة المستشفى ثم فتح باب سيارته وساعدها على الجلوس. وعندما جلس بجانبها، تحوّل إليها قائلاً: «صباح الخير يا صوفي، هل أمضيت ليلة متعبة؟»

قالت بحدة وسخط مشوبين بالإرهاق: «نعم، ومن فضلك أريد أن أذهب إلى البيت وإلى فراشي فوراً الآن...» وأضافت بعد لحظة تفكير: «صباح الخير يا بروفسور.»

قال: «سيكون لك ذلك ولكن، هل تناولت فطورك؟»

قالت: «إنني لست جائعة.» قالت ذلك وهي تدرك أنها إذا

ذهبت إلى الفراش بمعدة خاوية فإنها ستستيقظ بعد ساعة أو ساعتين. ولكنها تعتبر هذا من شؤونها الخاصة.

قال البروفسور وهو يستقيم بالسيارة على الطريق العام: «أولاً سنذهب لتفقد مابيل ثم بعد ذلك نذهب إلى حيث نتناول معاً طعام الفطور، وبعد ذلك تعودين إلى فراشك.»

أخذت تقول: «إنني لا أريد...»

قاطعها قائلاً: «كلا بالطبع.. إنك لا تريدين ولكن، كوني فتاة طيبة وافعلي ما أقول لك.»

كان في هذه الأثناء قد توقف أمام الباب فساعدها في النزول قائلاً: «إنني قادم معك.»

توقفت في مكانها قائلة: «إنك بالطبع، لن تصعد معي، إن صاحبة البيت...»

قال: «صوفي، أتوسل إليك أن تكفي عن كل هذا الضجيج. فقط أتركي كل شيء لي.»

فتح باب البيت دافعاً إياها أمامه قائلاً: «هيا اصعدي.» ثم التفت إلى الآنسة فيبس التي كان رأسها بارزاً من خلال باب غرفتها.

فعلت صوفي ما أمرها به، مستمعة بهدوء إلى صوته العميق. لقد بدا عليه الجد واستطاعت أن تسمع صوت الآنسة فيبس وقد بدا فيه الحنان. وعجبت لما قد يكون قال لها ليظفر باهتمام تلك السيدة. وما أن فتحت بابها حتى ألقت بحقيبتها على المنضدة وأخذت تعد الطعام لمابيل. وكانت تسكب لها الطعام في طبقها عندما قرع البروفسور الباب ودخل.

كانت الغرفة باردة فأشعل مدفأة الغاز. ثم أخذ علبة الطعام منها لينهي العمل طالباً منها أن تغسل وجهها

www.elromancia.com

وتصلح من زينتها وهو يقول: «ولا أريد تلكؤاً من فضلك فإنني أكاد أموت جوعاً.»

توقفت وهي تحمل المنشفة على ذراعها في طريقها إلى المغسلة، وهي تسأله: «ألا يقدمون لك فطوراً في المستشفى؟»

قال: «إذا أنا طلبته فقط ولكنني جئت من معبر المانش مباشرة إلى المسشفى.»

قالت: «هل استدعاك عمل مستعجل؟»

أجاب: «إذا كنت أنت هو العمل المستعجل، فالجواب هو نعم والآن اذهبي واغسلي وجهك يا صوفي.»

دخلت الحمام، ثم ما لبثت أن أطلت من الباب لتقول: «ألم تذهب أنت إلى الفراش؟»

أجاب: «كلا، فقد ذهبت إلى «كاليه» بسيارتي.»

رمقته بعينيها اللتين زاد الإرهاق من اتساعهما وهي تسأله: «ولكن، لماذا؟»

قاطعها قائلاً: «هيّا، عجّلي في إصلاح زينتك لأنني لا أحب أخذك خارجاً وأنت تبدين كتمثال للصبر.»

هبطت صوفي السلم وهي تتمتم بحنق، وعادت بعد خمس دقائق وقد غسلت وجهها وتبرّجت وصففت شعرها ليبدو أنيقاً من الأمام فقط دون الخلف الذي كان ما يزال ملتفاً حول الدبابيس.

تنهد البروفسور قائلاً: «اخرجي الدبابيس من شعرك واربطيه.»

امتثلت لأمره لتربط شعرها بقطعة من شريط الساتان، وجدتها في حقيبة المستشفى، وذلك بشكل أنيق.

وضع مابيل في سلتها، وأطفأ المدفأة وفتح الباب وهو يقول: «ما كان لك أن تخفي شعرك.»

نظرت إليه بدهشة وأجابت: «ولكنني لا أستطيع مزاولة العمل في المستشفى بينما شعري منسدل على ظهري.» فابتسم لها دون أن يقول شيئاً بينما أضافت هي بارتباك: «إنني لا أزعج نفسي دائماً برفع شعري حين أكون في المنزل.»

قال البروفسور وهو يحشر جسمه الكبير بالجدار مفسحاً لها لتمر: «هذا حسن.» وبادر صاحبة المنزل بقوله قبل أن تفتح فمها: «لن تغيب طويلاً يا آنسة فيبس.» ومن ثم دفع صوفي في السيارة برفق.

قالت له حابسة أنفاسها بينما هو يبتعد بالسيارة: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

أجاب: «إلى بيتي لتناول الفطور، فهو لا بد أن يكون جاهزاً في انتظارنا الآن.»

قالت مندهشة: «بيتك؟ ظننتك تسكن في هولندا؟»

أجاب: «نعم، وهو كذلك.»

سكت دون أن يقدم أي إيضاح آخر. ولم تشأ هي أن تزيد من أسئلتها فبقيت صامتة. وتابع هو القيادة عبر المدينة. ولكن عندما دخل في شارع صغير في «الوست إند» قالت مستغربة: «هل تسكن في لندن؟»

دخل بالسيارة في أحد الشوارع الضيقة الأنيقة في منطقة «بلغرافيا» وهو يجيب: «أو.. نعم.»

أبطأ بالسيارة ليوقفها أمام أحد منازل المنطقة وهو يقول: «ها قد وصلنا.»

www.elromancia.com

كانت المنازل مستطيلة ضيقة الشكل بنوافذ خشبية ذات لون داكن الحمرة وأبواب فخمة تتألق بألوانها. وطلب من صوفي السير على الرصيف الضيق بينما أخرج سلسلة مفاتيح من جيبه ليفتح الباب.

كانت الردهة مستطيلة ضيقة، وحين دخولهما برز رجل لاستقبالهما قائلاً ببشاشة: «صباح الخير يا صاحبي، إن الفطور بانتظاركما.»

كان فتى حدثاً بشعر غير منظم ووجه مستدير تتألق فيه عينان صغيرتان، وكان يبدو عليه أنه من عامة سكان لندن.

رد البروفسور تحيته مقدماً إياه إلى صوفي: «إنه «بيرسي» الذي يدير المنزل هنا بالاشتراك مع السيدة «ويفن» وهذه هي صوفي بلونت يا بيرسي وهي جائعة مثلي.»

قال بيرسي: «حسناً يا صاحبي. دع الأمر لي. تشرفت بمقابلتك يا آنسة.»

ابتسم لها وهو يتفحصها بعينيه ثم قال: «يمكنك الذهاب إلى المائدة وسأحضر أنا الطعام.»

تناول معطف صوفي وفتح الباب قائلاً للبروفسور: «إن بريدك في المكتب يا صاحبي وهو كثير.»

شكره البروفسور قائلاً: «في ما بعد، يا بيرسي، وسأرى ما إذا كان ثمة اتصالات هاتفية.»

كانت الغرفة التي دخلاها في مقدمة المنزل، ولم تكن واسعة ولكن كانت مؤثثة بذوق رفيع. وكانت جدرانها بلون التوت بحيث تتناسب مع الأثاث الفخم. وكانت المائدة مستديرة عليها غطاء شامي الصنع وضعت فوقه الأواني

الفضية والصينية بلونيها الأزرق والأبيض. وكان إناء القهوة الذي أحضره بيرسي مصنوعاً من الفضة.

جلست صوفي على المقعد الذي قدّم لها الى جانب البروفسور وهي تلقي نظرة إلى ما حولها. إنه من أسرة ميسورة، ولكن ما تراه هنا من رفاهية وفخامة تجلان عن الوصف. كانت هناك ساعة حائط لا بد أنها من طراز القرن الثامن عشر وربما أقدم. وكانت تناسب أثاث الغرفة تماماً، وكذلك الستائر المخرمة على النوافذ والسجادة الأثرية الفاخرة على الأرض.

قطع عليها البروفسور مجرى أفكارها قائلاً: «هل لك أن تسكبي القهوة من فضلك يا صوفي؟ هل تحبين أن تتحدثي عن عملك البارحة، أم تفضلين التحدث عن خطة لقائنا القادم؟»

توقفت عن الإجابة حين جاء بيرسي بصينية الفطور الرائع وانتظرت إلى أن ابتعد لتقول: «وهل سنلتقي مرة أخرى؟»

أجاب وهو يناولها طبق الخبز المحمص: «بالطبع. يا له من سؤال سخيف. متى ستكون إجازتك القادمة؟»

قالت: «بعد ثلاث ليالٍ.»

قال: «هذا حسن. سأوصلك عند ذاك، إلى بلدتك، ولكن هل نرى ما إذا كان بوسعنا أن نمضي بعض الوقت معاً أولاً؟ هل يمكنك تدبير قضاء بعد الظهر معي قبل أن نذهب؟ يمكنك الذهاب إلى فراشك في الصباح، وسأحضر لأخذك حوالى الواحدة. يمكننا عند ذاك تناول الغداء في مكان ما، ثم نتمشى قليلاً.»

www.elromancia.com

أخذت تتناول الطعام مفكرة. شعرت الآن بنفسها مستيقظة تماماً وهي تنظر إليه بتردد: «حسناً... نعم... ولكن لماذا؟»

أجاب: «لأن شيئاً من الرياضة يفيدك. وغابة «إيبن» هي في طريقنا أثناء الرحلة إلى بلدتك.»

لم تجد هي في هذا جواباً كافياً لسؤالها. ولكنها قالت: «حسناً، اتفقنا. هذا لطف كثير منك. إنني أحب أن أكون في المنزل وقت العشاء مع أن...»

توقفت عن الكلام وهي تنظر إليه ثم تابعت تقول: «ربما أحببت أن تتناول العشاء معنا قبل عودتك إلى هنا.»

قال برصانة: «سيكون في هذا منتهى سروري إذا لم يكن ثمة مانع لدى والدتك.»

أجابت صوفي: «كلا، أبداً... ستكون أمي مسرورة جداً فهي معجبة بك.» قالت ذلك بعفوية دون أن تلحظ البريق الذي بدا في عيني مرافقها إذ كانت مقبلة على التهام فطورها اللذيذ دون أن تشغل نفسها بتبادل الأحاديث. وحدثت نفسها كم هو جميل ودافىء ومريح هذا البيت. إن المرء الذي يعيش فيه، يكون في منتهى السعادة حقاً.

لم تلحظ طول الوقت الذي مكثته غير عابئة بالنوم. لقد نكرتها ساعة الحائط بسريرها فنظرت إلى البروفسور الذي أومأ برأسه وقد فهم ما تقصد. وقال: «سأعيدك الآن إلى شقتك لتنامي مهيئة نفسك لليلة أخرى.»

جاء بيرسي يساعدها في ارتداء معطفها، فشكرته على طعام الفطور قائلة: «أرجو أنه لم يكلفك عملاً فوق العادة.»

أجاب: «كلا، أبداً. إنني مسرور إذ أرى بعض الناس

فإنني والسيدة ويفن والهر نشعر بالوحشة عندما يكون صاحبي غائباً.»

في السيارة سألته: «لماذا يدعوك بيرسي بصاحبي؟ أعني، هذا غير عادي بالنسبة إلى خادم أو وصيف أو أي شيء كهذا، أليس كذلك؟»

قال: «صحيح، ولكن بيرسي شخص غير طبيعي. فقد استأصلت ورماً في مخه منذ حوالي الخمس سنوات، ومنذ ذلك الوقت قال إنه سيهتم بأموري إلى أن يموت أحدنا. فأخذته بوعده وهو ممتاز في عمله وكذلك دائم البشاشة. وأنا أحب أن أسمح له بأن يطلق عليّ أي لقب يعجبه. هل أعجبك؟»

قالت: «نعم. وأعتقد أنه يمكنك الركون إليه تماماً.»

قال: «هذا ما أفعل في الحقيقة. وليس هناك ما لا يمكنه القيام به. وبإمكاني القدوم من هولندا أو السفر إليها عالماً أن في استطاعته إدارة شؤوني كافة.»

توقفت السيارة أمام منزلها، وللحظة أخذت صوفي تقارن بينه وبين المنزل الذي كانت فيه. ونزلت من السيارة حين فتح البروفسور الباب لها، ليوصلها، بنشاط وحيوية لا مثيل لهما، إلى باب مسكنها.

قالت صوفي تحدث قطتها اللامبالية: «أظن أن عمله اليوم كان شيئاً حسناً.»

أثناء الليالي الثلاث التي تلت، سمعت الكثير من أخبار البروفسور فقد كان يقوم بإجراء العمليات يومياً، وكانت «جيل» تنقل، بكل أمانة، أدق حركاته وكلماته لها وما قالته له وما فكرت فيه في ما بعد. ولم يكن لكل هذا أهمية تذكر.

www.elromancia.com

أما صوفي، فلم تر له أثراً طيلة الوقت. وفي نهاية الليلة الأخيرة، عادت إلى مسكنها وهي غير متأكدة من شيء. صحيح لقد قال انه سيأخذها بسيارته إلى بلدتها، وأيضاً سيأتي لزيارتها الساعة الواحدة بعد الظهر ليأخذها لتناول الغداء في الخارج.. ولكن، ربما يكون قد نسي الأمر، أو ربما كان الأمر أسوأ من ذلك كأن تكون الدعوة غامضة لم تفهمها هي جيداً ولم يكن هو يعني شيئاً منها.

منطقياً، وجدت هذا التفسير غير محتمل. فأوت إلى فراشها حال وصولها بعد أن اعدت تنورة جميلة من قماش «التويد» وسترة صوفية مشغولة باليد وقميصاً حريرياً مناسباً، وذلك لارتدائها حالما تستيقظ من نومها.

ضبطت المنبه على الساعة الثانية عشرة والنصف، حيث نهضت بشيء من التردد، فارتدت ثيابها وأحسنت زينة وجهها وتصفيف شعرها، ثم وضعت «مابيل» في سلتها، ووضعت حقيبتها على كتفها ومن ثم نزلت إلى الطابق الأسفل.

كانت السيارة أمام الباب والبروفسور فيها يقرأ في صحيفة. فخرج حالما فتحت الباب، فتدبّر أمر «مابيل» والحقيبة، ثم أجلسها هي الى جانبه.

سألها: «الغداء أولاً؟ لقد حجزت مائدة في ذلك المكان «لانغا تيستون».

تبادلا أحاديث متفرقة، أثناء السير، وكان الحديث مرضياً لم يكلفها أي جهد. وأثناء الغداء تعمد إبقاء الحديث بينهما سهلاً عفوياً بعيداً عن المسائل الشخصية. واستمتعت صوفي، التي أنعشتها فترة نومها القصيرة،

بغدائها الذي اختاره لها بنفسه وتناولته بشهية زاد من قوتها، بخلاف طعام المستشفى المألوف والشطائر السريعة التجهيز.

قالت وهي تسكب القهوة: «لقد كان الغداء لذيذاً.»

قال: «كان رائعاً وما زال عندنا ساعة نتمشى فيها قبل أن نتابع الرحلة إلى بلدتك.»

بعد فترة سير قصيرة، وصلا إلى غابة «إيبن» فأوقف السيارة ومضيا في طريق حسن التخطيط يتغلغل بين الأشجار، ودغل كثيف، في هذا الفصل من السنة، كان شبه عارٍ من الإوراق، ولكنه هادىء ومحمي من الرياح. ووصلا الآن إلى فسحة صغيرة يحدها جدار يشرف على الحقول الممتدة. ووقفا مستندين إليه يمتعان النظر بهذا المشهد. وقال البروفسور بهدوء: «هل من الممكن أن اعتبر أن ثمة، الآن، صداقة حميمة تربطنا؟»

كانت صوفي بعد الراحة التي نالتها بالنوم والغداء اللذيذ والمكان الهادىء بين الأشجار.. كل ذلك جعلها تشعر ببهجة دفعتها إلى منحه ابتسامة عذبة. لقد كان رجلاً صلباً يمكن الركون إليه. ومرافقاً ممتازاً. وأجابت: «أوه.. نعم.»

قال: «إذن، ربما تدركين ما أنا بسبيل قوله الآن: هل تتزوجين مني يا صوفي؟»

تلاشت ابتسامتها في نظرة بالغة الدهشة وهي تقول: «أتزوّج منك؟؟ ولماذا؟ وما الذي يدعوني إلى ذلك؟»

ابتسم وهو يقول: «ألسنا صديقين حميمين؟ ألم نتفق الآن فقط على ذلك؟ إننا نستمتع بنفس الأشياء وتضحكنا نفس الأشياء. أريد امرأة تشاركني حياتي.. أريد رفيقة

www.elromancia.com

تجعل من مسكني بيتاً بكل معنى الكلمة.. رفيقة تجعل من أصدقائي اصدقاء لها.»

نظرت هي ببراءة إلى عينيه المليئتين عزماً، وقد تضرّجت وجنتاها وقالت متلعثمة: «ولكننا لسنا... أعني.. ألا يجب أن يكون ثمة حب بيننا أيضاً؟؟»

قال وهو ينظر إلى المنظر الممتد أمامه: «هل جربت الحب، يا صوفي؟»

مرت فترة طويلة قبل أن تجيب. وانتظر هو بهدوء، لتقول أخيراً: «نعم. لقد جربت.. كان ذلك منذ سنوات. كنت في التاسعة عشرة وقد أحببته كثيراً. ولكنه تخلى عني لأجل امرأة تكبرني سناً. كانت أرملة شابة. كانت صغيرة الحجم وجميلة جداً وبالغة الأناقة، وكانت ثرية، وشعرت بنفسي بجانبها، بالغة الضخامة والغلظة. وتمنيت لو كنت استطيع دفع أي شيء في سبيل أن أصبح نحيلة ضئيلة الحجم مثلها. ومن المضحك انني لا أستطيع الآن أن أتذكر شكل وجهه، ولكنني لن أنسى أبداً أحاسيسي التعسة تلك. لا أريد أبداً أن تتملكني مثل تلك الأحاسيس مرة أخرى. لقد كانت، بالنسبة إلي، وكأنها نهاية العالم.»

بقيت أنظاره بعيدة عنها، ولكنه مدّ ذراعه المديدة يحيط بها كتفيها لتشعر معها براحة لا مثيل لها.

قال لها: «ألا تفكرين به أبداً؟»

أجابت: «كلا.. أبداً.. ومنذ وقت طويل. إنه لم يكن حباً.. ذلك الحب الذي يكتسح أمامه كل شيء أليس كذلك؟»

أجاب بهدوء: «الانسان في التاسعة عشرة يكون عادة بالغ الحساسية سريع العطب، فهل فكرت مرة، في أنك لو

كنت تزوجت ذلك الرجل مع كل هذا الفيض من الغرام والافتتان لكنت الآن، بعد سنوات ثمان، تعضين بنان الندم والمرارة؟ إن الانسان يتغيّر، كما تعرفين.»

استدارت تنظر إليه. إنه لم يكن وسيماً فقط، بل كان واثقاً وبصيراً بالأمور، ويمكن الاعتماد عليه، وكان أيضاً يخفي، وراء صرامته وغلظته أحياناً، رقة بالغة. واستطردت: «إنك لم تجب عن سؤالي؟»

قال: «ولكنك أجبت عنه بنفسك، يا عزيزتي أليس كذلك؛ لقد تألمت كثيراً مرة، وأنت لا تريدين أن يحدث لك هذا مرة أخرى. الزواج، يا عزيزتي لا يعني مجرد الوقوع في الحب والعيش بسعادة بقية الحياة. المحبة هي بأهمية الحب في الحياة الزوجية. شعور الزوجين بالراحة مع بعضهما البعض هو أيضاً شيء هام. وكذلك الصداقة. اجمعي كل هذه الأمور معاً وستحصلين على نوع من الحب يجعل الحياة الزوجية سعيدة.»

قالت: «وماذا عن روميو وجولييت وأمثالهما.. إن الحب الذي...» فقاطعها: «أوه.. ذلك شيء لا يتيسر إلا لقلائل من المحظوظين.»

كانت ذراعه ما زالت تحيط بكتفيها، ولكنه لم يحاول جذبها إليه. وتابع قائلاً: «أظن أننا سنكون سعيدين يا صوفي. اننا لم يعرف الواحد منا الآخر جيداً، بعد. لأن فرص اللقاء أمامنا قليلة. ما قولك في أن نتزوج أولاً ليمكنك التعرف عليّ جيداً بعد ذلك؟ إنني متأكد من أننا سنكون سعيدين. ولكن دعينا نتعرف إلى بعضنا البعض على مهل، فيتأثر الواحد منا بالآخر: وإذا أحببت، يمكننا أن نعيش،

www.elromancia.com

بعد الزواج، كصديقين إلى أن نتعود على فكرة المعاشرة زوجاً وزوجة. إنني لن استعجلك.»

قالت: «إنني لا أعرف أين تسكن. هل لك والدان؟»

أجاب: «أوه.. نعم إن أبي ضابط متقاعد، وهو وأمي يعيشان في «فرايسلند» وأنا أعيش هناك أيضاً وكذلك اثنتان من أخواتي، والثلاث الأخريات يعشن في «دنهاغ».

سألته: «أتعيشون جميعاً في بيت واحد؟» لقد أفزعتها الفكرة. فقال ضاحكاً: «كلا كلا.. كل منا يعيش في بيته الخاص. هل عندك اجازة قريبة يا صوفي؟»

أجابت: «عندي أسبوع واحد فقط.»

قال: «هذا يكفي. هل يمكننا تدبير الأمر بحيث نكون متفرغين في الأسبوع القادم؟ عند ذلك أكون قد أنهيت عملي، فيمكنني أصطحابك إلى هولندا لتري رأيك، عند ذاك.»

قالت صوفي: «إنني لست متأكدة. ولكنني أظن أن هذا النوع من عروض الزواج مضحك جداً.»

قال: «أهو كذلك؟ إنني لم أقدم عرض زواج من قبل. ولهذا فليست لي الخبرة في اعطاء رأي بذلك. هل أعود إلى البداية لتخبريني أنت ماذا أقول؟»

ضحكت وهي تقول: «لا تكن سخيفاً.»

رأته يبتسم هو أيضاً ولكنها لم تلمح السرور في عينيه.

قالت بأسف: «لا أظن أنه يمكنني الحصول على اجازة أسبوع في مثل تلك المدة القصيرة.»

قال: «ربما، إذا كان لي أن أتدخل... قدمي الطلب إلى المسؤولين عن مثل هذه الأمور عندما تعودين إلى العمل، ثم انظري ماذا سيكون.»

قالت: «اتفقنا... وإن كنت غير متأكدة من النتيجة.»

قال بصوت رقيق: «كلا كلا.. إنك غير متأكدة بالطبع.. ولربما كنت تفضلين أن لا تقولي شيئاً في الوقت الحاضر.»

قالت برزانة: «وربما لا أقول شيئاً أبداً.»

قال بحيوية مفاجئة: «إنها تبدو فكرة رائعة. والآن، هل نعود إلى السيارة؟ إن أمك لا تتوقع وصولنا قبل حلول المساء، أليس كذلك؟ إذن، فلنبحث عن مكان نتناول فيه الشاي.»

بدا واضحاً، بعد فترة، انه غير مصمم على العودة إلى هذا الموضوع مرة أخرى. وكانت في أشد الشوق لأن تسأله عن بيته في هولندا. ولكنها لم تعرف كيف تتصرف في الأمر. إنها تكن له محبة كبيرة دون مراء، ولكنها ادركت أن خرق التحفظ الذي يحوطه، من الافضل ارجاؤه إلى أن تعرف المزيد عنه.

فكرت، وهي تجلس بجانبه في السيارة مبتعدين عن الغابة، في أن اعتبار فكرة الزواج منه، وهي التي ابتدأت تمد جذورها في رأسها، هذه الفكرة تبدو عبثاً لا طائل من ورائها ما دامت مستمرة في مخاطبته بلقب بروفسور وسيدي.

www.elromancia.com

الفصل الثالث

توقف البروفسور وصوفي في مطعم «البوست هاوس إيبين» لتناول الشاي وتبادل الحديث. لقد تحدثا عن كل شيء تحت الشمس ما عدا شخصيهما. وقد حاولت صوفي، عدة مرات، تحويل مجرى الحديث نحو حياة مرافقها، ولكن عبثاً، ذلك أنه لم يشجعها اطلاقاً على ذلك. وأخيراً، كفت عن المحاولة موقتاً، وقد شعرت بالغيظ دون أن تظهر ذلك، ليساورها إحساس بأنه يتعمد هذا شاعراً بسرور خفي من جراء ذلك.

ورحبت بهما الأم وهي تحبس في نفسها فضولاً حذراً. لقد أصبح البروفسور زائراً دائماً تقريباً. ومن الطبيعي أن يساورهم العجب لذلك. ولكن، بعد الفراغ من العشاء وجلوسهم جميعاً في غرفة الجلوس، بأتم راحة، حول نار المدفأة، ابتدأ يوضح لهم الأمر، قائلاً بصوته الهادىء المتمهل: «إنني عائد إلى هولندا غداً ليومين فقط. ولكنني آمل في أن أراك قريباً، مرة أخرى.» قال ذلك موجهاً حديثه إلى صوفي ثم تابع: «هل تمانعين يا عزيزتي، في ما لو أخبرت والديك بأنني طلبت يدك للزواج؟»

كان الوقت متأخراً لتقول: نعم، إنها تمانع، فقد كانت تفكر، طيلة الأمسية، في الطريقة التي تستطيع فيها أن تخبر والديها بالأمر.

قبل أن يتلفظا بكلمة، تابع البروفسور قوله: «سأمكث هنا

مدة أسبوع أو نحو ذلك، وهذا يعطيها وقتاً كافياً لتصمم ما إذا كانت تود الزواج مني أم لا. فإذا هي وافقت، فإنني، عند ذاك، آمل أن آخذها معي إلى هولندا لتتعرف إلى عائلتي وترى بيتي. أما إذا رفضت الزواج مني، فإنني آمل في أن نبقى أصدقاء وأراكم من وقت لآخر.»

ورأت صوفي ثلاثة أزواج من العيون تحدق بها. فقالت وقد توقفت أنفاسها: «أظن أنه يجب أن أفكر في الأمر قبل أن أقرر، كما تعلم.»

وقال والدها: «فتاة عاقلة.» بينما بقيت والدتها تنظر إليها متفحصة لتقول: «سأكون في غاية السرور لرؤيتكما متزوجين ولكن الحق مع صوفي وهي تعلن أنها ستفكر في الأمر. فالحب يجب أن يستمر طالما الحياة مستمرة.» وأومأت برأسها راضية وهي تضيف: «وأنتما مناسبان لبعضكما البعض تماماً.»

رضي الجميع بهذا الحل. وانتقل الحديث إلى سفره في اليوم التالي. وأسبوع العمل المجهد بالنسبة لصوفي، ثم البلاد المختلفة التي يزورها من وقت لآخر. ولما وقف مودعاً، شعرت صوفي بما كان متوقعاً منها، مشت معه إلى الباب الخارجي تودعه.

سألته وهو يرتدي معطفه في القاعة: «متى ستعود إلى انكلترا؟» فقال: «في خلال ثلاثة أيام. عليّ أن القي سلسلة من المحاضرات.» وكان وهو يتكلم، يقف ملاصقاً لها إنما دون أن يلمسها، واستطرد: «هل ستعطينني جوابك عند ذاك؟»

رفعت وجهها تنظر إليه. كان مبتسماً قليلاً ابتسامة ملؤها الثقة والهدوء وقالت: «سأفتقدك.»

فقال: «هذا فأل طيب بالنسبة إلى مستقبلنا. أليس كذلك؟»

فقالت مترددة: «حسناً.. نعم.. أظن الأمر كذلك. سأخبرك.. سأخبرك عندما أراك.»

فأحنى رأسه وقبلها.. كانت قبلة مختصرة سريعة، استدار بعدها خارجاً ليستقل سيارته ويبتعد بها دون أن ينظر خلفه.

أبدى توم شقيق صوفي سعادته عند عودته من المدرسة لوجود صوفي في البيت، ولقرب زواج شقيقته وصرخ: «هذا رائع.. الآن أصبح عندي مكان أذهب إليه في الاجازات.»

فقالت صوفي بحدة: «لا تبن القصور على الرمال. فأنا لم أوافق بعد. حتى الخطبة لم تعلن.»

فقال: «ولكنه شخص ممتاز يا صوفي. وعنده سيارة «بنتلي».» فقالت بإصرار: «وهذا ليس سبباً للزواج من أي كان.» وتساءلت بينها وبين نفسها عما يمكن أن يكون السبب الذي يدفعها إلى الزواج منه. إنه شخص ممتاز. وقد سادهما الانسجام وتبادلا الاعجاب والمحبة. إن محبة الشخص الذي ستمضي معه حياتها هي شيء ضروري. وهي ستكون الزوجة المناسبة له حيث أنها ممرضة ويمكنها أن تفهم نوع حياته وتقدرها. وهي أيضاً، لم تعد فتاة صغيرة، فهي ستكون جاهزة لاستلام إدارة البيت منه والتعاون في أي نوع من الحياة الاجتماعية يمكن أن يعيشها. إنها تستطيع أن تفهم وجهة نظره في أنها المرأة المناسبة له.

وسببت لها هذه الفكرة الاكتئاب بينما في نفس الوقت،

اعترفت بتعقله في اختيار زوجة تناسب نوع حياته وبالنسبة إليها، فهي لا تريد أن تقع في الحب مجدداً خشية من أن يتحطم قلبها مرة أخرى. وعندما أعادت التفكير، اعترفت بأن قلبها لن يتحطم إذا هي قبلت بالزواج من البروفسور «ريجيك» حسناً، يجب أن تتذكر مناداته بهذا بعد الآن.

لم يحاول والداها اسداء أية نصيحة إليها، ومع أنهما اظهرا اعجابهما بالبروفسور بجلاء، فقد أوضحا لها أنها بلغت من السن الحد الذي يجعلها قادرة على تقرير مستقبلها بنفسها. وكذلك جورج وبول عندما علما بالخبر عن طريق الهاتف ابتهجا بالأمر وقالا إن البروفسور رجل ممتاز وإنها قد بلغت السن التي يجب عليها فيها، على أي حال، أن تتزوج.

عادت صوفي إلى مستشفى «القديس آغنس» وقد حزمت أمرها، وإنما ليس تماماً، وكان هذا أمراً حسناً، حيث أن مشاغل العمل الليلي منعت ذهنها من أن يهتم بأي شيء سوى عملها وفراشها.

مرّت ثلاثة أيام دون أي خبر من البروفسور. وفكرت في أنه لم يكن هناك ما يمنعه من الاتصال هاتفياً. وتمشت حول المستشفى بوجه غاضب متعب على الرغم مما تبذله في سبيل المحافظة على جمالها.

انسابت سيارة البروفسور بهدوء مجتازة باحة المستشفى بينما هي تعبر الشارع، ثم اتجهت لتتوقف إلى جانبها.

حياها ببشاشة، ولكنها، برغم ذلك أحست به متعباً.

سألته بشيء من الشك: «هل وصلت للتو؟» وما لبثت أن

تذكرت عصبيتها فاستدركت تقول: «صباح الخير يا ريجيك».

قال: «كان عبوري من «كاليه» هذه المرة أفضل من كل ما سبق. لقد وصلت قبل ذهابك إلى الفراش على الرغم من ازدحام السير.

وضع يده على كتفها وهو يقودها إلى السيارة قائلاً: «سنذهب إلى غرفتك للعناية «بمابيل» ومن ثم نذهب لتناول طعام الفطور معاً.» فدخلت السيارة وهي تقول: «حسناً. لا بأس.»

ساورها شعور غامر بالرضا وهي تفكر في أنه لم يعد عليها أن تكلف نفسها عناء الاهتمام بأي شيء بعد الآن. ثم ساورها شعور بأن تفكيرها هذا هو غير منطقي، ولكنها كانت من التعب بحيث لم تستطع مناقشة مثل هذه الأمور مع نفسها. وسألته: «هل أخذت قسطاً من النوم؟»

قال: «كلا.» وابتسم لها فجأة لتختفي كل امارات التعب من وجهه. وتابع قائلاً: «كان عندي الكثير من الأمور التي تحتاج إلى التفكير فيها.»

وقف أمام باب مسكنها وهو يقول: «عشر دقائق فقط، وسأبقى بانتظارك هنا إذ أنني لا أشعر بالرغبة في رؤية صاحبة المنزل الآن.»

قالت: «حسناً. لن أبطيء.»

كان الصباح بارداً، ولا بد أن «مابيل» لم تضع وقتها على الشرفة الصغيرة. ولكنها ما لبثت أن عادت لتلتهم طعامها.

قالت صوفي للقطة: «سأعود في أقرب وقت.» وهرعت تنزل الدرج دون أن تكلف نفسها عناء اصلاح زينتها أو تصفيف شعرها.

كان البروفسور نائماً في السيارة. كان وجهه هادئاً بريئاً كوجه طفل فدارت حول السيارة تفتح بابها لتجلس إلى جانبه. وقال لها وهو ما زال مغمضاً عينيه: «لقد أسرعت بالعودة.» وما لبث أن فتحهما واستقام في جلسته في غاية الانتباه.

قالت: «لم أشأ أن أوقظك. هل أنت متأكد من أنك لا تحب أن تذهب إلى منزلك لتنام؟»

قال: «إننا ذاهبان إلى منزلي فعلاً، ولكن لنتناول طعام الفطور أولاً، أما النوم، فسيأتي في ما بعد.»

وفتح «بيرسي» الباب واسعاً وهما ينزلان من السيارة وهو يرحب بهما ببشاشة: «صباح الخير يا صاحبي. صباح الخير يا آنسة. لقد أعدت لكما السيدة «ويفن» فطوراً رائعاً. هل كانت الرحلة حسنة؟»

أجابه البروفسور بأن رحلته كانت في الواقع حسنة. ثم ساعد صوفي على خلع معطفها، مناولاً إياه إلى بيرسي الذي أخذه منه ليضعه على المشجب في الردهة، ثم قال للبروفسور: «هناك بعض الرسائل لك في غرفة المكتب، ولكنك ستتناول الفطور أولاً، أليس كذلك؟»

أجاب البروفسور. «بالطبع، شكراً يا بيرسي. هل الفطور جاهز؟» فقال «بيرسي» وهو يسرع مبتعداً: «سأعود حالاً.» بينما قاد البروفسور صوفي إلى غرفة الطعام.

كانت النار تشتعل في المدفأة بينما كانت المائدة مجهزة بطاقم الشاي الصيني والفضيات يتوسطها إناء كبير أزرق يحوي برتقالاً.

جاء «بيرسي» يحمل صينية عليها القهوة والشاي

www.elromancia.com

وأطباق مغطاة تحوي طعام الفطور. ثم عاد ليأتي بطبق الخبز المحمص.

قال البروفسور: «شكراً يا «بيرسي» سأناديك إذا احتجت إليك.» ثم نهض واقفاً يقدم الطعام إلى صوفي. البيض.. الفطر.. البندورة المقلية.. الخ... في الوقت الذي كانت صوفي، ممتلئة الفم بالطعام، تومىء متقبلة كل ما يعرضه عليها. وأخيراً، شعرت بوجوب المشاركة في الخدمة، سألته إن كان يريد الشاي أم القهوة. فأجاب: «قهوة من فضلك.»

سكبت لنفسها كوب شاي وجلسا يأكلان صامتين. ولكن، عندما جاء «بيرسي» يرفع الأطباق الفارغة ويأتي بمزيد من الخبز المحمص، سألها البروفسور: «هل أنت من التعب بحيث لا يمكنك الكلام؟»

أجابت وهي تضع الزبدة والمربى على قطعة الخبز المحمص: «كلا، ولكن الفطور كان لذيذاً جداً. شكراً.»

قال وهو يستند بظهره إلى مسند الكرسي وقد فرغ من طعامه: «هل يمكننا تناول طعام الفطور معاً على الدوام، يا صوفي؛ لم يبق أمامك سوى أيام قليلة لتقرري نهائياً ما الذي ستفعلينه؟ ولتعلمي أنني غير صبور وأحب أن أسلك طريقي الخاص. سيىء الطبع أحياناً مع أنني تعلمت ضبط أعصابي...»

قالت: «هل تحاول اخراجي من حياتك بهذا الكلام؟ إذا كان الأمر كذلك فقد فات الأوان، أظن انني أحب الزواج منك.» وأضافت بخجل: «هذا إذا لم تكن قد غيّرت رأيك.»

ابتسم لها وهو يقول: «كلا يا صوفي، لقد صممت على

الزواج منك منذ المرة الأولى التي رأيتك فيها تقفين هناك، في منتصف الرصيف...»

نظرت إليه وقد اتسعت عيناها دهشة: «أحقاً؟ ولكن، كيف كان في استطاعتك التصميم على أمر كهذا في مثل تلك السرعة؟» فقال: «لقد أدركت أنني، أخيراً، وجدت الفتاة التي تناسبني طولاً، ولهذا، صممت على اختطافك.»

فنظرت إليه بشك وهي تقول: «إنك تمزح دون شك. أليس كذلك؟»

لم يجب، بل نهض وتقدم إليها ومدّ يده ينهضها عن الكرسي بلطف قائلاً: «اعتقد أن زواجنا سيكون ناجحاً تماماً.» وانحنى يقبلها. ولكنها كانت قبلة صغيرة سريعة لم تترك لها فرصة للاستمتاع. وقال: «سأعيدك الآن إلى شقتك. أما أنا فعليّ اجراء عملية غداً صباحاً. هل يمكنك تناول الشاي معي؟ عندنا الكثير من الأمور لنتحدث فيها. متى تكون إجازتك الليلية؟»

أجابت: «بعد أربع ليالٍ.»

قال: «ربما سأكون في بريستول في ذلك الوقت. سآتي لأراك في منزل أسرتك إذا لم تمانع والدتك.» وفكر لحظة واستطرد: «يمكنني أن آخذك إلى هناك بسيارتي قبل أن أرحل.» فابتدأت صوفي تقول: «لا حاجة بك لذلك...» ولكنها توقفت عندما قاطعها بهدوء: «ولكنني أحب ذلك، يا صوفي.»

أوصلها إلى شقتها، قائلاً إن من غير المحتمل أن يتمكن من رؤيتها قبل اجازتها الليلية، ثم ابتعد تاركاً إياها تحاول تجنب أسئلة الآنسة «فيبس»، لتصعد إلى غرفتها حيث تنتظرها رفقة قطتها «مابيل».

www.elromancia.com

اعترفت، وهي مضطجعة على سريرها، شبه غافية، بعد ذلك الفطور الرائع، بأنها مسرورة لفكرة رؤية «ريجيك» مرة أخرى. وفكرت في أنهما قد لا يتفقان تماماً في نظرتهما إلى كثير من الأمور، ولكن، ليس هناك أمور تهمها. وبدا لها المستقبل هادئاً مستقراً خالياً من عذاب الحب وخيبته. لقد كانت وريجيك عاقلين ومن نفس المستوى في التفكير بحيث يمكنهما التمتع بحياة زوجية قائمة على الصداقة واحترام كل منهما للآخر.

مع هذه الأفكار المغلوطة، ذهبت صوفي في سبات عميق.

بعد يومين، وفيما كانت صوفي في طريقها إلى تناول الفطور، استدعيت إلى غرفة المكتب.

أخبرتها رئيسة الممرضات بلطف أن في استطاعتها الإستقالة من عملها، ذلك أن البروفسور (فان تاك تير ويجسما) «قدم طلباً بالنظر في تركها العمل رسمياً، حيث أنه سيعود إلى هولندا قريباً ويرغب في اصطحابها. وانبسطت اسارير الرئيسة في ابتسامة نادرة وهي تقول: «أرجو لك السعادة يا أخت، فالبروفسور رجل ممتاز ومحبوب جداً هنا. وهو كثير التردد إلى هنا كما تعلمين. ونحن نأمل في أن نراك من وقت لآخر.»

تمتمت صوفي بكلمات مناسبة، وخرجت لتجتاز الممر المؤدي إلى المطعم لتناول الفطور. ومشت متمهلة مستغرقة في أفكارها، متأملة في حذائها، وقد تاهت أفكارها في المستقبل حتى أنها لم تر «ريجيك» حين وقف أمامها.

بدا غير متعجل وهو يقول: «صباح الخير يا صوفي. ألم تذهبي إلى غرفة المكتب بعد؟»

أومأت برأسها قائلة: «كنت هناك لتوّي. لقد كانت الرئيسة في غاية اللطف. فقد أخبرتني أنه يمكنني ترك العمل حين تشاء أنت.»

قال برصانة: «وأنت أيضاً. إنني سأعود في غضون خمسة أيام. هل تأتين معي لتري هولندا وبيتي؟ وإذا أحببت أن تغيّري رأيك فهذا ليس صعباً يا صوفي.»

ابتسم مستطرداً: «إنك في طريقك لتناول طعام الفطور، أليس كذلك؟ إنهم في انتظاري في غرفة العمليات. سأكون أمام باب شقتك يوم ينتهي عملك. إلى اللقاء.»

وتسمرت أنظارها على ظهره العريض وهو يبتعد. كان رجلاً عملياً، ولكن، قد يكون عمله يأخذ كل اهتمامه.

جلست إلى مائدة الفطور، وقد امتلأ ذهنها بكل ما يتوجب عليها القيام به قبل ترك العمل. وأول شيء كان هو أن تخبر كل زميلاتها حول المائدة.

قالت تخاطبهن مغتنمة فرصة توقفهن فيها عن الحديث: «إنني تاركة العمل في خلال أربعة أيام.» وعندما نظرن إليها جميعاً بدهشة، أسرعت تتم كلامها: «لم أعرف أنا نفسي بذلك إلا الآن، فقد تم تدبير الأمر بشكل استثنائي. إنني سأتزوج من البروفسور «فان تاك تير ويجسما» وسيصحبني معه إلى هولندا للتعرف إلى عائلته.»

تصاعدت آهات الدهشة والسرور. فقد كانت محبوبة منهن. «جيل» فقط بانت عليها خيبة الأمل، ولكن وجهها ما لبث أن أشرق وهي تقول: «عندما تتزوجين، إدعيني إلى

www.elromancia.com

منزلك لقضاء بعض الوقت، إذ لا بد أن هناك رجالاً كثيرين مثله.»

ضحكن جميعاً، وابتدأت التهاني وتوالت الأسئلة التي أجابت عن معظمها بأنها لا تعرف. حتى أنها لم تكن متأكدة أين كان «ريجيك» يسكن. كانت تعرف فقط أنه ينتظرها أمام باب مسكنها.

لم يكن لديها الكثير مما يجب انجازه. فالقطة تؤخذ إلى المنزل في البلدة عند غيابها. وكان المفروض فيها الوصول إلى منزلها هي أيضاً عندما تعود من زيارتها لمنزل «ريجيك» في هولندا، وهذا يعني أن تعطي خبراً للآنسة «فيبس»، ولشعورها بعدم قدرتها على مواجهة فضول تلك السيدة، توقفت في منتصف الطريق أمام غرفة هاتف عمومي واتصلت بأمها.

بدا السرور في صوت والديها، وقالت أمها: «إنني، ووالدك نظن أنك ستكونين سعيدة جداً. هل هنالك أي شيء تريدين مني عمله لأجلك؛ إن الوقت قصير في الحقيقة.» فأجابت صوفي: «فقط بالنسبة إلى جواز السفر. وأرجو العناية «بمابيل». ليس عندي فكرة عن مكان «ريجيك» الآن، فقط أخبرني بأنه سيراني يوم تركي العمل. سيكون سفري خلال أربعة أيام. لقد كانت الأمور مفاجئة ولكن يبدو عليه أنه تدبّر الأمور كافة.»

جاءها صوت الأم: «هل أنت سعيدة يا حبيبتي؟»

أجابت: «نعم يا أمي، ولكنني خائفة قليلاً من مقابلة أسرته. كل تلك الشقيقات.. أفرضي أنني لم أعجبهن؟» فقالت الأم: «ولكنك ستتزوجين من «ريجيك» يا حبيبتي

وليس من شقيقاته. إنني متأكدة من أن الأمور ستكون على ما يرام.» طمأنها صوت أمها.

كان الوقت أمامها قصيراً جداً بالنسبة لتدبير أمور العمل. فقد كان عليها تسليم القسم إلى الممرضة التي تليها بالاقدمية، كما أنه كان على الممرضة «بيت» أن تأخذ مكانها في الدوام الليلي. لقد عملن معاً، هن الثلاث، لسنة أو اثنتين، ولهذا لم تكن ثمة حاجة لشرح الأمور ومحتويات القسم وسير العمل، لهن.

أسرعت صوفي بإنجاز قائمة جرد بمحتويات القسم بمساعدة إحدى ممرضات المكتب، وذلك بالبقاء في القسم بعد الفطور في الوقت الذي كان عليها أن تكون فيه في فراشها، لتعود إلى غرفتها حيث تستقبلها القطة «مابيل» ساخطة. أما صاحبة البيت الفضولية فما زالت جاهلة بتركها القريب للمنزل. وأخيراً، صممت، بعد تفكير طويل في الفراش، على أن تترك أمر صاحبة المنزل إلى «ريجيك» ما دام هو الذي يتولى جميع الأمور وبأتم سرعة.

عند انتهاء آخر ليلة لها في العمل، كان البروفسور في انتظارها. كانت قد ذهبت إلى مكتب رئيسة الممرضات تودعها، وكذلك ودعت كل زميلاتها وأيضاً الدكتور «بيتر سمول» والممرض «تيم» والحمالين. وها هي ذي الآن، مثقلة بهدايا الوداع المختلفة، تجتاز باب الخروج في المستشفى للمرة الأخيرة.

خرج البروفسور من سيارته متقدماً لاستقبالها. أخذ منها ما تحمل ووضعها في السيارة ليسألها بعد ذلك: «ما الذي تودين عمله أولاً. سنذهب مساء الغد لاجتياز القناة.

www.elromancia.com

هل نذهب إلى غرفتك حيث تتدبرين أمر «مابيل» وما تحتاجين إليه، بينما أبقى أنا مع صاحبة المنزل؟ سأبقي الغرفة باسمك لمدة اسبوع أو نحو ذلك حتى إذا عدنا، يمكنك القدوم لأخذ ما بقي من امتعتك. وبهذا تكونين قد حصلت على قسط من الراحة بقية هذا النهار، وتضعين بعض الأشياء التي تحتاجينها في حقيبة. وسأحضر إليك غداً حوالي الساعة السادسة إذ إننا سنسافر من «هارويتش»...

قالت صوفي: «أراك قد فكرت في كل شيء. كم سنمكث في هولندا؟»

أجاب: «مدة أسبوع، إذ عليّ أن أذهب إلى «ليدز» لمدة يومين ثم إلى «أثينا.» سأعيدك إلى هنا أولاً. إذ ستودين أن تكوني موجودة في موطنك في عيد الميلاد. إنني لست متأكداً من مدة بقائي هناك ولكنني سأتي بأسرع وقت أستطيعه.»

سألت: «هل ستكون هناك في عيد الميلاد؟»

أجاب: «أظن ذلك. إنما دعينا ننهي شؤونك أولاً ثم نتحدث في ذلك في ما بعد.»

كان عند كلامه، وكذلك صوفي، وعند نزولها، بعد نصف ساعة، حاملة سلة «مابيل» بيد، وحقيبة ملئت على عجل، باليد الأخرى، وجدت الآنسة «فيبس» في انتظارها في الردهة. وبينما تناول البروفسور منها الحقيبة وعاد إلى السيارة، قالت الآنسة «فيبس» بلهفة: «أوه، يا عزيزتي.. أية مفاجأة عاطفية هي هذه؛ ويجب أن أقول إنني طالما تساءلت... ولكن، لا تقلقي من جهة غرفتك فسأبقيها مقفلة إلى حين عودتك لأخذ بقية أمتعتك.»

في فورتها هذه، مالت «الباروكة» على رأسها إلى جانب وهي تستطرد قائلة: «لا أدري متى حدثت لي مثل هذه الهزة من قبل.»

تمتمت صوفي بكلمات المجاملة وهي تطمئن صاحبة المنزل إلى أنها ستعود بعد أسبوع أو نحو ذلك، ثم حيتها مودعة، متجهة إلى السيارة بينما الآنسة «فيبس» تقول: «ستكونين عروساً حلوة جداً.»

كان البروفسور يستند، مسترخياً إلى البوابة. وحدثت صوفي نفسها بأنه الرجل الذي بإمكانه أن يجعل نفسه مرتاحاً أينما كان. إنه يبدو وكأنما لا يوجد في العالم ما يدعو إلى القلق. ولقد ذكرها هذا التفكير في أنها لا تملك أياً من هاتين الصفتين.

صعدت إلى السيارة، وأغلق هو الباب، ثم صعد إلى جانبها متطلعاً إلى ساعته قائلاً وهو يبتسم لها: «لقد قالت أمك إن القهوة ستكون جاهزة حوالي الحادية عشرة.»

فكرت، ما أجمل أن تكون مع شخص يؤدي كل عمل عنها... وفي الوقت نفسه كانت تنساق مع خططه الحسنة التدبير التي لم تحملها على أي نوع من الشكوى أو عدم الرضى.

سألته بحدة: «هل كنت مستيقظاً طوال الليل مرة أخرى؟»

أبطأ بالسيارة عند ضوء المرور والتفت إليها باسماً وهو يقول: «إنك تتحدثين بطريقة الزوجات تماماً. لقد نمت اثناء عبور القناة.

قالت: «لم أكن أقصد مناكدتك.»

قال: «هل هذه مناكدة؟ ولكنها أعجبتني.»

www.elromancia.com

كانت أمها بانتظارهما وقد جهزت القهوة على المائدة وبجانبها كمية من الكعك حديث الصنع، وبعد عشر دقائق، كانوا يجلسون حول مائدة المطبخ في الوقت الذي كانت فيه «مابيل» تجلس بين الكلبين، «ميركري» و«مونتغومري.»

سألت السيدة «بلونت»: «هل ستبقيان للغداء؟» فقال البروفسور: «ما زال عندي ما يجب إنجازه يا سيدة «بلونت». وسأحضر غداً مساء لآخذ صوفي إذ أننا سنرحل بطريق «هارويتش» وهذا سيأخذ مني يوماً كاملاً...»

سألته: «ألا يمكنكما قضاء عيد الميلاد معنا؟»

أجاب: «أتمنى لو كان باستطاعتي، إذ سأكون أثناء ذلك، في اليونان، حيث علي أن أحاول جهدي في العودة إلى الوطن ولو ليوم واحد.»

قالت السيدة «بلونت» وهي تعني ما تقول: «يا للرجل المسكين.» ورحل بعد ذلك بعد أن قدم كل مجاملة ممكنة إلى السيدة «بلونت» ومنح صوفي قبلة بريئة.

عندما عادت الأم وابنتها إلى داخل البيت، بعد أن غابت سيارة البروفسور عن أعينهما، سألت الأم: «هل أنت سعيدة لزواجك من «ريجيك»؟

أجابت الإبنة: «ليس ثمة غرام بيننا، يا أماه. إنه فقط يريد زوجة مناسبة، وقد انسجمنا معاً وهو يعجبني كثيراً.» ونظرت صوفي إلى أمها بقلق وهي تستطرد: «يقول «ريجيك» إن الزواج الناجح هو المبني على الصداقة والمحبة، وأن الحب وحده لا يكفي.»

أعادت ملء كوبي القهوة، وهما تجلسان إلى المائدة،

وقالت: «لقد كنت خائفة من الوقوع في الحب مرة أخرى منذ...»

قاطعتها أمها: «نعم، نعم. إنني أفهمك ما دمت لم تعودي مغرمة.. حسناً، لقد مضى وقت طويل على ذلك.»

قالت صوفي: «لقد أخبرت «ريجيك» أنني لم أعد أتذكر ملامحه أو أي شيء آخر عنه، ولكنني ما زلت اتذكر كيف كانت مشاعري. لقد كنت حذرة جداً من تطور الصداقة بيني وبين أي من الرجال الذين تعرفت إليهم بعد ذلك. ولكن «ريجيك» كان مختلفاً عنهم.. هل تريننى أحسنت التعبير عن نفسي؟»

قالت الأم: «لا ضرورة لذلك يا عزيزتي. يبدو لي أنكما متلائمان تماماً. إن «ريجيك» من الحكمة والنضج بحيث يدرك تماماً ماذا يريد وكذلك أنت. إنني واثقة تماماً من أنكما ستكونان سعيدين معاً.»

نظرت الأم إلى ابنتها بحنان ومحبة. وحدثت نفسها بأن ابنتها العزيزة لم تكن على دراية كافية بالأمور، ومن حسن الحظ أن «ريجيك» يملك قدراً كافياً من الصبر والعزيمة والمقدرة على إخفاء مشاعره. وبعد زواجهما سيكون، دون شك، قادراً على جعل صوفي تقع في حبه.

أومأت الأم، وهي تصل بتفكيرها إلى هذا الحد، وابتسمت. وتطلعت صوفي إلى أمها تسألها عما دفعها إلى الابتسام. وردت الأم قائلة: «كنت أفكر في طرحة رائعة لرأسك يوم عرسك، يا حبيبتي. بالمناسبة، إذا لم تكوني متعبة، هل نصعد إلى حيث خزانة ملابسك لتختاري ما يمكن أن تأخذيه معك في رحلتك؟»

www.elromancia.com

استغرق اختيار الثياب التي سترتديها، في رحلتها، قسماً كبيراً من بقية النهار. لقد صممت على ارتداء بدلتها «الجاكوار» في الطريق. ستسافر بها وتبدو أنيقة مريحة أثناء النهار مع القمصان التي تناسبها. ثم وضعت في حقيبتها ثوباً حريرياً للمساء بكمين طويلين وتنورة مستقيمة، مضيفة ثوباً من القطيفة الزرقاء للسهرة ذا تنورة طويلة وكمين عريضين وفتحة عنق منخفضة.

اقترحت أمها أن تضيف إلى هذا ثوباً أخضر من الجرسيه ذا تنورة بثنيات.

وقالت صوفي وهي تطوي ثوباً من الصوف، مضيفة اليه قفازين سميكين و«قبعة» وحذاءين مناسبين: «وهذا أيضاً يصلح لأيام المطر والثلج.» لقد كانت تتملكها فكرة ثابتة هي أن منطقة «فرايسلند»، موطن «ريجيك» لا بد أنها شديدة البرد في الشتاء.

قالت تحدث أمها: «سأحزم أمتعتي غداً. هل سيكون أبي هنا عند الغداء؟»

قالت أمها: «نعم يا عزيزتي. ولكن، الا تحتاجين إلى بعض النوم بعد الظهر؟»

لم تكن صوفي تشعر بحاجة إلى النوم على الاطلاق، ولكنها، اطاعة لأمها، ذهبت إلى الفراش بعد الظهر. لم يكن لديها الكثير من الأمور لتشغل بالها. ولم تلبث أن شعرت بيد أمها تلامس كتفها قائلة:

«هل لك في كوب من الشاي يا حبيبتي؟ سيكون العشاء جاهزاً بعد نصف ساعة.»

ذهبت إلى فراشها، تلك الليلة، مبكرة بعد أن غسلت

شعرها ووضعت على وجهها نوعاً من «المساحيق» تضمن معه اخفاء ما قد يكون هناك من خطوط وتجاعيد خفيفة، مصممة على أن تبدو أمام أسرة «ريجيك» بأفضل مظهر. وفكرت، قبل ان تستسلم إلى النوم، أن من غير المحتمل أن تكون هناك شقيقاته بأجمعهن.. ولكن، ماذا عن أخويه.. هل سيكونان هناك هما أيضاً؟ ولم تستطع النوم إلا بعد وقت طويل لما ساورها من شكوك.

لكن، لم يكن ثمة وقت لمثل تلك الشكوك، في اليوم التالي، فقد كان عليها أن تحزم أمتعتها، وتأخذ الكلبين إلى النزهة، ثم تتفقد حقيبة يدها، ومصاحبة أبيها إلى مزرعة حيث كانت ولادة متعسرة لبقرة.

عادا إلى البيت في وقت الشاي، لتصعد بعد ذلك، إلى غرفتها لتجهز نفسها للسفر. فقد قال «ريجيك» إنه سيكون هناك عند حلول المساء، وهي تعلم أن عبارة القناة ستبحر قبل منتصف الليل. كان الطريق بالسيارة إلى «هارويتش» لا يستغرق أكثر من ساعة، وقد أعدت أمها العشاء الآن.

وصل هو بينما كانت صوفي لا تزال في غرفتها تتفحص وجهها الجميل في المرآة، قلقة من أن لا تبدو كما تحب. وهرعت تهبط السلم بعد أن سمعت صوت السيارة تقف ثم همهمة الأصوات في الردهة، لتجده وقد خلع معطفه وجلس مع أبيها. ووقف حال دخولها وتقدم إليها يأخذ بيدها ويطبع على وجهها قبلة خفيفة.

قال: «أرى أنك قد أكملت استعدادك. لقد تلطفت أمك ودعتني لمشاركتكم العشاء. ونحن لسنا بحاجة إلى الرحيل قبل ساعة أو نحوها.»

www.elromancia.com

قالت صوفي: «سأذهب لأساعدها.» لقد شعرت فجأة، برغبة قوية في الابتعاد عنه، بعد أن كانت، منذ لحظات، تشعر بنفس الرغبة في رؤيته. كان من الحماقة أن تشعر بالخجل من الجلوس معه، وظنت أن شعورها هذا ناتج عن الاثارة التي تشعر بها بالنسبة إلى قرب سفرها إلى هولندا.

انضمت إلى أمها في المطبخ وأخذت تنقل أطباق السجق الساخن، والبطاطا المحمّرة وفطائر اللحم والشطائر المحمصة، إلى غرفة الطعام. وكان هنالك قهوة أيضاً وجعة للرجال، ولكن البروفسور هز رأسه آسفاً، بالنسبة لهذا ثم انخرط مع السيد بلونت في حديث تناول ذكر أنواع الجعة.

مع أن صوفي شعرت بالسرور للانسجام التام الذي ساد الرجلين، إلا انها لم تستطع مقاومة الشعور بالغيظ من تصرف البروفسور العادي تماماً معها. مع أنهما كانا مقبلين على الزواج. لقد كان في استطاعته أن يبدي شيئاً من الاهتمام، على الأقل، بزوجة المستقبل.. حدثتها نفسها بهذا كله ولكن، في نفس الوقت، كان عليها أن تعترف بأن زواجهما لم يكن مبنياً على العاطفة.. كما أن «ريجيك» لم يكن بالرجل الذي يستطيع التصنّع...

رحلا أخيراً بعد الانتهاء من العشاء وبعد أن وعدت صوفي أمها بالاتصال بها وتطمينها عن سلامتهما حال وصولهما.

قال البروفسور للسيدة «بلونت» باسماً: «يمكنك الاتصال هاتفياً في الصباح. وسأعتني بها جيداً.»

اتكأت الأم على نافذة السيارة وقبلته من وجنتيه وهي

تقول: «أعلم ذلك. وأرجو لكما رحلة سعيدة ممتعة معاً.»

كانت عبارة القناة شبه ممتلئة، فتناولا القهوة ثم افترقا كل إلى سريره، بعد أن قال لها: «لقد أخبرت المسؤول بأن يحضر لك الشاي والخبز المحمص الساعة السادسة صباحاً. أتمنى لك ليلة مريحة يا صوفي.»

كان العبور متعباً ومع هذا لم تشعر بدوار البحر. كانت مستلقية على فراشها وقد انتابها القلق. وتمنت لو لم توافق على لقاء أسرته، ولا على الزواج منه، وما كان لها أن تنمي الصداقة بينهما بالدرجة الأولى.

تناولت الشاي والخبز وارتدت ملابسها وقد أعادت إليها تباشير الصباح صفاء نفسها. وكانت تنظر إلى البحر من كوة القمرة، حين سمعت نقراً على بابها ليدخل بعده البروفسور، فالقى بنظرة على وجهها ثم مد ذراعه حول كتفيها وهو يقول: «أعلم أنك أمضيت الليل ساهرة تفكرين لو لم تقابليني.. لو لم توافقي على الزواج مني.. لو لم توافقي على القدوم معي إلى هولندا.»

انحنى فجأة، وقبلها. لم تكن أبداً كقبلاته السريعة السابقة... كانت قبلته الآن قوية ودافئة بعثت الانتعاش في نفسها.

سألته: «ألا تراودك أنت أيضاً الشكوك أبداً؟»

أجاب: «أبداً.. والآن، لقد اقتربنا من المرفأ. هيا، وستشعرين بالتحسن عندما تطأ قدماك الأرض.»

ومن الغريب أن ما قاله قد حدث فعلاً، إذ ذهبت مخاوفها وتلاشى قلقها. وعادت إلى الشعور بالراحة بصحبته وهي تسأله عن البلاد التي يمران بها.

قال: «سنتوقف لتناول القهوة. إننا الآن على بعد مئة

وأربعين ميلاً عن موطني، وسنكون هناك بعد الثانية عشرة بالضبط، سنأخذ طريق الأوتوستراد برغم ما سيسببه ذلك من ملل لنا.. ولكنه يمنحنا سرعة أفضل.»

كان الطريق أمامهما مستقيماً تحيط به التلال، وهما يجتازان المدن والقرى. وكانت هولندا كما تصورتها تماماً. خضراء مستوية وأكثر عمراناً مما توقعت.

قال «ريجيك» موضحاً: «هذه أكثر الأمكنة ازدحاماً، وكلما ابتعدنا نحو الشمال، قلّ وجود المدن والمصانع. أظنك ستحبين منطقة «فرايسلند».

توقفا لتناول القهوة، ومع أن الجو لم يكن ممطراً، فقد كانت الرياح تعصف، وبدت المياه باردة مغبرة اللون.

تغيّرت معالم البلاد أمامهما الآن وهما يتحوّلان إلى الطريق الزراعي. كانت القرى قليلة ومتباعدة. ولكن كانت هنالك بيوت قليلة وسط المزارع وقد ألحق بها مخازن الغلال، وقد باعدت بينها المسافات وذلك حيث كانت توجد المياه.

سألت صوفي وهي تشير إلى حيث يتوجهان: «أذلك هو البحر؟»

أجاب: «إنها البحيرات و«فرايسلند» تغص بها، إنها تزدحم عادة بالقوارب في فصل الصيف. إنها بحيرة «سنيكر مير» التي ترينها الآن، والآن سنمر في مدينة صغيرة تدعى «غراو» مجتازين عدة بحيرات. إنني أعيش في قرية منعزلة عن غيرها من الأمكنة. وسنذهب إلى هناك أولاً، وبعد ذلك نذهب إلى منزل والديّ في «ليواردن» التي تبعد حوالي الاثني عشر ميلاً.»

سرّت لمعرفة ذلك، وسألته: «هل ستكون أسرتك بأكملها

هناك؟» فضغط على يدها مطمئناً وهو يقول: «سيحبونك وتحبينهم.»

قالت: «أوه.. أتمنى ذلك. هل هذه هي «غراو»؟»

كانت في الحقيقة قرية واسعة تقوم على ضفة بحيرة صغيرة ذات مرفأ صغير. وفكرت في مبلغ جمالها أثناء الصيف. حتى في هذا الوقت كانت تبدو جميلة ببيوتها الصغيرة الأنيقة. وكان هناك أيضاً حوانيت قليلة وفندق قريب من المرفأ. ومدت عنقها تحاول أن ترى ما يمكنها قبل أن يتحوّل البروفسور إلى طريق ضيق تحدّه بحيرة أخرى على أحد جانبيه، وقناة على الجانب الآخر، ثم يجتاز قطعة أرض ضيقة ليتحول شمالاً، ثم خلفاً، إلى بحيرة أكثر اتساعاً وهو يقول: «إنها بحيرة «برينزينهوف» والقرية تدعى «ايرنوود». إنني أسكن في الناحية الأخرى منها، وهي هادئة جداً في الشتاء، ولكن ثمة رياضة مائية في الصيف.

قالت: «لا أرى مستشفيات قريبة من هنا. ألا يأخذ منك الوصول إليها وقتاً طويلاً.»

أجاب: «إننا ما زلنا على بعد إثني عشر ميلاً من «ليواردن»، حيث عندي أسرّة لمرضى، و«غرينجن» تبعد أقل من ثلاثين ميلاً، حيث عندي أسرّة لمرضى هناك أيضاً، وأنا أستطيع الوصول إلى هناك، بواسطة الأوتوستراد، بسهولة. إن امستردام على بعد مئة ميل كما أن الحدود البلجيكية على بعد ستين ميلاً أو نحو ذلك.

سألته: «هل تسافر كثيراً إلى الخارج إلى جانب انكلترا؟»

www.elromancia.com

أجاب: «غالباً.»

كانت السيارة تجتاز القرية بهما ببطء... وكانت عبارة عن مجموعة صغيرة من المنازل وكنيسة وحانوت، ثم طريق ضيق مرصوف بالقرميد يحده الماء من أحد جانبيه، وحائط من القرميد في الجانب الآخر تتوسطه بوابات حديدية ضخمة. وكانت البوابات مفتوحة، ودخلا في منعطف محاط بالأدغال الكثيفة والأشجار العارية، حيث كان المنزل يقوم في نهايته. وعندما وقعت أنظار صوفي عليه أمسكت أنفاسها اعجاباً بمنظره. لم تكن تتوقع ما رأت عيناها. كان المنزل مهيباً رائعاً مبنياً من القرميد والحجر الرملي بسقف مغطى بالقرميد. وكانت المداخن كلها مغطاة بالقرميد هي أيضاً وكذلك الباب الضخم. وكانت النوافذ مستطيلة ضيقة ومدهونة، وإلى جانب المنزل كان يوجد ما بدا لها خندق ماء.

توقف البروفسور أمام الباب وفتح لها الباب آخذاً بذراعها، قائلاً لها بحنان: «إن المنزل مريح تماماً في الداخل.»

تطلعت اليه صوفي قائلة: «لم أظنه بمثل هذا الجمال الرائع، وإنني بغاية الشوق إلى الدخول. لا أستطيع الانتظار، ولكنني أسمع نباح كلب.»

ابتسم وهو يرى الإثارة في وجهها وقال: «هيا، أدخلي وتعرفي إلى «مات».

الفصل الرابع

صعد «ريجيك» وصوفي الدرج معاً إلى الباب الأمامي الذي فتح حال وصولهما ليظهر منه كلب ضخم وحشي الملامح أخذ يتواثب باتجاه البروفسور. تراجعت صوفي خطوة إلى الوراء بحذر وقد ارتاعت لضخامته وشكله الذي يبدو كأنه حيوان مفترس.

لكن البروفسور أوقف هجوم الكلب برباطة جأش إذ صاح به بثبات آمراً إياه بالهدوء، ثم قاد صوفي إلى الداخل وهو يقول بلطف: «إنه «مات» الذي سيكون رفيقك وصديقك المخلص والذي سيموت لأجلك إذا استلزم الأمر.»

خلعت صوفي قفازيها وقدمتهما إلى الكلب تداعبه وتهزهما أمام وجهه، فجعل الكلب يتشممه ثم أخذ يلعقه بلسانه الضخم الخشن. وكانت له عينان صغيرتان صفراوان وأسنان ضخمة. ولكن صوفي لم تخف، إذ كانت تدرك أن الحيوانات تحب المداعبة خصوصاً وهي ترى البروفسور يقدم له رأسه ليحاول خدشه، مداعباً.

كان الرجل الذي فتح لهما الباب بخلاف «بيرسي»، تماماً، ذا جسم جبار بانحناءة خفيفة، أشيب الشعر ووجه قد لوحته الشمس. وصافحه البروفسور مربتاً على كتفه، ثم قدمه إلى صوفي قائلاً: هذا «روك» مدبّر المنزل وزوجته «تيسك» تطبخ وتتدبّر شؤون البيت. ها هي قادمة.

صافحت صوفي «روك» ثم زوجته، وكانت امرأة

متوسطة السن تداني صوفي طولاً، ذات وجه مستطيل وشعر أشيب وعينين زرقاوين صافيتين.

هزت المرأة يد صوفي بقوة وهي تقول شيئاً مبتسمة مما جعل صوفي ترجو أن تكون كلمات ترحيب بها.

مشوا في رواق انتهى بهم إلى القاعة. كانت مربعة بيضاء الجدران يواجه فيها بيت السلم الذي كانت تضيئه نافذة مستطيلة قامت في منتصفه حيث ينحرف. وكان السقف عالياً قد تدلت ثريا من نحاس بسيطة الطراز مما جعل صوفي تظنها بالغة القدم. وكانت هناك منضدة جانبية مزخرفة أيضاً وكرسيان كبيران وضعا على جانبيها. كان كل شيء على الطراز الهولندي حتى الأرضية المرصوفة ببلاط أسود وأبيض.

كانت ما تزال تنظر حولها عندما قادتها «تيسك» إلى غرفة المعاطف تحت بيت السلم والتي كانت مجهزة على أحدث طراز. ووجدت أخيراً فرصة تفكر فيها اثناء انشغالها بإصلاح زينتها وشعرها، لتعود إلى القاعة مبادرة البروفسور بقولها: «كان عليك أن تخبرني يا «ريجيك».

نظر إليها مندهشاً وهو يقول: «وما الذي كان عليّ أن أخبرك به؟»

قالت: «ماذا؟ أن عندك مثل هذا المنزل الفخم. لم أتوقع مثل هذا ابداً.»

قال ببساطة: «إنه بيتي، ولكنه، ليس بفخم. ربما كان ذلك من حيث اتساعه، ولكنني أشغل جميع الغرف، ليس في نفس الوقت طبعاً، ولكنني أعيش هنا يا صوفي.

هيا نتناول الآن القهوة ثم نتحدث عن كل ذلك في ما بعد.»

قادها من باب مزدوج، إلى داخل غرفة ذات نوافذ تشرف على خلفية البيت. وكان مناراً بواسطة مصابيح في السقف ومؤثثاً بأرائك وكراسي مريحة مصفوفة حول مدفأة كانت النار تشتعل فيها. وكانت اللوحات تزّين الجدران، وأكثرها تمثل أشخاصاً. وهناك أيضاً خزانة إلى الجدار، قد رصت فيها الفضيات وأواني البورسلين كما أن ساعة حائط جميلة كانت معلقة فوق المدفأة كما تناثرت في أرجاء الغرفة مناضد صغيرة قامت عليها فوانيس أنيقة.

جاء «مات» يستقبلهما حين اتجها نحو المدفأة، وعندما جلسا متواجهين، تمدد هو بينهما متنفساً بغبطة، وقد فتح عيناً واحدة يرمق بها صينية القهوة والبسكويت بجانبها.

تناولا القهوة بصمت لم يكن يتخلله سوى «قرقشة» قطع البسكويت التي كان البروفسور يقدمها إلى «مات».

وقالت صوفي: «لا بد أنه كان يفتقدك.»

أجاب: «نعم مع أنه يصحبني إلى «ليوادرن» و«غرونينغن». وسيكون مسروراً لمرافقتك حين أكون بعيداً.»

قالت: «ولكن، هل عليك أن تذهب بعيداً؟»

دفعه الفزع الذي بدا على وجهها إلى أن يسارع بالقول: «كلا، كلا.. إنني أعني عندما نتزوج» ووضع كوب القهوة من يده وهو يقول: «سنبقى الأسبوع كله معاً يا صوفي.»

تابع وهو يرى نظرة الشك في عينيها: «سيعود والداي إلى هنا لقضاء الأسبوع معنا. إن لهما اصدقاء كثيرين في

هذه الناحية مما يجعلهما يخرجان يومياً.» وابتسم فجأة قائلاً: «أرأيت مبلغ حرصي على اللياقة. قد لا يكون هذا مهماً في هذا العصر، ولكننا، في «فرايسلند» شديدو الحرص على اللياقات والآداب الاجتماعية.»

نظرت إليه صوفي وقد توهجت وجنتاها قليلاً وقالت: «وأنا أيضاً حريصة على اللياقة والآداب الاجتماعية.»

قال: «هذا يقوّي حجتي في اننا متلائمان تماماً.»

نهض واقفاً، فوقف «مات» معه، وهو يقول: «أتحبين أن تري المنزل؟»

اجتازا القاعة «ومات» بينهما، ثم فتح البروفسور باباً في الجهة المقابلة قائلاً: «هذه غرفة الطعام.» ولكن، عندما أكون وحدي، استعمل غرفة صغيرة في مؤخرة المنزل ولقد طلبت من «روك» أن يضع لنا الغداء هناك.»

كانت غرفة رائعة وتخيلت حفلة عشاء تقام حول المائدة المربعة، وقد صفت فوقها أواني البلور والفضة الخالصة بينما الأنوار المثبتة على الجدران ترسل أضواءها على الضيوف. وكان على امتداد أحد الجدران رف خشبي قامت عليه الأواني المزخرفة علقت فوقها اللوحات الزيتية. أما الباب الثاني فكان يفتح على غرفة أصغر ومنها إلى غرفة قامت في مؤخرة المنزل لها أبواب تقود إلى شرفة تقود درجاتها إلى حديقة حانئة انتشرت فيها احواض الزهور. كانت غرفة جميلة مؤثثة بمقاعد مريحة وطاولة مستديرة. وفي احدى الزوايا قام جهاز تلفزة ورفوف كتب ومنضدة صغيرة جميلة للكتابة في زاوية أخرى. وكان في الغرفة مدفأة تتوهج فيها النار.

قال البروفسور: «هذه إحدى الغرف المفضلة عندي وسنتناول الغداء فيها. نحن الاثنان فقط.»

فتح باباً إلى جانب النوافذ قائلاً: «وهذه غرفة المكتبة» كانت غرفة رائعة تحوي مكتباً كبيراً في كل زاوية منها، وقد صفت مقاعد جلدية حول طاولات صغيرة، ورفوف الكتب.

قال: «هناك غرفة أخرى.» وقادها من باب إلى القاعة مرة أخرى، وفتح باباً ملاصقاً لبيت السلم، وهو يقول: «إنها غرفة المطالعة.»

كانت الغرفة موثثة ببساطة شديدة قام فيها مكتب مزدوج، وكان خلفه مقعد جلدي ضخم يواجهه كرسيان صغيران ثم رفوف للكتب. كان هناك أيضاً جهاز كمبيوتر وآلة كاتبة كهربائية، كلاهما فوق منضدة أصغر تحت نافذتين مستطيلتين.

قال: «عندي سكرتيرة تأتي ثلاث أو أربع مرات أسبوعياً لتهتم برسائلي.» ونقر بأصبعه فوق كومة من الرسائل وهو يقول: «فلنصعد إلى فوق.»

كان الدرج مصنوعاً من خشب البلوط، مع حاجز حديدي، يتفرع في منتصفه نحو قاعة كبيرة في الطابق الأعلى. وكان الهدوء يعم المكان. وغاصت خطواتهما في السجادة الوثيرة وهو يقودها إلى مقدمة المنزل. كان هناك بابان مزدوجان فتح احدهما لينفذا إلى غرفة رائعة الجمال. السرير الضخم والأثاث، كانت جميعها من الخشب المنجد بالساتان، وكان غطاء السرير والستائر مصنوعة من قماش مشجر من لونين عاجي ووردي. واستدارت صوفي ببطء

www.elromancia.com

تتملّى من النظر إليه، قائلة: «ما أجملها من غرفة. إنك تملك بيتاً جميلاً، يا ريجيك.» وهو كبير اكثر من اللازم.

قال: «إنني مسرور لأنه أعجبك. تعالي من هنا الآن.» وفتح باباً يقود إلى حمام ومنه إلى غرفة نوم أصغر، ثم إلى الممر.

كان هنالك ممرات تقود إلى خلف المنزل. وقادها في كل واحد منها بدوره، يفتح لها أبواباً كانت تطل منها على كل غرفة قبل أن تصعد درجات صغيرة إلى الطابق الأعلى.

كانت الغرف هنا أصغر، ولكن مفروشة بنفس النسبة من الذوق والجمال. وكان في نهاية أحد الممرات غرفة فسيحة حسنة التهوية ذات حواجز على النوافذ كما أنه كان هناك حاجز عالٍ أمام المدفأة. وكان تحت النوافذ حصان خشبي هزاز وبيت لدمية على أحد الرفوف المتعددة. وتساءلت صوفي عما يمكن أن يكون من الدمى في داخل الخزانة.

قالت صوفي: «لا بد أن مربيتك كانت مشغولة جداً بكم أنت وأخوتك...»

قال: «لم تكن تحب العبث، ولكننا أحببناها جميعاً. وستقابلينها في ما بعد. إن لها غرفها الخاصة في منزل والديّ، تحوي المربيات الليليات وغرفة خاصة لها ومطبخ صغير. لقد كنا نمضي قسماً كبيراً من الوقت مع والدينا. وقد كانت لنا جميعاً طفولة سعيدة جداً.»

عاد الآن إلى الممر مع «مات» يتنفسون بابتهاج عندما سمعا صوت جرس الغداء يقرع في الطابق الأسفل.

قال البروفسور: «حان وقت الغداء. ما زال هناك طابق لم تشاهديه بعد ولكن، سندعه إلى وقت آخر.»

لم يتحدثا كثيراً أثناء تناول الطعام. ورفض البروفسور السماح لصوفي بالقاء أسئلة شخصية. ولما كانت جائعة، وكان الطعام لذيذاً جداً، فإنها لم تهتم بذلك كثيراً.

شعرت، وهي تسكب القهوة لهما، أنها في حلم، وأنها في أية لحظة يمكن أن تستيقظ لتجد نفسها في قسم الطوارىء في مستشفى «القديس آغنس.»

ركبا السيارة مع «مات» الذي أقعى على المقعد الخلفي دافعاً برأسه الكبير بينهما من وقت لآخر مطلقاً تنهدّة عاصفة.

سألت صوفي: «هل هو يحب القطط؟»

أجاب: «لقد أخبرني الكثيرون مرات عديدة بأنه من الممكن أن يقتل أية قطة يراها. ولكن الواقع هو أنه لا يبالي بها إطلاقاً. وفي الحقيقة يعيش منسجماً مع «ميب» قطة «تيسك» وجرائها. أما القطة «ميب» نفسها فهي لا تهتم به مقدار ذرة.

كانا على «الأوتوستراد» منطلقين نحو «ليواردن»، بينما كانت صوفي تحدق من نافذة السيارة وهي كتلة من الأعصاب.

دون أن ينظر إليها، ابتدأ البروفسور حديثاً عن «مات» لم يكن يحتاج إلى أجوبة، والذي استمر إلى أن أبطأ بالسيارة. وعندما دخل بلدة «ليواردن» كان الوقت عصراً وقد أظلم الجو قليلاً فأنيرت الحوانيت التي جهزت لأجل عيد الميلاد. وكانت الأرصفة مزدحمة بالمتسوقين، ولكنها لم تجد الفرصة للتفرج على كل ذلك إذ أن «ريجيك» تحول مبتعداً عن الشوارع الرئيسية ليجتاز طريقاً ضيقة تحدها بيوت قديمة

www.elromancia.com

مستطيلة الشكل. ومنها إلى شارع مرصوف إلى جانب قناة يواجهها صف من البيوت الكبيرة.

قال: «ها قد وصلنا.»

كان الرجل الذي فتح لهما الباب، متقدماً قليلاً في السن، طويلاً نحيفاً منتصب القامة. فحيا البروفسور باحترام بالغ قائلاً: «يسرني رؤيتك يا سيدي.» وصافحه «ريجيك» وهو يربت على كتفه قائلاً: «كيف حالك يا «كلاركي»؟ والتفت إلى صوفي قائلاً: «هو ذا «كلارك» الذي يدير منزل والديّ هذا منذ وقت لا أتذكره. وهو الذي علمني السباحة وصيد السمك وركوب الدراجة النارية. لقد علمنا جميعاً هذا في الواقع.»

مدت صوفي يدها إليه بينما تابع هو يقدمها إليه: «الآنسة صوفي بلونت، ضيفتي لمدة أسبوع، هل ثمة أحد في المنزل؟»

ابتسم كلارك: «موجودون جميعهم يا سيدي.» ومنح صوفي نظرة أبوية وهو يتابع: «هل آخذ معطف الآنسة بلونت؟» وهل هي تود أن تصلح من شعرها ومظهرها؟»

التفت البروفسور يمعن فيها النظر قائلاً: «الوجه لم يتغيّر أبداً كما أن الشعر تام التصفيف.» وأخذ بذراعها مجتازاً بها القاعة المربعة بينما كان «كلاركي» يتقدمهما قليلاً ليفتح الباب.

كانت القاعة فسيحة عالية السقف وذات نوافذ كبيرة ممتدة من السقف حتى الأرض. وكانت أيضاً مزدحمة بالأشخاص والأطفال والكلاب.

حال دخولهم خفتت الأصوات ثم توقفت، لتهب عاصفة من الهياج مصحوبة بصرخات: «ريجيك»... ثم أحاديث

مختلطة، لم تستطع صوفي فهمها. ولكن، في اللحظة التالية، وجدت نفسها وجهاً لوجه مع والديّ البروفسور، بينما ضغط «ريجيك» بذراعه على ذراعها مشجعاً.

بدت السيدة «ميفرو فان تاك تير ويجسما» للوهلة الأولى، سيدة جادة وقور، وفي الحقيقة كان ذلك بسبب مظهرها إذ كانت فارعة القوام مشدودة الجسم. ولكنها، بعد ذلك، بدت على طبيعتها البسيطة. كانت عيناها الزرقاوان تنطقان بنفس اللطف الذي تنطق به عينا صوفي، وكانت ابتسامتها حلوة يشرق بها وجهها الذي لم تفقده جماله السنون. وكانت أنيقة اللباس، وقد جمعت شعرها على قمة رأسها. وكانت ملابسها المؤلفة من تنورة «وكنزة» تشابه كثيراً تلك التي ترتديها عادة والدة صوفي. وكان غريباً أن تستطيع مثل هذه الأشياء الصغيرة، بعث الراحة والاطمئنان في نفس صوفي.

أما والد البروفسور فكان ما يزال رجلاً رائع الوسامة بعينيه القاتمتين وشعره الأبيض. قبّل وجنتي صوفي ورحب بها بحرارة لم تتوقعها وذلك قبل أن يأخذ ريجيك بيدها ليطوف بها أنحاء الغرفة. لقد كانت هناك شقيقاته الخمس وكذلك أزواجهن وأطفالهن، هذا إلى عدة كلاب متنوعة الأشكال. كذلك كان هنالك شقيقاه. وقد صافحت الجميع وابتسمت لهم ونسيت كل اسمائهم حالما سمعتها. ولكن ذلك لم يكن ذا أهمية وسط جو الصداقة الذي ساد المكان. أما بالنسبة إلى الأولاد، فقد أحاطوا بخالهم يقدمون له أيديهم الصغيرة يصافحونه ووجناتهم ليقبلها.

اما بالنسبة إلى وجود صوفي فقد سلموا بوجودها

www.elromancia.com

كحقيقة واقعة وكذلك فعلت الكلاب التي كان اثنان منها من نوع (لابرادور) وواحد من نوع (جاك راسل) وآخر ذا شاربين وعينين رقيقتين كان اسمه، كما قيل لها، (فرايدي) ولما سألت عن سبب تسميته بذلك أجابها أحد الأولاد بالانكليزية: «لأن والدي كان قد وجد هذا الكلب يوم الجمعة.» وقال لها: «عندنا أيضاً قطط.. هل عندك أنت قطط كذلك؟»

أجابت: «نعم، عندي قطة اسمها «مابيل.»

قال: «هذا حسن. ستحضرينها إذن معك إلى هنا عندما تتزوجين من الخال ريجيك.»

قالت: «حسناً، سأفعل. إنك تتكلم اللغة الانكليزية بطلاقة.»

قال: «ذلك لأن عندنا مربية انكليزية. وعندما يصبح عندكما أولاد، أنت والخال ريجيك، سيكون عندكما مربية انكليزية.»

كان زمام الحديث قد بدأ يفلت من يدها، فأدارت وجهها نحو «ريجيك» والتقت نظراتهما، وسرعان ما ترك ما كان يدور بينه وبين أبيه من حديث ونهض متجهاً إليها قائلاً: «هل يتمرن «تيمون» معك على اللغة الانكليزية؟ إنه أكبر أولاد «تييل» وهي التي... ترتدي الثوب الأخضر. عندها حتى الآن، ثلاثة أولاد، ولكنها تتمنى أن تنجب بنتاً، تعالي وتحدثي مع شقيقي «لوورث» إنه في السنة الأخيرة في الجامعة.»

كان هذا نسخة صغرى عن «ريجيك» ويبدو شديد الرغبة في اظهار صداقته للطواف بها في أنحاء الغرفة مرة أخرى

مكرراً على مسمعها الاسماء مرة ثانية. وفي الوقت الذي كانوا، وقد استقر بهم المجلس، يشربون الشاي ويأكلون البسكويت، استطاعت صوفي أن تختار من المجتمعين من أعجبها. وكانت والدة «ريجيك» جالسة بقربها مستغرقة في حديث يتناول شؤون الأسرة قائلة: «إننا أسرة كبيرة. وأنا متأكدة من أن «ريجيك» لا شك قد نسي أن يخبرك عنا فهو دوماً مستغرق في عمله.» وابتسمت لصوفي وهي تتابع: «أظن أنه سيمكنك تغيير ذلك بالنسبة إليه.»

تطلعت صوفي إلى «ريجيك» يتحدث إلى شقيقه وتساءلت في ما بينها وبين نفسها عما اذا كان في استطاعتها القيام بذلك. وبدا لها الأمر مستحيلاً.

نهضا يتهيئان للخروج، وذهب والدا ريجيك لاحضار المعاطف والقبعات ونودي «مات» من الحديقة حيث كان يلعب مع الكلاب الأخرى. وابتدأت صوفي تطوف على الجميع مودعة. ولم تكن تعرف أن الهولنديين يقبّل بعضهم بعضاً ثلاث مرات. وعندما انتهت من مهمة التوديع، شعرت بالدوار. يجب أن تتذكر سؤال «ريجيك» عن ذلك فهو لم يقبلها قط ثلاث مرات. في الواقع ان قبلاته كانت قليلة ومتفرقة ومختصرة.

ركب الأولاد الأكبر سناً في المقعد الخلفي من سيارة «ريجيك»، ووجدت صوفي نفسها تجلس بجانب «ريجيك» وهي تحدث نفسها باستياء أنها لم تكد تراه طيلة الأمسية.

بدا عليه عدم الانتباه إلى برودها، ومضى يتحدث عن اسرته حديثاً غير مترابط إلى أن وصلوا إلى منزله، منزل يوفر لوالديه الراحة إلى أن سلمهما إلى «روك»، ثم قادها

إلى غرفة الجلوس الصغيرة في مؤخرة المنزل، ليقول لها: «امامنا نصف ساعة قبل أن نحتاج إلى تغيير ملابسنا. دعينا نتناول بعض الشراب بينما تحدثينني عن رأيك في أسرتي.»

قالت صوفي دون تردد: «إنهم في غاية اللطف. ولكنني لم أعرفهم جيداً بعد.»

قال ببشاشة: «أمامك الوقت الكافي لذلك. هل تريدين كأساً من شراب التوت؟ سنجتمع في غرفة الجلوس قبل العشاء. ولكنني أظن انك تستحقين شراباً. إن الأسرة قد أحبتك.»

قالت: «أفرض أنهم لم يحبوني؟»

هز كتفيه الضخمتين وهو يقول: «لا يجعل ذلك فرقاً بالنسبة لي ما دمت أنا راضياً.» واستدار يسكب لها الشراب عندما قالت له فجأة: «هل سبق ووقعت في الحب يا ريجيك؟»

فوضع الشراب على الطاولة إلى جانبها ثم جلس مواجهاً لها وابتدأ يقول: «نعم، عدة مرات، هذا إذا كنت تعنين ذلك الحب السريع الذي نحن جميعاً معرضون له من وقت لآخر. ولكن، إذا كنت تخافين من أن أقع مستقبلاً في شيء من هذا النوع، فإنني أطمئنك إلى أنني كبرت عن مثل هذه الأمور.»

فقالت بتردد: «ولكنك تعتقد بالحب وبالذين يقعون في الحب أليس كذلك؟»

قال: «بالتأكيد إذ ان هؤلاء هم المحظوظون.» وابتسم لها برقة قائلاً: «هل أنت خائفة يا صوفي؟»

احمر وجهها قليلاً لنظرته المتفكهة وقالت: «كلا، كلا. سؤالي فقط كان من باب الفضول. لم أكن أعني التطفل.»

قال: «إنني مسرور لصداقتنا الحميمة التي تسمح لنا بتبادل مثل هذه الأسئلة.»

قالت متلعثمة: «نعم.. حسناً.. إنني كذلك. أظن أنه من الأفضل الصعود لتغيير ملابسي.»

قال: «سأقوم بنزهة قصيرة في الحديقة مع «مات» وسأراك في غرفة الجلوس.»

نهض يفتح لها الباب ويقف على العتبة يرقبها إلى أن صعدت الدرج. وشعرت صوفي بذلك مما سبب لها شيئاً من الارتباك والاحراج.

وارتدت صوفي ثوباً من الحرير الطبيعي أبرز جمالها مما ملأ نفسها رضى وهي تنظر إلى نفسها في المرآة، لم تكن، في الواقع، تعرف ما الذي يجب أن ترتديه، ولكنها شعرت بأن والدة «ريجيك» هي من نوع السيدات المتعلقات بما كان متعارفاً عليه في شبابها. وسرت لحسن اختيارها هذا الثوب حين دخلت غرفة الجلوس إذ أن والدة ريجيك السيدة ميفرو فان تاك تير ويجسما كانت ترتدي ثوباً من الكريب الأسود أنيق التفصيل وقد أحاطت عنقها بعقد من اللآلىء يناسبه. أما الرجال فكانوا في بدلات رمادية قاتمة. وقد عقدوا ربطات عنق ثمنية.

أطلقت صوفي آهة وقد أحست بالراحة وهي تدرك أنها ارتدت بالضبط ما كان ينبغي لها أن ترتدي، بينما لاح على شفتي «ريجيك» طيف ابتسامة وقد انتبه إلى آهتها تلك.

ومضت الأمسية بصفاء وكان العشاء ممتازاً. وكان مؤلفاً من الفطر بالثوم، والبط المشوي مع صلصة البرتقال. سألت صوفي نفسها عما إذا كان هذا الطعام نموذجاً لما

سيكون عليه طعام بقية الأسبوع، فعليها، إذن، أن تقوم ببعض التمارين الرياضية في غرفتها أو أن تقوم بمسيرة طويلة كل صباح.

ولكن، لم يكن لها أن تقلق بالنسبة للتمارين، إذ ان ريجيك اصطحبها في الصباح التالي للتمشي، وأحست بالراحة وهي ترتدي الثياب المناسبة لذلك من حذاء مريح والملابس الصوفية تحت السترة «الجاكوار» حيث ان الجو كان بارداً والرياح تهب منذرة بسقوط الثلج. وتمشيا حول الحقول ثم نزلا نحو القرية يتبعهما «مات» وكان يحدثها، أثناء سيرهما، عن أسرته وحياته.

قال: «إنني، غالباً، غائب وأنت تعلمين ذلك. ولكنني أحضر إلى المنزل كلما استطعت. طبعاً، إذا كنت تحبين، يمكنك مرافقتي إلى انكلترا كلما ذهبت لتزوري والديك بينما أنا في عملي. أما إذا فضلت البقاء فلن تشعري بالوحدة فإن أسرتي ستتلافى ذلك كما أنكم ستكونون أصدقاء.»

بدا لها من جرّاء كلامه، أنه لا يريدها معه في اسفاره بعيداً عن موطنه. ولكنها فكرت في أن هذا شيء طبيعي ما دام ليس ثمة حب يجمعهما. ذلك أن زواجهما قائم على تلاؤم الأمزجة والأخلاق الحسنة دون مشاعر قوية، واعتبرت أن ذلك هو حقاً ما تريد، وقد سبق وأخبرته بذلك بنفسها، وهو قد اعتمد كلمتها هذه ولا شك أنه مكتف بأن وجد امرأة لها مواصفات الزوجة التي يريدها.

استمرا في السير إلى أن أدركهما وقت الغداء، فتناولا الوجبة معاً حيث أن والديه كانا قد خرجا لزيارة بعض

الأصدقاء ولن يعودا قبل المساء. وعندما انتهيا سألها «ريجيك» ما إذا كانت تود مرافقته إلى غرفة المطالعة ليقرأ بعض حالات مرضية مطلوبة منه. ودهشت لذلك، وهناك جلست في كرسي من الجلد قرب النافذة إلى جانب كومة من المجلات بينما رقد «مات» تحت المكتب عند أقدام سيده.

كانت الغرفة دافئة وهادئة جداً بينما حرصت هي على الصمت، حتى عندما رأت من النافذة، الثلوج تتساقط. وكوفئت على ذلك إذ أغلق البروفسور ملف الأوراق واستند بظهره إلى الخلف وهو يقول: «كم أنت هادئة يا صوفي. إنني متأكد من أنك متلهفة إلى إخباري بأن الثلج يتساقط.»

قالت: «نعم، بالضبط، ولكنني أعلم كم هو مزعج أن يحدثك إنسان بينما أنت تكتب أو تدرس شيئاً ما.»

قال باسماً: «إننا متلائمان إلى درجة مثالية. تعالي نتناول الشاي لأنك تستحقين إبريق شاي كاملاً لنفسك.»

كان والداه قد عادا، فتناولا طعام العشاء معاً وأمضيا بقية المساء في غرفة الجلوس. ولم يكن لدى والدة «ريجيك» ما تحدث به صوفي سوى سؤالها، بكل رقة، عن أسرتها وموطنها. وأجابتها صوفي عن كل شيء. فقد أدركت أنها لو كانت هي نفسها أماً، وكان لها ابن بالغ يعرف جيداً كيف يعتني بنفسه وبمستقبله، فهي متأكدة من أنها كانت ستطلب معرفة كل شيء، بقدر الإمكان، عن كنتها في المستقبل.

تبعها «ريجيك» إلى القاعة في الوقت الذي انسحب فيه والده إلى غرفة النوم. وسألها: «هل تحبين الخروج، مرة أخرى لنتمشى، في الصباح؟ عليّ أن أذهب إلى «ليواردن»

www.elromancia.com

بعد الغداء وربما أحببت مرافقتي. يمكنك التجوال بين الحوانيت بينما أنا في المستشفى.»

وافقت على الفور. وعندما أوت إلى فراشها أخذت تعدد ما تريد شراءه من الهدايا بينما النعاس يراود أجفانها. وقبل أن تنتهي كانت قد استغرقت في النوم.

في الصباح، سارا مبتعدين عن القرية، يدوران حول البحيرة. وكانت صوفي متدثرة بمعطفها وقد لفت حول رأسها وشاحاً من الكشمير يخص «ريجيك»، وقد داخلها السرور حيث أن الريح كانت هادئة وقد توقف سقوط الثلج. ونظرت إلى الجليد عند قدميها والجو الكئيب، ولكنها شعرت مع هذا، بأنها تحب ذلك، مسلمة بصمت بأن كل هذا حسن ما دامت ستتزوج من «ريجيك». ولكنها ذكرت نفسها بأنها لم تصمم على ذلك بعد على الرغم من ادعاء «ريجيك» بأن زواجهما قد أصبح أمراً مفروغاً منه.

حتى وهي تفكر بهذا الشكل، كانت تدرك في أعماق نفسها بأنها ستتزوج منه، وأنه سيكون زوجاً حسناً، فهو متفهم ورقيق ولا يطلب الكثير. وأكثر من أي شيء آخر، كانت بحاجة إلى الاستقرار والاكتفاء اللذين قدمهما لها. أما الحب، فقد كانت تدرك جيداً أنه لا ينبغي لها. فقد كانت تجربتها الوحيدة في الحب مرة. والأفضل كثيراً هو الاستقرار بزواج ملائم.

اصطحبها في سيارته بعد الظهر إلى «ليواردن»، فأنزلها في وسط مركز التسوق إلى جانب «واي هاوس» الأثري وهو يخبرها بأنه سيكون هنا بانتظارها الساعة الرابعة. ثم تابع طريقه إلى المستشفى.

أخذت صوفي تتفرج على واجهات المخازن، واشترت بعض الهدايا. علبة سيكار لوالدها. و«اناء زجاجياً» أزرق لوالدتها ولوحاً سميكاً من الشكولاتة «لتوم». وبعد تفتيش طويل اشترت كتاباً عن «فرايسلند» «لجورج» الذي كان مولعاً بالكتب ثم طاقم أقلام «لبول» وكان يمكنها شراء كل هذا من انكلترا ولكنها كانت موضوعة في علب عليها ذكر هولندا ولغتها وهذا يجعل الأمور مختلفة.

اقتربت الساعة من الرابعة لتعود إلى حيث واعدها «ريجيك» لتجده بانتظارها فأخذ منها اللفائف ووضعها في السيارة، ثم استقر إلى جانبها وسألها: «هل وجدت التسوّق سهلاً؟»

أجابت: «نعم.. أحياناً كنت أرتبك، إنما كل شخص تقريباً، يفهم الانكليزية. وأنت هل كنت مشغولاً جداً؟»

قال: «كانت حالة غير عادية.» وأخذ يحدثها عن تلك الحالة المرضية، وكانت هي تستمع بذكاء وتفهم، مما جعله يقول: «ما أجمل أن اتحدث بالأمور المهنية مع شخص يفهم هذه الأمور ويهتم بها.»

قد أفعم قوله هذا مشاعر صوفي بالسرور.

في اليوم التالي، اصطحبها في السيارة وجال بها في انحاء «فرايسلند» ابتدآ أولاً بالجهة الشمالية إلى «دوكهام» حيث تناولا القهوة في فندق حسن قديم الطراز قائم قرب القناة. ومن هناك إلى الساحل حيث كانت «وادنزي» كئيبة باردة تمتد مناظرها على مدى الجزر، وقد بدت موحشة خلف البحر الأغبر المكفهر.

سألته صوفي: «هل يسكن أناس هناك؟»

www.elromancia.com

أجاب: «بالطبع وفي الصيف يختلطون بالذين يأتون لقضاء الإجازات. إنهم مسالمون جداً خارج الموسم. وهناك طيور نادرة وشطآن رائعة. سنذهب إلى هناك عند ابتداء الربيع وسترين بنفسك.»

تابع القيادة جنوباً مرة أخرى مجتازين «ليواردن» وتوقفا في «فرينكر» حيث تناولا غداء مؤلفاً من حساء البازلا الكثيف الغني بقطع السجق واللحم. تبعها السمك المدخن على الخبز المحمص.

جلسا يتناولان القهوة، بعد ذلك، إلى أن جعلته الشمس الباهتة يصمم على الذهاب إلى الساحل باتجاه «هيند يلوني» و«ستافيرتي» قبل العودة إلى البيت. حتى في أيام الشتاء، كانت ساحرة، وتمشيا على طول كورنيش البحر فترة قبل أن يتابعا انطلاقهما إلى «ستافيرتي»، وقد خاب أملها كثيراً بعد ذلك إذ تحول إلى الداخل نحو «سلوتن». إن سحر القرن السادس عشر الذي يتجلى من تلك المدينة الصغيرة، لا يمكن أن يستبدل بتلك المدينة الخالية من الجاذبية.

حين وصلا عائدين إلى البيت، كان الظلام قد حل، وتلألأت النوافذ بالأنوار. وخرج البروفسور من السيارة ليفتح الباب لصوفي بينما وقف «روك» عند الباب يفسح المجال «لمات» ليندفع نحو سيده. أما هي فقد وقفت بهدوء تنظر إلى ما حولها. وبدا المنزل في الظلمة المتكاثفة بسرعة، رائع الجمال. وأمامه في الباحة، كان يتألق الجليد، وكان يصدر عن الأشجار المحيطة بها أصوات خفيفة وتنهدات. وتساءلت منذ متى تقف هذه الأشجار هناك

تحرس المنزل. وشعرت فجأة بشيء من القلق بعد يومها الحافل، المفعم بالسرور ولو لم يكن «روك» واقفاً بالباب ينتظرهما لكاشفت «ريجيك» بمشاعرها تلك. ولكنها، ما لبثت أن دخلت المنزل لتناول معطفها إلى «ريجيك» ثم تصعد إلى غرفتها تصلح من شعرها وزينتها. كان وجهها وعيناها يتألقان بفعل الهواء البارد، ولكنه لم يعكس مشاعرها. ونزلت إلى غرفة الجلوس حيث كان البروفسور بانتظارها إلى جانب صينية الشاي التي كانت تتألق بالأكواب الصينية والفضية اللامعة.

مع أنها كانت بأشد الشوق إلى كوب من الشاي، فقد فضلت أن تحدث «ريجيك» أولاً بما كان ينبغي أن تقوله.

قالت: «ريجيك.»

نظر إليها من فوق الرسائل التي كانت في يده، وراح يتأملها ثم سأل: «هل ثمة ما يقلقك يا صوفي؟»

أجابت: «نعم. كيف علمت بذلك؟»

قال بهدوء: «ولكننا صديقان حميمان. ألسنا كذلك يا عزيزتي؟»

أجابت: «نعم.. أوه، نعم بالطبع. إنني قلقة قليلاً. ترى أنني لم أكن أدري كل هذا.» وأشارت بيدها إلى كل دلائل الفخامة والرفاهة الباديتين حولها وهي تتابع قائلة: «إنني كنت أعلم أنك رجل ناجح جداً، وأنك لا بد تملك منزلاً جميلاً في هولندا، وأن حالتك المادية لا بأس بها. ولكن، ما أراه هنا يختلف كثيراً. هل أنت غني جداً؟»

تقلّص فمه الصارم وهو يقول: «أخشى أنني كذلك فعلاً. ولكن حجتي هي أن قسماً كبيراً من ثروتي هو من وراء

تجارة شريفة دون شك آل إلى التاجر شريكي، من وراء أسلافه.»

شعرت بالسرور لاتضاح بعض الأمور أمامها وقالت: «نعم، لقد فهمت. طبعاً أنت لا تظن أنني سأتزوج منك لأجل ثرائك، يا «ريجيك.»

قال برقة: «كلا يا صوفي. أنا لا أظن ذلك.»

قالت: «لأنني لست كذلك. من الجميل أن يملك المرء مالاً، ولكن المال ليس هو كل شيء. أليس كذلك. ولو أنني قلت إنني سأتزوج منك فإنه لا يهمني أن تكون فقيراً معدماً.»

نهض واقفاً مجتازاً القاعة إلى حيث كانت ما تزال واقفة وأخذ يديها الإثنتين بين يديه وحنى رأسه وقبلها. كانت قبلة رقيقة تماثل رقة صوته من قبل. وقد طمأنتها قبلته هذه فقالت: «حسناً.. هذا جميل أليس كذلك؟»

قال: «تماماً. والآن تعالي واسكبي الشاي وسأحدثك عما سأفعله غداً.»

كان سيسافر غداً إلى بروكسل لفحص رجل عالي الشأن يعاني من ورم مشتبه به في الدماغ. وقال: «سأغيب طيلة النهار. ويريد أبي وأمي أن ترافقيهما لزيارة جدتي، وهي تعيش في «هيرنغين» وذلك لتناول الغداء والشاي. وآمل أن أكون معكم على العشاء.»

قالت: «ولكن يجب عليك أن تسوق السيارة كل تلك المسافة ذهاباً وإياباً.» وبدا في لهجتها قلق الزوجات، فابتسم قائلاً: «كلا، سأذهب بالطائرة. عندي طائرة صغيرة استعملها من وقت لآخر.» فقالت بدهشة: «هل يمكنك أيضاً قيادة الطائرة؟»

أجاب: «إنها توفر الوقت. هل يمكنك قيادة سيارة يا صوفي؟»

أجابت: «نعم. لقد اعتدت أن آخذ أبي في جولاته. لقد علمني اخوتي القيادة.»

قال: «هذا حسن لأننا في شبه عزلة هنا. ولكن، إذا كان عندك سيارة فسيمكنك الذهاب أنّى ومتى شئت.» وأضاف إزاء نظرتها القلقة: «أعني عندما لا أكون في المنزل.»

في فراشها، تلك الليلة، مستعرضة أحداث النهار، تأكدت من أنها تريد الزواج من «ريجيك». لقد كان تصرفه، كل الوقت، يوحي بأنها موافقة على ذلك. كانت تعلم أيضاً أنه سيبقى منتظراً منها الجواب عندما يعودان إلى انكلترا. لقد حزمت أمرها الآن على القبول، ولا حاجة لها، بعد ذلك، للبقاء مستيقظة. واستغرقت في نوم عميق خالٍ من الأحلام، منعها من سماع صوت محرك الطائرة حين استقلها «ريجيك» متجهاً إلى بروكسل.

عندما نزلت لتناول طعام الفطور، أحست بالخيبة إذ وجدته قد رحل، ولكن وجود والديه إلى المائدة منعها من أن تطيل التفكير في هذا الأمر، وحيث انها أخذت علماً بأن تكون جاهزة عند الساعة العاشرة للخروج مع والديّ «ريجيك.»

أخذت «مات» للتجوال في الحقول، ثم لتعود فتنضم إليهما في القاعة.

قاد بهما السيارة والد «ريجيك» مبتدئاً بكل الهدوء والأناة اللتين يقود بها رجل طاعن في السن، وكانت صوفي تتوقع الذهاب إلى «هيرنغين» بسرعة معتدلة، ولكن

www.elromancia.com

الطبيب الطاعن في السن أخذ يسرع بهما أحياناً حتى في الطرق الضيقة. وبما أن زوجته كانت تجلس في المقعد الخلفي مع صوفي، فقد بدت له سرعته هذه طبيعية تماماً. ولم تقل صوفي شيئاً، ولكنها بقيت تراقب المنعطفات الريفية وهي تبادل مرافقيها حديثهما الودود.

بدت «هيرنغين» بلدة جميلة لعيني صوفي حين أبطأ السائق القيادة ليدخل البلدة وليتخذ طريقاً ضيقاً ينتهي ببحيرة صغيرة.

كانت السيدة «ميفرو» الجدة في منزل مربع كبير نسبياً قريب من الماء، إلى جانب عدد من المساكن الصغيرة قامت على امتداد الطريق. وكان يشرف على المنزل عدد من الخدم. وكانت نادراً ما تخرج من منزلها، ولكنها بقيت تلحظ شؤون أسرتها الكبيرة بعين يقظى.. كانت عجوزاً طويلة القامة شديدة النحافة ذات أنف أقنى وعينين زرقاوين لامعتين. قد ارتدت ثوباً أسود ولفت حول عنقها سلاسل ذهبية عديدة. واستقبلتهم في غرفة مشرفة على البحيرة ذات أثاث ضخم قديم الطراز، وقد غطت المناضد الصغيرة صور وضعت في أطر فضية. وقامت تحف فنية رائعة الجمال على رفوف بامتداد الجدران.

قدمت العجوز خدها لابنها وكنتها، ثم أخذت تمعن النظر في صوفي لتقول أخيراً: «إذن، فأنت الفتاة التي صمم «ريجيك» على الزواج منها أخيراً. إنك على الأقل، تناسبينه طولاً. وجميلة أيضاً. إنك، دون شك، ستكونين له زوجة طيبة.»

تمتمت صوفي وهي تجيبها بكلمات تناسب المقام. لم

يكن ثمة معنى لأن تعترض قائلة إنها لم تصمم حقيقة على الزواج من «ريجيك» ولن تقوم بذلك إلا بعد أن يسألها إن كانت قد قررت ذلك أم لا.

قيل لها بأن تجلس بجانب السيدة العجوز حيث بقيت ساعة كاملة تجيب عن أسئلتها بالأجوبة المناسبة.

كان الغداء متنوعاً أخذ وقتاً طويلاً. اعتذرت مضيفتهم بعدها منسحبة إلى غرفتها لأخذ غفوة قصيرة. ودعت والدة «ريجيك» صوفي إلى مصاحبتها للتجوال في انحاء المنزل. وفي الوقت الذي أنهيا فيه استطلاع الغرف التي كانت الظلمة تغمرها نوعاً ما كان الوقت قد حان للانضمام إلى السيدة العجوز ليتناولوا معها الشاي وقطع البسكويت.

ركبوا السيارة عائدين إلى منزل «ريجيك» وكان والد «ريجيك» مسروراً دون شك لعودته قبل حلول الظلام، ليسوق السيارة بسرعة جعلت شعر رأس صوفي يقف.

كان «ريجيك» قد عاد، فجاء ليستقبلهم مساعداً والدته وصوفي على الترجّل من السيارة بينما كان «مات» يقف في طريق كل واحد منهم. وحين دخلوا جميعاً أخذ «ريجيك» ذراع صوفي وهو يقول: «هل أحببت الجدة؟»

أومأت برأسها مجيبة: «إنها طيبة.»

وقف في منتصف القاعة حتى أصبحا وحدهما ثم قال: «لقد اتصلت بي منذ لحظة لتقول إنك طيبة أيضاً.»

للحظة، توقعت منه صوفي أن يقبلها، ولكنه لم يفعل بل اكتفى بالابتسام.

www.elromancia.com

الفصل الخامس

لم يبق هناك سوى يومين. ونزلت صوفي في الصباح لتناول الفطور وهي تتساءل عما إذا كان لدى ريجيك أية خطة بهذا الشأن.

كانت خطته كما قال هي التمشي نحو القرية لمقابلة مدير المدرسة، ثم التجوال حول الكنيسة ثم، ما دام الجو بارداً وصحواً، متابعة التمشي على ضفاف البحيرة إلى المزرعة التي يملكها. وتابع: «وبعد الظهر، إذا شئت، سنذهب بالسيارة إلى «غروننجن» فنلقي نظرة في أنحائها. فهناك كنيسة رائعة وجامعة.»

في طريقهما إلى القرية، أخبرها أنهما سيعودان إلى منزل والديه في اليوم التالي، فيتناولان الغداء ثم يعودان لتناول عشاء مبكر قبل أن يستقلا السيارة إلى «هوك» ليلحقا بعبارة القناة الليلية.

وافقت صوفي مسرورة وقد سرّت لشرائها الهدايا أثناء ذهابهما إلى «ليواردن» وقال ريجيك: «يمكنك الاتصال بأسرتك إذا شئت، فعلينا أن نعود حوالي التاسعة.»

قالت: «هل تريد البقاء؟ هناك العديد من الغرف وأنا متأكدة من أن أمي تتوقع منك البقاء لتناول الغداء.»

أجاب: «بالنسبة للغداء، فهذا مؤكد، ولكنني مضطر إلى العودة بعد الظهر حيث أن عندي استشارة ثم إجراء عملية في اليوم التالي، ثم الذهاب إلى «ليدز» لمدة يومين.»

قالت صوفي: «ولكنه عيد الميلاد تقريباً؟»

أجاب: «وهو ما سأضطر لقضائه بعيداً عن البيت، ولقد سبق وأخبرتك بذلك.»

قالت: «لقد نسيت. وهكذا، فلن يكون في استطاعتنا رؤية بعضنا لفترة؟» فقال وهو يضع يده تحت ذراعها: «هل يمكنني القدوم لرؤيتك حين أكون في طريقي إلى موطني؟» وابتسم لها متابعاً: «إن الحياة جهاد طويل، أليس كذلك؟»

قالت: «هل تريد أن تعرف في ظرف أربعة أيام...» وتوقفت عن الكلام، فقال ببساطة: «نعم، أرجوك يا صوفي.»

كان مدير المدرسة عملاقاً ذا لحية. وقدمت لهما زوجته القهوة، وكانت شقراء ذات عينين زرقاوين، ثم أخذت صوفي لتريها أصغر أولادها، وكان طفلاً يرقد بهدوء. وكان الثلاثة الآخرون في المدرسة. وسألتها: «هل تحبين الأولاد؟»

أجابت صوفي: «نعم.» واحمر وجهها حين قال زوجها: «بالطبع، فإن ريجيك يريد أسرة.»

بعد الانتهاء من القهوة، ذهبا ناحية الكنيسة التي كانت صرحاً عالياً مستقيماً بجدران بيضاء ونوافذ صغيرة عليها شبكات. ولقد دفن تحت أرضها العديد من أسلاف ريجيك، وأكثر من ذلك في باحة الكنيسة قد عاشت أسرته هناك مئات السنين.

في النهاية، عادا يودعان مدير المدرسة وزوجته، ثم انطلقا يتمشيان في طريق وعرة حول البحيرة. كان المكان هادئاً جداً، فسارا بنشاط، ذراعاً بذراع. وتوقفا برهة

www.elromancia.com

ليشير بيده إلى بعض المواقع ذات الأهمية، محدثاً إياها عن الأهالي والبلاد التي حولهما، وكانا قد وصلا إلى المزرعة التي يملكها، حيث قام مسكن مسطح ذو سقف مغطى بالقرميد ملحق به مخزن ضخم للحبوب. كانت الأبقار تعيش هناك في فصل الشتاء كما أوضح لها ريجيك. ثم قال: «أدخلي معي لتري وندل وسيرو.»

كان المزارع متوسط السن ذا بنية ضخمة قوية، وكانت زوجته تكاد تماثله بنية. وبعد التحيات المهذبة، اعتذر ريجيك منها، ثم أخذ يتابع الحديث معهما بلغته. وفكرت صوفي في أن اللغة الهولندية سيئة بما فيه الكفاية، ولغة «الفرايسلند» هي أسوأ، دون ريب. ولكنها استحقت الجلوس في المطبخ الفسيح تشرب القهوة وتستمع إلى صوت ريجيك الهادىء، وإلى أجوبة المزارع المقرقعة.

ما لبثا أن نهضا، ليعودا من الطريق الذي جاءا منه. وحول مائدة الغداء دار الحديث حول شؤون مختلفة غير شخصية. وكان والدا ريجيك اللذان قد عادا من الخارج، جالسين معهما إلى المائدة. ولكنهما لم يضيعا الوقت في الحديث إذ كان عليهما أن يستقلا السيارة إلى «غرونتجن.»

سار ريجيك في الأوتوستراد من «دراتشتن» إلى «غرونتجن» وهي رحلة تستغرق حوالي الخمسة والعشرين ميلاً. وقال لها: «سنذهب إلى البيت في الطرق الجانبية.»

أدخلت المدينة البهجة إلى نفسها. فقد كانت البيوت القديمة حول القناة تستحق المشاهدة، كما أن كاتدرائية «سانت مارتين كيرك» كانت رائعة. وقال: «من المؤسف أن

البرج يقفل في الشتاء. إن علوه يبلغ ثلاثمائة وخمس عشرة قدماً. إنه رائع للتسلق.»

قالت صوفي: «إنني لا أحب الأمكنة العالية.»

كانت الجامعة عبارة عن بناء عصري بعض الشيء. وكان ألوف الطلاب فيها، يرتدي كل واحد منهم قلنسوة ملونة تدل على الكلية التي ينتمي إليها. ولأن البروفسور كان على معرفة جيدة بعدد من المحاضرين هناك، فقد شمح لهما بالتجوال بينما أخذ يجيب عن أسئلة صوفي بصبر.

ثم أخذها إلى أحد المطاعم، وبينما كانا يتناولان القهوة، أخذ يحدثها عن مبلغ اتساع المدينة قائلاً: «إنك، بالطبع، لن يمكنك رؤية الكثير منها في مثل هذه الفترة القصيرة، ولكننا سنأتي مرة أخرى.»

قالت متجاوزة قوله هذا: «هل تأتي إلى المستشفيات هنا أيضاً؟»

أجاب: «من وقت لآخر. ولكن ليواردن هي موطني بالطبع.»

أخذها بعد الفراغ من القهوة، إلى حدائق «برينزينهوف» التي كانت رائعة الجمال حتى في فصل الشتاء.

تحقيقاً لوعده، عادا عبر الطرق الزراعية حيث اجتازا عدداً من القرى الصغيرة، كان الظلام قد ابتدأ ينتشر ولكن الجو كان صحواً، وكان ما زال هنالك بقايا من أشعة الشمس الغاربة. وبدت المنازل مريحة أنيقة وكانت هناك نوافذ منارة في المزارع التي مرا بها. وكانت حركة المرور نشطة نوعاً ما، ولكنها كانت

www.elromancafe.com

تتوقف من وقت لآخر حين تمر عربات المزارع التي تجرها الخيول.

قالت صوفي: «إنني أحب هذا.» فقال ريجيك: «وأنا أيضاً. إنها فرايسلند... كم أفكر فيها عندما أكون بعيداً.»

حالما جلست صوفي مع ريجيك في غرفة الجلوس، جاء روك بصينية الشاي دون أن يطلب ذلك منه، فقد كانت الساعة الخامسة وقد مضى وقت تناول الشاي. ولكن، كل ما قاله البروفسور هو: «سنتعشى في ما بعد. لا ضرورة للسرعة هذا المساء.» ثم قال شيئاً لروك الذي انسحب بخفة من الغرفة.

كان الشاي ثقيلاً وساخناً. وسرها منظر الشاي في ابريق فضي جميل. لم يخطر على بالها ان البروفسور، ذلك الرجل الكامل الأوصاف، يتجشم عناء توفير أسباب الراحة والبهجة لها. كان مع الشاي شطائر صغيرة، وكعك، وطبق بسكويت مما كان «مات» مسموحاً له بالاستمتاع به وهو يستلقي عند قدمي سيده سعيداً برؤيته في المنزل مرة ثانية.

قالت صوفي وهي تقضم كعكة بأسنانها الصغيرة البيضاء: «سيفتقدك مات.»

أجاب: «في الحقيقة، أنا أيضاً أفتقده. وأنت يا صوفي؟ هل ستفتقدينني؟» قال ذلك وهو يراقبها بإمعان. واحتارت هي، وتمنت لو تجد جواباً مناسباً لا يسبب له ضيقاً، دون أن تعده بشيء... وعلى كل حال، ربما كان يمزح... ولكن نظرة إلى وجهه الجامد أوضحت له أنه لم يكن يمازحها. فقالت ببساطة: «نعم. سأفتقدك. إنني أحب التواجد بقربك يا ريجيك.»

عندما ابتسم تابعت تقول: «وليس ثمة حاجة بك إلى انتظار...»

في هذه اللحظة، فتح الباب لتدخل أمه الغرفة، فهب ريجيك واقفاً. مظهراً السرور برؤيتها. وتساءلت صوفي، وقد كانت على وشك أن تخبره بأنها لا تريد الزواج منه، ما إذا كان قدوم الأم في هذه اللحظة بالذات، دليلاً على شيء ما لجعلها تغيّر فكرها في آخر لحظة.

أما بالنسبة إلى البروفسور، فلم يبد في تصرفاته ما يشير إلى انه شعر بالأسف لهذه المقاطعة. وجلست امه وهي تقول إنها تناولت كوباً من الشاي منذ ساعة أو نحوها، وأردفت: «إنني أحب كثيراً عمتك كينسكي، ولكن الشاي عندها غير مقبول أبداً. أظن انها يجب أن تتحدث إلى الطاهية بهذا الشأن.»

استدارت إلى صوفي قائلة: «هل استمتعت بنزهتك يا صوفي؟» وأجابت صوفي بأنها استمتعت فعلاً وانها كذلك أحبت القرى التي مرت بها في طريقها.

قالت والدة ريجيك: «إنها لا تشابه مطلقاً الريف عندكم. وسأكون مسرورة بالتعرف على كل ذلك عندما أذهب لحضور حفلة العرس.»

فتحت صوفي فمها لتتكلم، لولا أن اصطدمت نظراتها بنظرات ريجيك، لتعود مطبقة. لم يكن يبتسم، ولكنها أدركت انه كان متفكهاً. واحمرت وجنتاها حنقاً بعض الشيء. وأومأت السيدة ميفرو برأسها مسرورة وقد ظنت أن هذا الاحمرار كان لسبب مختلف.

فكرت صوفي في أن زواجها من ريجيك أصبح أمراً

مفروغاً منه عند الجميع بينما هي حتى لم تقل... وتذكرت ما كانت تبغي قوله قبل فترة. وقالت تجيب السيدة بكلمات مناسبة عن الريف الانكليزي دون أن تتعرض لذكر حفلة العرس. وضغط البروفسور شفتيه بينما كانت أمه تفكر مسرورة في صوفي وكم هي حسنة التهذيب ومناسبة لتكون زوجة لإبنها الأكبر.

مضى بقية النهار بشكل مقبول. ولكن، لم تجد صوفي فرصة تتحدث فيها إلى ريجيك على انفراد، حتى ولو كان بجوابها على طلب الزواج، وهو القبول. ولكنها، كما كانت قد صممت وهي في فراشها منذ فترة قريبة، لم يكن جوابها بالقبول. لقد كان من حسن الحظ أن قاطع دخول والدته الغرفة، حديثها حين كانت على وشك أن تقول له ذلك، مع أن جوابه أو تصرفه حينذاك لو كانت أخبرته بعدم القبول كان يهمها حقاً. وفكرت متضايقة في أنه ما كان، حينذاك، ليفعل شيئاً، وربما اكتفى بمصافحتها... أليس ذلك ما يفعله الأصدقاء حين ينقضون ما كانوا اتفقوا عليه من القيام بأمر مشترك؟

هبت جالسة في فراشها، ورمت بوسادتها بعيداً وهي تشعر بالإحباط دون أن تعرف سبباً لذلك.

شعرت بتحسن في الصباح. لقد كانت، على كل حال، تفعل الشيء الذي تريده. وذلك بالزواج من رجل يشاطرها أفكارها عن الحياة الزوجية أولاً، ثم عدم ثقتها بالحب والعواطف التافهة التي ليس لها من نتيجة سوى الشقاء.

هكذا، نزلت صوفي إلى غرفة الطعام لتناول طعام الفطور، وقد بدا الانشراح على وجهها.

وركبا السيارة إلى ليواردن بعد ذلك، لينضم إليهما، في منزل والديه، شقيقاته الخمس جميعاً. وأحست صوفي بالارتياح إذ لم يكن هناك أيضاً الأزواج والأولاد، وكذلك شقيقاه.

اعتذرت والدة ريجيك عن ذلك بقولها: «سترينهم جميعاً في حفلة العرس.» ولم يبد عليها، لحسن حظ صوفي، أنها تنتظر جواباً، ذلك أن صوفي لم تكن لتدري بما تجيب.

جلسوا يتناولون الغداء وكان الحديث بأجمعه يدور حول عيد الميلاد القادم، وعيد رأس السنة. وأظهروا مقداراً كبيراً من العطف نحو ريجيك الذي لم يكن سيشاركهم العيد. وقالت تييل: «العيد في السنة القادمة سيكون مختلفاً يا ريجيك إذ سنقيم حفلة عائلية رائعة في منزلك. سنأتي جميعاً لقضاء النهار وعليك أن تقوم أنت بكل شيء.» ونظرت إلى صوفي وتابعت: «إن لك والدين وإخوة أليس كذلك يا صوفي؟ ما أجمله من وقت سنقضيه جميعاً معاً.»

ابتسمت صوفي، بينما أراح البروفسور ظهره إلى الخلف في كرسيه دون أن يقول شيئاً. وبدا الناظري صوفي خبيثاً حقاً إذ وضعها في مثل هذه الورطة. وتملكها الغيظ، لن تتوانى أبداً في أن تقول له كل هذا.

وجدت الفرصة لذلك وهما يعودان بالسيارة إلى بيته. وكان الوداع مؤثراً. وضاعت صوفي بين الأحضان والقبل. لقد أمسك والد ريجيك بيديها مؤكداً لها أن ريجيك سيجعلها سعيدة قائلاً: «لا ينبغي لي أن أمدح أولادي. ولكنني متأكد من أنكما ستنسجمان تماماً.» وسكت هنيهة ليضيف متعمداً: «وهذا يعادل الحب تماماً.»

www.elromancia.com

لقد تذكرت ذلك. وقالت وهي تنظر إلى ريجيك: «يبدو أن أسرتك مقتنعة بأننا سنتزوج.»

قال ببساطة: «نعم، في الحقيقة. ما هو رأيك في المربية؟»

كانت هذه محاولة ناجحة منه لتحويل الموضوع إذ انها أجابت على الفور: «أوه.. إنها عجوز رائعة. أليس كذلك؟ إنها عصبية قليلاً. وإنني الآن أفهم السبب الذي يجعلك تكن لها كل هذه المحبة.» وسكتت وقد تذكرت زيارتها القصيرة للمربية العجوز التي كانت تجلس بكل راحة، في غرفة جلوسها التي كانت تقود إلى المطبخ، محاطة بعشرات الصور لمن كانوا محط عنايتها. وكانت الغرفة مؤثثة بأجمل الأثاث وأكثره إراحة. واستطاعت صوفي أن ترى غرفة النوم تطل عليها كذلك.

قال ريجيك: «لقد أرادت هي أن يكون جناحها ملاصقاً للمطبخ، فتسمع دوماً الأصوات منبعثة منه، والناس داخلة خارجة على الدوام، فلا تشعر، لذلك، بالوحدة أبداً. إن والدتي غالباً ما تتناول القهوة معها.»

في هذه اللحظة تذكرت صوفي غضبها منه، فابتدأت تقول: «كان عليك أن توضح لهم...» فقاطعها قائلاً: «لا حاجة بنا لذلك. فإذا أنت قررت عدم الزواج مني، فإنه ما زال أمامنا وقت كافٍ لذلك.»

فسألته: «وهل ستنزعج إذا أنا قررت ذلك؟»

أجاب بعد لحظة تفكير: «أنزعج؟ ولماذا؟ لقد أوضحت لك أن لك حرية الاختيار. إن لك بالتأكيد من الحكمة والنضج ما يساعدك على معرفة ما يناسبك.»

أفحمها كلامه فقالت باستياء: «إن طريقتك في الجواب حسنة جداً.»

قال متجاهلاً استياءها: «هل تمانعين في تناول الشاي وحدك؟ ما زال أمامي أمور يجب إنجازها ويجب أن نتناول عشاءنا مبكراً. وعلينا أن نبدأ الرحيل حوالي الساعة السابعة والنصف، ولهذا سيكون العشاء حوالي الساعة السادسة والنصف. هل يناسبك هذا التوقيت؟»

قالت: «بالطبع يناسبني، إذ ما زال أمامي القليل من أمتعتي للتجهيز.»

لقد هدأت طباعها الآن، وفي الحقيقة، لقد تساءلت عما دفعها إلى مثل هذا الاستياء والغيظ منذ البداية.

صعدا إلى عبارة القناة في آخر لحظة.. ولكنها أدركت أن ذلك ما كان ريجيك يبغي حين أخذ مات خارجاً لآخر مرة يتنزهان فيها معاً، ثم توديع روك وتيسك، ليركبا السيارة بعد ذلك مسرعاً بها تحت جنح الظلام، ليتخذ طريق الأوتوستراد حتى وصلا إلى هوك في الوقت المناسب للصعود إلى المركب قبل إبحار عبارة المانش إلى انكلترا، مباشرة.

بعد أن راقبت صوفي الساعة في ربع الساعة الأخير، بأشد القلق، أدركت في النهاية، أن قلقها ذاك لم يكن له ما يبرره. فقد كان ريجيك رجلاً يعرف تماماً ماذا يفعل، فلا حاجة بها إلى القلق. وطمأنتها هذه الأفكار وهي تستلقي على سريرها في قمرتها في المركب ثم تستسلم إلى النوم.

في الصباح التالي، كانت والدتها بانتظارهما حين توقفت سيارتهما أمام باب منزلها في البلدة. وفتح الباب

www.elromancia.com

على مصراعيه ليسمح للكلبين بالقفز إلى الخارج لاستقبالهما وقد تبعتهما صاحبة البيت.

تناولوا القهوة وسط فيض من الحديث والثرثرة ولو أن البروفسور لم يتكلم إلا قليلاً.

قالت له السيدة بلونت: «لا بد أنك متعب. هل أنت متأكد من أنه لا يمكنك البقاء عندنا؟»

أجاب: «متأكد تماماً إذ عليّ أن أذهب إلى مستشفى «القديس آغنس» بعد الظهر. ولكنني سأحضر في خلال أربعة بل ثلاثة أيام إن استطعت.»

قالت السيدة بلونت وهي تربت على كتفه بحنان الأمومة: «أهلاً بك في أي وقت.» واستدارت إلى صوفي قائلة: «سيعود آرثر بعد قليل، ويمكنك التحدث مع البروفسور بينما أنجز أنا طعام الغداء.»

هكذا، لم تجد صوفي وقتاً كافياً تقضيه مع ريجيك، ولم تعرف ما إذا كان عليها أن تأسف لذلك أم تسر. وبالنسبة إليه هو، لم يبد عليه أي دليل على الانزعاج لهذا. وقبل أن يفارقهم بعد الغداء قال لها بهدوء: «سأراك في خلال ثلاثة أيام يا صوفي.» ولم تحمل النقرة على وجنتها من أصبعه أي دليل من ناحيته على شوق أو رغبة في البقاء بقربها.

كانت السيارة قد غابت عن الأنظار عندما سألتها أمها: «ما الذي صممت عليه يا عزيزتي؟» ونظرت إلى وجه ابنتها الرائع الجمال وهي تقول: «ربما ما زلت غير متأكدة بعد تماماً...»

جلست صوفي على حافة طاولة المطبخ وهي تقول: «إنني متأكدة... أظن انني كنت متأكدة حتى قبل سفري

إلى هولندا. إنه، يا أمي يفكر بنفس الطريقة التي أفكر أنا بها. كلانا ينشد زواجاً مناسباً. إننا معجبان ببعضنا البعض ونحب نفس الأشياء، كما أننا منسجمان تماماً. لم يحدث بيننا نقاش حاد أو عراك قط. لقد سبق لريجيك أن جرب حظه في الحب، وكذلك أنا. وسنكون سعيدين جداً معاً.»

استمعت السيدة بلونت إلى هذا الحديث بوجه خالٍ من التعبير. لقد خيل إليها وكأن ابنتها العزيزة تحاول تطمين نفسها بكل ذلك الكلام الفارغ عن التلاؤم والاستقرار. إن كل ما ذكرته ابنتها كان حسناً جداً، ولكنه لا يفيد أبداً دون حب. وأن يحب ريجيك إبنتها إلى درجة تجعله يتجاوب معها في آرائها ويحتمل ذلك منها، فهذا شيء جيد. ولكن... وداخلها الشك في أنه ربما يشجع آراءها هذه مهما كانت ليخلصها منها.

أخيراً، قالت وقد داخلها شعور بالارتياح: «والآن، إجلسي وحدثيني عن بيته وكيف هو.»

قالت صوفي: «إنه رائع وكبير نوعاً ما، بعيد عن العمران، ولكن هناك قرى تبعد عنه حوالي العشر دقائق سيراً على الأقدام. وهنالك بحيرة قريبة منه. إن ريجيك رجل غني جداً ولم أكن أعلم هذا. نعم، كنت أعلم أنه ميسور، أعني معروف جيداً عالمياً بالنسبة لنبوغه في جراحة المخ، ولكن، لم تكن لديّ فكرة عن أن عنده مدبرة منزل وخادمين وخادم سفرة. إنما لا يبدو عليه الثراء لأنه لم يأت قط على ذكر ثروته أو مركزه. إن والديه يملكان منزلاً كبيراً في «ليواردن» وطبعاً هو يملك منزلاً في لندن.» ونظرت إلى

www.elromancia.com

أمها بقلق وقالت: «أتظنين أنني سأكون على ما يرام؟ إنه يعجبني وقد أصبح بالنسبة إليّ، صديقاً عزيزاً. ولا يهمني أبداً لو لم يكن يملك شيئاً على الاطلاق.»

قالت الأم: «من الجميل أن يملك الإنسان مالاً وإن كنت متأكدة من أنه لا يشكل لديك أي فرق، ذلك لأنك عاقلة جداً وحسنة التربية. وشخص مثل ريجيك ولد غنياً وتعلّم كيف يحسن استعمال المال في الحياة، لا أظنه يسمح له بالتدخل في طريق حياته.»

دب النشاط فيها فجأة وهي تقول: «أظن أن زواجكما سيكون قريباً جداً، أليس كذلك؟ هل سيكون بعد عيد الميلاد؟ إنك ستكونين بحاجة إلى ملابس و...»

قالت صوفي: «نعم، ولكنني لن أقوم بأي عمل قبل أن أرى ريجيك.»

قالت الأم باسمة: «كلا، بالطبع. والآن اصعدي إلى غرفتك. فالأولاد سيأتون إلى المنزل غداً ومازال لديّ بعض الهدايا تنتظر اللف. هيا، تعالي ساعديني.»

مضت الأيام الثلاثة بسرعة، فقد كانت هناك اجراءات العيد. التسوّق، دعوة الأصدقاء، بطاقات العيد وارسالها.

كانت صوفي في المطبخ تضع فطائر اللحم عندما وصل ريجيك ورأته متعباً. تركت ما تعمله من بين يديها وأسرعت تستقبله قائلة: «هل كنت تجهد نفسك في العمل؟» ثم أضافت: «إنني سعيدة لرؤيتك يا ريجيك.» ووضعت يدها على كمه قائلة برجاء: «هل ستبقى هنا للغداء؟»

وضع يده على يديها قائلاً: «كلا. يجب عليّ أن أعود إلى المستشفى بأقصى سرعة ممكنة. إن عندي عيادة خارجية

بعد الظهر واستشارة طبية. ثم إن عليّ أن ألحق بعبارة المانش الليلية.»

قالت: «تناول كوب قهوة على الأقل. إنها جاهزة.»

قال وهو يجلس إلى المائدة: «هذا حسن.» وأخذ يأكل فطيرة اللحم، ثم تابع: «لقد جئت لآخذ جوابك يا صوفي.»

قالت: «سأتزوج منك يا ريجيك وسأبذل جهدي في أن أكون زوجة طيبة. وأرجو أن أتمكن من التعاون...»

قاطعها: «طبعاً ستتمكنين. وسأحصل على تصريح بالزواج. هل تحبين أن نتزوج هنا؟»

أجابت: «نعم، أرجوك. هل تمانع في أن يكون عرساً هادئاً؟»

قال: «أنا نفسي أرغب في ذلك. هناك فقط أبي وأخي بيلامي ليكون إشبيني. لقد آن...»

قاطعته: «متى ستعود إلى هنا؟»

أجاب: «في خلال اسبوعين.» وفكر لحظة ثم استطرد: «أي يوم بعد السابع عشر من كانون الثاني سيكون مناسباً.» وابتسم لها فجأة قائلاً: «الثامن عشر أم التاسع عشر؟» وعندما أومأت برأسها قال: «سأحاول القدوم قبل ذلك ليمكننا رؤية الكاهن.» ووضع الكوب من يده قائلاً: «يجب أن أذهب الآن.»

سألته: «من أين أنت قادم؟»

أجاب: «من ليدز.»

قالت: «ولكن هذه بعيدة أميالاً عديدة. لا بد أنك مرهق.»

قال: «كلا. أبداً.»

استدار حول المائدة ووضع يديه على كتفيها قائلاً:

www.elromancia.com

«سنكون سعيدين يا صوفي.» ثم انحنى وقبلها برقة، وقال وهو يخرج من جيبه علبة صغيرة ويفتحها: «وهذا تذكار سعادتنا.»

كان في العلبة خاتم نفيس تتألق فيه ماسة وياقوته زرقاء منتظمتين في قاعدة ذهبية قديمة الطراز.

قال: «إنه خاتم جدتي آل إليها من جدة زوجها.»

وضع الخاتم في اصبعها ثم قبل يدها.

سألته صوفي: «هل كنت متأكداً من جوابي إلى هذا الحد؟»

قال بلغته الهولندية: «أوه، نعم مئة بالمئة يا صوفي.»

ذهب كما أتى، ودون ضجة وتركها تتطلع إلى الخاتم في اصبعها وتفكر ما إذا كان ثمة فتيات يهيئن لحفلات عرسهن بمثل هذه الطريقة العملية، ويدبرن الأمور كلها في ظرف دقائق معدودة. طبعاً، لا هي ولا ريجيك يتركان مجالاً للآراء العاطفية في الحياة الزوجية.

تنهدت وكانت قد ابتدأت تقطع ما حول قالب الحلوى، عندما دخلت أمها المطبخ فبادرتها قائلة: «لقد جاء بسيارته من ليدز، وهو مشغول طوال بعد الظهر...»

قالت أمها ببشاشة وكانت قد شاهدت البروفسور يدخل سيارته وقد بان عليه السرور والارتياح: «نعم يا عزيزتي، ولكنني أتصور انه يعرف جيداً مقدار العمل الذي بإمكانه القيام به قبل أن يخلد إلى الراحة. إنه رجل قوي جداً.»

أعجبت بالخاتم، وأبدت السرور وهي تنظر إليه قائلة بأن صوفي، مع هذا، لا تكف عن إبداء قلقها وعدم ارتياحها من ناحية ريجيك.

قالت لها: «عندما تتزوجان، آمل أن تقنعيه بعدم إرهاق نفسه بالعمل يا صوفي. هل اتفقتما على موعد الزواج؟»

عندما أخبرتها صوفي، قالت الأم: «يمكنك الذهاب لإخبار الكاهن غداً قبل أن يرتبط بموعد آخر، هل سيكون عرساً هادئاً؟»

أجابت: «نعم، إنها رغبتنا نحن الإثنان، أنت وأبي وإخوتي فقط، ووالدا ريجيك وإشبينه السيد بيلامي.»

سألتها أمها: «وإخوته وأخواته؟» فأجابت: «لا أدري ولكنني أظن أنهم سيحضرون هم أيضاً، فهم أسرة متماسكة.»

قالت الأم: «ما أجمل هذا. ماذا سترتدين؟»

وأنهتا فطائر اللحم معاً، وهما تتناقشان في أمور الجهاز. لتقول الأم بعد ذلك: «حالما ينتهي العيد، عليك بالخروج للتسوّق.» وقطبت جبينها قائلة: «سيكون هناك طبعاً الأوكازيونات ولكن لا بد أن تجدي ما تريدين شراءه.»

ما لبث أخوتها أن وصلوا وتمنوا لها السعادة بمشاعر أخوية، معدين أنفسهم لحضور حفلة العرس. وأرادوا أن يعرفوا كل تفاصيل رحلتها إلى هولندا.

قال بول: «هذا يبدو رائعاً. سنأتي جميعاً لنعيش عندك وأنت ستكونين صاحبة البيت الجوّادة.»

قالت صوفي بهدوء: «لماذا لا؟ هنالك العديد من الغرف وأظن أن التزلج على الجليد سيكون ميسوراً في ما لو كان الطقس مناسباً.»

قال توم: «لا أظنك ترغبين في أن نذهب إليك بسرعة،

www.elromancia.com

فأنتما بحاجة إلى عدة أسابيع لتعتادا عاطفياً على بعضكما البعض.»

ضحكت صوفي وقد عرفت ما يتوقعانه منها نحو ريجيك. إنها لا يمكنها تصور ريجيك رجلاً عاطفياً، فلماذا تكون هي عاطفية معه؟»

في الصباح التالي خرجت واشترت كتاباً في اللغة الهولندية، مفكرة في أنها يجب أن تبذل جهدها لجعل زواجها ناجحاً. وأفضل بداية لذلك هو أن تكلم ريجيك بضع جمل بلغته. ولم يسمح لها الوقت بأكثر من إلقاء نظرة سريعة على صفحاته. ماذا لو نهضت لتساعد أمها في شؤون البيت وفي إعداد طعام حسن التغذية لأخوتها الذين هم دون شك بحاجة إلى مثل ذلك. ثم إن عليها استقبال الأصدقاء وأولئك الذين يفدون إليهم للتهنئة وإبداء الإعجاب بالخاتم. وقد حيرتها سرعة انتشار الخبر في القرية، إلى أن وقعت صحيفة «التلغراف» في يدها لتقرأ نبأ اعلان خطوبتها فيها.

لم يأتها أي خبر من ريجيك ومع ذلك، كانت تأمل في أن يتصل بها هاتفياً قبل رحيله. فهو سيعود إلى موطنه. ولكنها عادت فأصلحت خطأها فهو لن يذهب إلى هولندا وإنما إلى «سكيفول» مباشرة ومن هناك إلى اليونان حيث سيكون فيها حالياً مركزاً كل اهتمامه وجهوده على مريضة، دون أي تفكير في عيد الميلاد، وبالتأكيد ليس فيها هي.

لكنها كانت مخطئة، إذ وصلتها ليلة العيد سلة أزهار رائعة الجمال تصلح للأميرات وقد علقت فيها بطاقة بخط يده تتمنى لها عيداً سعيداً.

وضعت السلة في مكان بارز في غرفة الجلوس ونظرت إليها في كل مرة دخلت فيها الغرفة. لقد فكر فيها على الرغم من انشغاله. لقد ازداد وجهها تألقاً وتحملت إغاظات إخوتها لها عن أن الورود الحمراء تشير إلى الحب، تحملتها بصدر رحب وروح فكهة. وفكرت في أن ذلك لم يكن على كل حال، ما يعنيه ريجيك، ذلك أن اللون الأحمر هو لون عيد الميلاد. ولكن فكرت بعد ذلك بوقت طويل.

حين ذهبت إلى فراشها بعد عودتها من حضور قداس منتصف الليل مع أسرتها، سمحت لنفسها بأن تواجه الأفكار التي كانت تضايقها. كان ريجيك يستطيع حتماً أن يكتب إليها أو أن يتصل هاتفياً. لقد وضعت له كل الأعذار التي يمكن أن تمنعه من ذلك، ولكنها لم تقتنع بأنه لم يجد وقتاً يرسل لها فيه بطاقة بريدية قبل صعوده الطائرة. كانت الورود مفاجأة جميلة بالطبع، ولكن ما دام قد وجد وقتاً ليتدبّر أمر الأزهار، فهو كان يستطيع كذلك أن يتصل بها هاتفياً.

بقيت في فراشها تفكر بذلك، وعندما استغرقت في النوم، كانت أحلامها تدور حوله.

لم تكن قد امضت عيد الميلاد في منزل أسرتها منذ سنوات، ولذا، على الرغم من أفكارها التي كانت تضايقها، وجدت نفسها تغمرها بهجة العيد وتلقي الهدايا وتقديمها، وإنارة الشجرة والذهاب إلى الكنيسة مرة أخرى، ثم مساعدة أمها في إعداد طعام العيد الذي لا يتغيّر على مدى السنين. وعندما كانت تأكل لحم ديك الحبش وحلوى العيد أخذت تفكر أين ستمضي العيد القادم بعد سنة؟ هل هنا مع

www.elromancia.com

ريجيك أم في «فرايسلند» في هولندا تشاركه وأسرته عيد الميلاد؟

قالت أمها: «من المؤسف أن ريجيك ليس هنا. إنني أتساءل عن نوع الاحتفال بالعيد في المكان الذي هو فيه الآن.»

لكن البروفسور لم يكن يحتفل بالعيد مطلقاً. فقد كان منهمكاً في إزالة ورم خبيث من مخ مريضة. وحيث انه كان رجلاً ذا إرادة قوية، لم يسمح لأفكاره بالإبتعاد عن العمل المجهد الذي بين يديه. حتى بعد أن انتهت العملية المعقدة بعد وقت طويل، بقي تحت الإستدعاء في أي وقت لليوم التالي والذي بعده. وعندما عاد في ليلة رأس السنة إلى موطنه، مسروراً بنجاح عمليته، سمح لنفسه بالتفكير في صوفي. لقد أخذ منها الآن وعداً بالزواج منه، ولكنه كان يدرك جيداً أن هذا لم يكن سوى البداية.

كان روك في انتظاره في «سكيبول» ووصل عند الغروب إلى مسكنه حيث غيّر ثيابه، وتمنى للمستخدمين في منزله عيداً سعيداً، ثم استقل سيارته، مرة أخرى، في طريقه إلى منزل والديه حيث كانت الأسرة بأجمعها تحتفل بالعيد. كان رجلاً متعباً ولكن ليس ثمة من لاحظ ذلك. وصل أثناء تناول الشراب قبل منتصف الليل، فملأ صحنه بمختلف أنواع الأطعمة اللذيذة، وعندما تقارب عقربا الساعة عند منتصف الليل، استقبل السنة الجديدة بالشراب، والاحتفال بالقبلات وهز الأيدي وتبادل التمنيات الطيبة.

انسحب البروفسور، في هذه الأثناء إلى مكتب والده، وأخذ الهاتف وطلب رقماً.

كانت صوفي مع أسرتها، ما زالت في غرفة الجلوس تفكر في الذهاب إلى الفراش، عندما رن جرس الهاتف. ولما كانت صوفي هي الأقرب إليه، فقد نهضت لتجيب. وجاءها صوت ريجيك الهادىء وهو يتمنى لها سنة سعيدة باعثاً هزة سرور في جسدها. لقد كانت تأمل أن يتصل بها، ولكنها لم تكن متأكدة من ذلك. وهتفت بحرارة: «أوه، ريجيك ثم أضافت: «سنة سعيدة لك أيضاً. أين أنت؟»

أجاب: «في ليواردن. لقد عدت منذ ساعات قليلة. سأكون معك بعد غد. ولكنني غير متأكد من الوقت. هل ستكونين في البيت؟»

قالت: «نعم، أوه، نعم.»

قال: «سأراك إذن يا صوفي؟» وأقفل السماعة، وشعرت هي بشيء من الخيبة لاختصار حديثه. ولكنها ما لبثت أن جرفتها فكرة رؤيته مرة أخرى. لقد أدهشها أن تجد نفسها بغاية الشوق إليه.

كانت في المطبخ تغسل الأطباق الصينية التي لا تستعمل إلا في المناسبات حين أطلت السيدة بروم برأسها من باب المطبخ قائلة: «إن صاحبك الشاب يقف بالباب يا حبيبتي. هيا، سأكمل أنا غسل تلك الأطباق، ونشفي أنت يديك. يجب أن لا تدعيه ينتظر طويلاً.»

دفعت صوفي بطبق ثمين، كان بين يديها، إلى السيدة بروم. واندفعت خارجة وهي تجفف يديها في ثوب رث كانت ترتديه فوق ثيابها، وكان عادة يعلق على باب المطبخ من الداخل لمن شاء أن يرتديه فوق ثيابه دون اعتبار

للمقاس، وكانت هي، في اندفاعها قد نسيت أن تخلعه.

كان البروفسور في القاعة يتحدث إلى أمها مشرفاً عليها بقامته المديدة وقد بدا رائعاً مهيباً في معطفه الكشمير وبدلته البالغة الأناقة.

زلّت قدم صوفي وكادت تقع نتيجة وقوفها المفاجىء بعد أن تذكرت الثوب المحزن المظهر الذي تلف نفسها به، وشعرها المربوط بإهمال بشريط على ظهرها.

دفعها شعورها بمظهرها غير الحسن إلى القول بتوتر: «لم أتوقع منك الحضور بهذه السرعة.» وما لبثت أن أتبعت جملتها هذه بقولها: «ما أجمل أن أراك يا ريجيك.»

عادت تنشف يديها اللتين ما زالتا مبللتين في الثوب الرث ذاك وهي تقول: «لقد كنت أغسل الأطباق الصينية...»

تألقت عينا البروفسور تحت أهدابه وقال: «إنني أحب شعرك هكذا.» وانحنى يقبلها وهو يقول: «هل آتي معك إلى المطبخ وأساعدك في غسل تلك الأطباق؟»

قالت باسمة وقد هدأ مزاجها: «كلا.. طبعاً لا..» وشعرت بالارتياح وهي تراه، تماماً كما يشعر الأصدقاء مع بعضهم البعض. واستطردت تقول: «سأجهز القهوة. هل عدت بالعبارة الليلية؟»

فأجاب: نعم. إن عندي مريضاً بعد الظهر في مستشفى «القديس آغنس» هل يمكننا الذهاب معاً لرؤية الكاهن هذا الصباح؟ سأعود هذا المساء لآخذك معي للعشاء خارجاً. فإن هناك الكثير لنتحدث بشأنه.»

فأومأت برأسها موافقة وهي تقول: «نعم. هل ستمكث طويلاً في انكلترا؟»

أجاب: «كلا. ليومين أو ثلاثة فقط، فإن عندي أعمالاً كثيرة يجب إنجازها قبل حفلة العرس.»

قالت: «نعم، بالطبع.» ودخلا إلى غرفة الجلوس حيث كانت أمها تنتظرها مع القهوة وانتقل الحديث إلى حفلة الزواج.

وسألت الأم: «هل سيكون عرساً هادئاً؟» واستطردت: «مجموعة قليلة من الأشخاص فقط. يمكننا جميعاً العودة إلى هنا لتناول الغداء إذا شئت ذلك. إذ انني أظنك تريد الذهاب إلى أحد الأمكنة بعد ذلك.»

قال: «سنذهب إلى هولندا. يمكنني فقط البقاء ليومين أو نحو ذلك.»

فقالت: «حسناً، دعني أعلم بما تصممان عليه. لأتدبّر أموري.» كانت الأم تتكلم ببشاشة وارتياح. كانت، ككل الأمهات، تحب أن ترى ابنتها تتهادى في رواق الكنيسة في ثوبها الساتان الأبيض والطرحة اللتين كانت قد احتفظت بهما بحرص لهذه المناسبة. وربما كانت سترتاح من ذلك لو كانت قد علمت أن صوفي كانت تعتبر أن الساتان الأبيض والطرحة ليسا لمثلها. ذلك أن العرس المنشود ليس لمن تتزوج في مثل ظروفها. لا بأس، ستجد شيئاً مناسباً لعروس مهما كان نوع حفلة العرس...

دخل الأب وابنه توم، لتنسحب هي لتصلح من شأنها وزينتها وترتدي سترة وقفازاً صوفياً، جاهزة لمصاحبة ريجيك لمقابلة الكاهن في الأبرشية.

سارا يتحدثان أحاديث متفرقة وقد سادت بينهما الالفة والارتياح. وعندما وصلا إلى الأبرشية ومع أن البروفسور

www.elromancia.com

أظهر أنه يأخذ رأي صوفي في ما يتصل بالموعد والوقت فقد كان في الواقع، قد سبق وخطط لكل أمر حسب ما يريد. كانت حفلة العرس ستبدأ في الساعة الحادية عشرة صباحاً بعد اسبوعين، وذلك بتصريح خاص. وتجري الطقوس بهدوء. وحيث انهما سيرحلان إلى هولندا في نفس اليوم، فقد كانا شاكرين جداً للأبرشية لتدبّر أمر الزواج بهذه الفترة القصيرة.

قال الكاهن: «هذا جميل... هذا جميل. وأنا واثق من أنني سأكون سعيداً لتعميد أولادكما.»

ابتسمت صوفي وهي تتمتم، متجنبة نظرات ريجيك. ودهشت قليلاً وهي تسمعه يجيب بالموافقة بصوته العميق. وخامرها شعور بأنه يعني ما يقول. ولكنها طمأنت نفسها بأنه طبعاً لا يريد أن يخيب أمل الكاهن. وكانت مسألة الأولاد هذه مما يسبب لها قلقاً بشأن هذا الزواج. فقد كانت تحب الأطفال وكذلك شعرت بأن ريجيك يحبهم هو أيضاً، ولكن، إذا كانا سينفذان الاتفاق الذي عقداه في ما بينهما، فإنه لن يكون هنالك أطفال... ولكن، ربما في ما بعد.. وفي نفس الوقت، حدثت نفسها بانهما سيعيشان معاً حياة سعيدة خالية من صدمات الحب وشقائه.

عادت مع ريجيك راضية تماماً عن مستقبلهما الآتي.

تركها بعد وصولهما المنزل بفترة قصيرة واعداً بالعودة في المساء. وقبل أن يدخل إلى السيارة سألها: «هل تفضلين مكاناً معيناً نتناول فيه العشاء؟»

قالت: «ألا يمكن أن يكون مكاناً غير المطعم؟ هل يسبب تناولنا الطعام في منزلك أي إزعاج لبيرسي والسيدة ويفن؟»

كافأتها نظرة راضية من عينيه وهو يقول: «ليس في ذلك أي إزعاج لهما مطلقاً بخلاف ذلك، الجميع هناك مأخوذون بفكرة زواجي القريب ومتشوقون لرؤية العروس مرة ثانية.»

قبلها في وجنتيها برقة، ثم دخل السيارة وابتعد تاركاً إياها تدخل المنزل لتتطلع في خزانتها وتنتقي ما يناسبها للخروج معه. واختارت تنورة من القطيفة بنية اللون، فوقها قميص عاجي اللون.

كانت الأمسية ناجحة تماماً. فقد قدّم إليهما «بيرسي» والسيدة «ويفن» عشاء ممتازاً، وبعد ذلك جلسا في غرفة الجلوس قرب المدفأة يتحدثان.

فكرت صوفي وهي في فراشها تلك الليلة، في حديثهما ذاك ولم تستطع أن تتذكر المواضيع التي دارت حولها. ولكن مشاعرها كانت مفعمة حبوراً.

لم تدرك إلا عندما فتحت عينيها صباحاً أنها لا بد قد وقعت في حب ريجيك.

www.elromancia.com

الفصل السادس

نهضت صوفي من فراشها وارتدت ثيابها. ومع أن الوقت كان ما يزال باكراً، إلا أن بقاءها في الفراش كان مستحيلاً. ارتدت معطفاً واقياً من المطر قديماً، ولفت شعرها بشال وحملت حقيبة يدها ثم خرجت من المنزل.

شعر الكلبان بالسرور وهما يريانها تخرج مبكرة، فخرجا يتبعانها وأحست هي بالسرور لذلك.

كان المطر ينهمر والرياح قارسة ولكنها لم تنتبه إلى أي من ذلك إذ كانت تحدث الكلبين: «إنني الآن في وضع محرج. هل أقول إنني قد غيرت رأيي، أم أمضي في طريقي فأتزوجه وأدعي في بقية حياتي أنني لا أكن له سوى الصداقة؟»

ونبح «ميركوري» بصوت مجنون بينما همهم «مونتغمري» بصوت متحشرج. وتابعت صوفي في محاولة لرؤية الأمور بشكل منتظم: «هل من الأفضل أن لا أراه بعد هذا، أبداً، أم أتزوج منه دون أن أدعه يدرك أبداً أنني أحبه؟» وأضافت بصوت خافت مرتجف: «نعم. إنه الشخص الذي أحب. لا أدري لماذا لم أكتشف ذلك قبل الآن. إنه يكن لي المحبة وقد انسجمنا معاً كأننا صديقان قديمان ولا أظنني أستطيع التوقف عن رؤيته بعد الآن...»

توقفت في منتصف طريق موحل، وتوقف معها الكلبان وهما ينظران إليها بعطف، بينما تابعت هي تخاطبهما

بحيوية: «سأتزوج منه. ونصف رغيف هو أفضل كثيراً من عدم وجود خبز على الاطلاق!»

عادت إلى البيت وقد استقر عقلها على هذا الرأي وأحست بالارتياح. وهكذا عندما أثارت أمها بعد تناول الفطور، موضوع شراء الثياب، وافقت صوفي على الفور حيث انها كلما أسرعت بذلك كان أفضل.

وقالت أمها: «كم تظنين سيأتي إلى حفلة الزواج من أسرة ريجيك؟ وهل عليّ أنا أن أوجه إليهم الدعوة؟» ولم تنتظر الجواب بل تابعت: «سأكتب رسالة إلى أمه وأدعو إلى الحفلة كل فرد في الأسرة يحب أن يحضر.» وابتدأت تعد على أصابعها: «سيكونون تسعة أشخاص، هذا إذا هم حضروا جميعاً، كما أنني لم أعد الأزواج.»

قالت صوفي: «لن يحضر أحد منهم إلى العرس باستثناء أمه وأبيه وربما أحد أخوته أو أخواته. لقد أخبرني أن الأسرة كلها ستجتمع عندما نعود إلى فرايسلند.»

قالت الأم: «إذن، فسأستعد لاستقبال عشرين شخصاً من باب الحيطة. وسأذهب هذا الصباح لتدبّر أمر كعكة الزواج. متى ستذهبين إلى التسوق يا حبيبتي؟»

قالت صوفي: «سأذهب غداً، فأنا لا أحتاج إلى الكثير.»

قالت أمها: «كلا يا عزيزتي، ربما كان ذلك فعلاً. ولكن، قطعة أو قطعتان من الملابس الخارجية الجيدة إلى جانب ثياب العرس.»

نظرت صوفي إلى أمها بعينين حالمتين وقد امتلأت مشاعرها بريجيك وقالت: «سأحتاج إلى ثوب ومعطف وأيضاً إلى قبعة.»

www.elromancia.com

نظرت الأم إلى ابنتها مفكرة في ان خبرتها في الحياة تحدثها بأن ابنتها عاشقة. ذهنها شارد ورأسها في السحاب.

قالت: «سيكون ذلك حسناً جداً. هل سترين ريجيك قبل حفلة العرس؟»

أجابت صوفي: «كلا، إنه سيسافر إلى هولندا غداً ليتدبّر الأمور قبل الزواج.»

ذهبت إلى لندن في الصباح التالي. ولقد أوصلها أبوها إلى محطة القطار طالباً منها أن تصرف الشيك الذي منحها إياه، وإذا كانت بحاجة إلى مزيد من النقود يمكنها أن تطلب منه.

كان لها حساب أيضاً في المصرف باسمها، وأكثر من ذلك يعني التبذير دون حاجة.

لكنها حدثت نفسها قائلة، ولماذا لا؟ إنه عرسها وهي تريد من ريجيك أن يكون فخوراً بها.

تجنبت المخازن الكبيرة التي كانت الاوكازيونات تحتلها. وكانت هناك بعض الحوانيت التي كانت تعرض أشياء تناسبها تماماً.

عند العصر، كان التعب والجوع قد حلا بها. ولكنها كانت سعيدة فقد اشترت أيضاً ملابس رائعة الجمال لعرسها، وثوباً للسهرة مع معطف طويل يناسبه من الصوف الناعم. وكان ثمنه مرتفعاً ولكن، كما قال صاحب الحانوت كان ثوباً يمكن أن يستعمل دائماً دون أن يفقد جدته وطرازه. وكان ثمة أيضاً قبعة تناسبه، تختلط فيها القطيفة والريش وهي وردية اللون.

قالت البائعة وقد رأت الخاتم في اصبع صوفي: «أهي ملابس العرس؟»

أجابت صوفي: «أوه، نعم سيكون عرساً هادئاً جداً.»

قالت البائعة: «إنه يناسبك جداً وهو بالغ الجمال، إن لك قواماً رائعاً إنني أعرف أنك اشتريت أشياء كافية، ولكن عندي هنا بدلة صوفية تناسب هذا الوقت من العام. إنها تناسب قياسك وأنا مستعدة لتخفيض ثمنها لك.»

فكرت صوفي في أن بدلة الصوف ذات فائدة، وحيث أن لونها مزيج من الأزرق والأخضر فهي كذلك تناسب لون عينيها وشعرها.

أكلت شيئاً على عجل قبل أن تبدأ البحث عن ثياب للمساء. فإن ريجيك يعيش في مستوى عال ولا بد أنه سيكون هناك حفلات راقصة وما أشبه وهذه المرة وجدت ما تريده تماماً. كان ثوباً ذا تنورة طويلة وفتحة عنق مربعة وكمين طويلين. وهذا يكفي مع التنورة المخملية البنية التي بحوزتها وهكذا عادت إلى البيت.

كان يوماً جميلاً، وكان وراء شعورها بالسعادة شراؤها ثياباً جديدة جميلة كان وراء ذلك شعورها بأنها تحب ريجيك وكان هذا أيضاً يبعث السعادة إلى قلبها.

هكذا عندما اتصل ريجيك بها هاتفياً، ذلك المساء بقيت للحظة عاجزة عن النطق.

أخيراً عندما قال بصوته الهادىء: «صوفي؟» هتفت بحرارة: «ريجيك... أين أنت؟»

أجاب: «في ايرن وود. ماذا فعلت اليوم؟»

www.elromancia.com

أجابت: «اشتريت ثوب زفاف. هل ستمكث هناك إلى حين عودتك إلى هنا؟»

قال: «كلا فقط أربعة أو خمسة أيام هنا، ورحلة سريعة إلى بروكسل لرؤية مريض ثم أعود إلى هنا بعدها أحضر إلى انكلترا. ربما لن أتصل بك قبل يوم أو يومين.»

قالت: «لا بأس.»

إنها تريده أن يتصل بها مرة يومياً أو مرتين إذا أمكن، فقط لتسمع صوته ولكن يجب ألا يعلم هو بهذا بأي شكل كان. وتابعت تقول: «لا تهتم لشيء. نحن سنتدبر الأمور.»

خيل إليها أنه ضحك قبل أن يقول لها إلى اللقاء. ولكنها لم تكن متأكدة من ذلك تماماً.

كان عندها الكثير مما يشغلها في المنزل. ولقد أرسلت أمها بطاقات الدعوة إلى أسرة ريجيك وقد انغمست في التحضير لفطور نهار العرس والسعادة تغمرها. قالت أمها: «إذا كنتما سترحلان على العبارة.» وتوقفت عن الكلام برهة، ثم استطردت: «ولكن، ألا تسير العبارة ليلاً؟ لقد قال ريجيك إنه سيرحل مباشرة بعد الغداء.»

قالت صوفي: «ربما سيذهب إلى بيته في لندن.»

قالت أمها: «ربما.» وقطبت حاجبيها وهي تستطرد: «سمك السلمون المدخن، فطائر الجبن، سجق، وكل الأشياء التي يمكنك أن تمسكيها دون أن تلوث يدك. وطبعاً، الكعك...»

قالت صوفي بصوت حالم: «نعم يا أماه.» وفكرت في أنهما يستطيعان أن يمضغا أي شيء فلن يهمها ذلك ما دامت وريجيك سيتزوجان. وفكرت في أن وقوعه في حبها لا بد

أن يستغرق وقتاً طويلاً. إنها تعلم، على الرغم من عدم غرورها أنها جميلة وأن ذلك هبة من الله. ولكن ريجيك يعتبرها صديقة... إذن كل ما عليها عمله هو أن تجعله يراها على ضوء جديد... مثلاً، امرأة جذابة من ناحية، ومن ناحية أخرى امرأة عملية تتفهم طبيعة عمله، ومستعدة لاحتلال المركز الثاني في حياته.

احتل ريجيك أفكارها خلال الأيام التالية. كانت تريد أن تبدو أمامه في ضوء جديد. وعندما عاد، لم تكن قد رسمت بعد أية خطة لذلك. وكان من الصعب عليها أن تتصرف كالعادة. كأن تحييه بنفس الطريقة المبنية على الصداقة التي اعتادتها من قبل، والإجابة عن أسئلته عن حفلة الزواج بصوت عادي عملي.

حضر والدا ريجيك واثنتان من أخواته في الوقت نفسه من هولندا في سيارتهم، ليصلوا مباشرة إلى منزله في لندن. ووصل ريجيك وحده تواً إليها ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام لحفلة الزفاف في اليوم التالي. وقال: «سيصل شقيقاي بالطائرة هذا المساء وسيحضرهما بيلامي إلى هنا صباحاً. إذن فالعدد هو سبعة من ناحيتي فكم شخصاً من ناحيتك؟»

كانا جالسين في المطبخ يتناولان القهوة وحاولت هي أن لا تنظر إليه كثيراً... إن وجوده بقربها وحده كفيل بأن يسرّع في خفقان قلبها. وحذّرت نفسها بصمت من أية حماقة. وأجابت: «حسناً، هنالك والداي وإخوتي الثلاثة، وهذا خمسة. ثم أنا طبعاً وأنت. وهذا يجعل العدد أربعة عشر. الكاهن وزوجته سيأتيان للغداء.» ورمقته

بنظرة سريعة وتابعت: «لم نكن متأكدين من وقت رحيلك.»

قال: «أظن أننا سنتناول العشاء في منزلي، أنا وأنت فقط، قبل أن نغادر إلى العبارة.»

أومأت موافقة وهي تقول: «إن أمي تتمنى أن يبقى من يريد لوجبة الشاي أو العشاء. وسيكون جميلاً أن تكون هنالك فرصة للتعارف بين الجميع. أوه.. لقد نسيت السيد بيلامي...»

أجاب: «عليه أن يعود حال سفرنا.»

نهض البروفسور من على كرسيه قبالتها وتقدم ثم جلس على زاوية المائدة قريباً منها وقال برقة: «هل ثمة ما يقلقك؟»

نظرت إليه قائلة بجلاء: «كلا، لا شيء يقلقني.»

فانحنى وقبلها قائلاً: «ولا أنا. هل نخرج لنتمشى قليلاً؟ عليّ أن أعود بعد الغداء وأنا متأكد من أنك تريدين القيام بغسل شعرك أو فعل أي شيء مما تفعله النساء عادة قبل الزفاف.»

ضحكت صوفي قائلة: «في الواقع، أنا حقاً أنوي القيام بهذا العمل. كيف عرفت ذلك؟»

قال وهو يجذبها لتقف: «تذكري أن عندي خمس أخوات. هاتي معطفك وسأبحث أنا عن أمك.» ونظر في ساعته ثم قال: «هل الغداء سيكون في الساعة الواحدة؟ عندنا إذن ساعتان.»

كان صباحاً بارداً ولكن كان ثمة شمس باهتة. ومشيا معاً بحيوية وانشراح.

قالت: «أخبرتني عن رحلتك إلى اليونان. هل نجحت العملية؟»

استمعت إليه باهتمام حقيقي وتفهم لما أخذ يحدثها عنها وكانت تسأله أسئلة منطقية من وقت لآخر. وتوقف البروفسور أثناء توضيحه أمراً معقداً ليقول: «ما أجمل أن أستطيع أن أتحدث عن عملي إلى شخص يفهمني، يقولون إنه لا ينبغي أن يأخذ إنسان عمله معه إلى البيت ليزعج إنساناً آخر ولكن ما أحسن أن أعود إلى البيت وأجلس لمراجعة عملي دون أن أخاف من أن أسبب لك الضجر.»

اندفعت صوفي قائلة: «ولكن لا يمكن أن أضجر منك أبداً.» وسكتت فجأة وقد احمرت وجنتاها لحماسها هذا. ولم تكن تنظر إليه، ولهذا لم تر ابتسامته البطيئة. وأضافت بسرعة: «لا تنس أنني كنت ممرضة لمدة طويلة.»

سألها ببساطة: «هل ستفتقدين التمريض؟ إن الحياة في «إيرن وود» هادئة.» فقالت: «سأحب ذلك، وهناك الكثير مما يشغلني على الدوام. يجب أن أتعلم اللغة الهولندية وأفهمها. وعليّ أن أتعرف إلى كل شخص في القرية وفي أسرتك.»

قال ريجيك: «وكذلك الاستضافة يا صوفي. إن عندي أصدقاء كثيرين وهناك حياة اجتماعية مشوقة بشكل مدهش. وعندما نتزوج أظنها ستكون أكثر إشراقاً.»

سألته: «هل سيعجبك ذلك؟»

أجاب: «ليس كثيراً وأنا أعتمد عليك في أن تخلصيني من الجميع ما عدا أصدقائي المقربين.»

قالت: «عليك أن تعطيني إذن قائمة بالأسماء وسأبذل أنا جهدي عند ذاك.»

ترك البروفسور الجميع بعد الغداء ولكن ليس قبل أن

www.elromancia.com

يسلم صوفي هدية العرس التي كانت عبارة عن قرطين من الماس والياقوت الأزرق.

وضعتهما في أذنيها. وصعقها جمالهما، وقالت له: «إنهما رائعان. شكراً يا ريجيك سأضعهما غداً.» ووقفت على أصابع قدميها لتقبل وجنتيه قائلة: «لا يمكنني أن أقدم إليك ماساً وياقوتاً، أليس كذلك؟ ليس عندي سوى الخاتم أقدمه إليك.»

أجاب: وهذا ما سأضعه دوماً بكل افتخار.»

نهضت صوفي باكراً صبيحة يوم عرسها. لقد نامت جيداً ولهذا لم يك ثمة داع للبقاء مستلقية في الفراش. لقد كانت الإثارة تتملكها. كانت أيضاً سعيدة ولكن متهيبة قلقة في الوقت نفسه. إن بقاءها مع ريجيك كل يوم يشعرها بأنها في الفردوس. ولكن، لنفرض أنه وجدها مملة أو أسوأ من ذلك، ربما أغرم بامرأة أخرى. الوجه الجميل لا يكفي. إنها تعرف ذلك. ومشت نحو المطبخ حيث اعدّت لنفسها كوباً من الشاي وجلست ترتشفه بينما جلس الكلبان إلى جانبيها. وهدأ من أعصابها الدفء والجو المألوف حولها. ثم عادت تصعد إلى غرفتها حيث اغتسلت وتناولت فطوراً خفيفاً.

لم يعد لديها فرصة للتفكير أو التأمل فقد منعها حضور إخوتها من ذلك، إلى أن أقبلت أمها لتأخذها إلى غرفتها ثانية لترتدي ملابسها.

قالت محتجة: «ما زال ثمة وقت كاف لذلك يا أماه؟»

قالت الأم: «يجب أن ترتدي ملابسك وتجلسي بانتظام وهدوء. على كل حال لا أريد أحداً في طريقي. فإن السيدة

بروم ستحضر الآن برفقة ابنتها وأنا سأتأكد من أن كل شيء سيكون جاهزاً في غرفة الجلوس.»

هكذا ارتدت صوفي ملابسها ثم جلست عند نافذتها. إنها تستطيع رؤية برج الكنيسة من فوق الأشجار. وفي أقل من ساعة ستكون هي في داخلها ويعقد قرانها. وتساءلت عما يفعله ريجيك الآن. ربما حدث له عائق ما في طريقه. حادث سيارة انفجار عجلة السيارة. وداخلها السرور وهي ترى أمها تدخل عليها وعلى رأسها القبعة. وتفحصانها معاً لتقول صوفي بعد ذلك: «إنك تبدين رائعة تماماً كأم العروس يا أمي العزيزة.»

سألتها أمها: «هل والدة ريجيك حسنة المظهر هي أيضاً؟»

أجابت صوفي: «نعم وستحبان بعضكما البعض، ولو أنها تبدو متوترة قليلاً.»

عندما خرجت أمها وإخوتها بدا المنزل هادئاً. وجلست في غرفة الاستقبال مع أبيها في انتظار سيارة ليموزين استأجروها لتقلهما إلى الكنيسة. إنها ستترك البيت في خلال ساعات قليلة. كانت تفكر بذلك متعزية بما قاله ريجيك من أنها تستطيع أن تصحبه إلى انكلترا كلما حضر هو إليها، فترى أسرتها. إنه رجل رقيق كأي صديق حميم... وابتسمت لهذه الفكرة الأخيرة ساخرة من نفسها، وطبعاً كأي زوج.

جاءت السيارة أخيراً حيث استقلوها إلى الكنيسة القريبة. إذ لم تجد صوفي داعياً للتأخر. وكانت الساعة الحادية عشرة بالضبط.

www.elromancia.com

سارت في ممر الكنيسة تحمل بيديها باقة الأزهار التي أرسلها إليها ريجيك بينما أبوها بجانبها يمسك بذراعها.

كانت الكنيسة بالنسبة إلى عرس هادىء تبدو مزدحمة بشكل ملحوظ. ذلك أن سكان القرية وقد سرهم مثل هذا العرس، يبعث الإشراق في ذلك اليوم الشتوي الكئيب، قد تدفقوا بقوة وازدحموا خلف أسرة صوفي. كان والدا ريجيك وإخوته يجلسون على الناحية الثانية من ممر الكنيسة. ورأتهم هي بصعوبة. أما ريجيك فكان هناك في انتظارها واطمأنت لرؤيته حتى وهو لا ينظر إليها. ولكن عندما وقفت وأبوها بجانبه، عند ذلك فقط استدار لينظر في عينيها باسماً، قبل أن تبدأ المراسم.

عند ذلك انتبهت إلى أنه كان ثمة موسيقى ومرتلون وأزهار. وتساءلت عمن تراه هيأ كل هذا ثم ما لبثت أن أخذت تستمع إلى صوت الكاهن... مرددة كلماته التي تعد أن تحب رجلها وتطيعه وتحترمه.

خرجا من الكنيسة يداً بيد وهي تبتسم بملء فمها وهي تشعر وكأنها في حلم. وعلى باب الكنيسة توقفا لتؤخذ لهما بعض الصور الفوتوغرافية. ثم ما لبث الحضور أن تزاحموا حولهما وأخذوا في تقبيلها، والجميع يتكلمون في وقت واحد.

في سيارة ريجيك وهي بجانبه، سألته: «من هو الذي أعد الموسيقى والمرتلين وكل هذه الأزهار الجميلة؟»

أجاب: «إنه أنا. لقد أردت لك عرساً مناسباً يا صوفي.»

قالت: «شكراً. كل شيء كان... كان.. لا أجد الوصف المناسب لذلك. ولكن هل تعرف ماذا أعني؟»

قال: «نعم أظنني أعرف. تبدين رائعة الجمال يا عزيزتي.»

قالت: «أوه، شكراً.» ورمقته بنظرة جانبية. كانت بدلته الرمادية رائعة التفصيل. وربطة عنقه من الحرير النفيس وقد وضع قرنفلة بيضاء في عروة سترته. كان مثال الرجل الأنيق.

قالت له: «إنك تبدو رائع الأناقة.»

وضع يده على ركبتها قائلاً: «إننا زوجان متلائمان. أليس كذلك؟»

كان فطور الزفاف ناجحاً تماماً. وتألقت السيدة بلونت مزهوة. حقاً إنها استعانت بطعام جاهز من المطعم، ولكن قسماً كبيراً قد صنعته بنفسها. ونظرت حولها، لقد بدت صوفي رائعة وكذلك ريجيك، كذلك هي ووالدة ريجيك قد انسجمتا تماماً. أما والده فقد تهيبته في البداية. ولكنها ما لبثت أن رأت عينيه المتلألئتين كعيني ريجيك فقد كان نسخة أكبر سناً، عن ابنه. وكذلك كان اخوته سريعي الإلفة ولم تجد صعوبة في فهمهم. فقد كانت لغتهم الانكليزية جيدة كلغتها هي. لقد جلست بجانب والدة ريجيك التي ربتت على ذراعها قائلة: «إنها مناسبة سارة. إننا نحن الاثنتان فخورتان بابننا وابنتنا الجديدين. أليس كذلك؟ وحالما يستقران، يمكنكما أن تحضرا جميعاً للمكوث معنا. إن عندنا أمكنة كثيرة لأجل الأولاد، حتى ولو لم يكن فإن هناك عدداً كبيراً منا مما يمكن توفير الأمكنة لكل ضيف يأتي للمكوث معنا.»

قالت السيدة بلونت: «إنك بالغة اللطف. وإنني معجبة جداً

www.elromancia.com

بريجيك بل اننا جميعاً كذلك. لقد ساد بيننا الانسجام منذ اللحظة التي جاء فيها ليرانا.» وابتسمت السيدتان لبعضهما البعض.

قالت السيدة بلونت: «لقد حان الوقت لتقطيع الكعكة، إذ أنهما سيرحلان عند الساعة الواحدة.»

انطلق العروسان، أخيراً في سيارتهما تحت زخات الأرز وقصاصات الورق الملون وهما ما يزالان في ثياب الزفاف حيث كانا سيغيران ملابسهما في منزله في لندن.

سألها ريجيك: «هل تشعرين بدفء كافٍ؟»

أجابت: «نعم، شكراً. هل ستأتي أسرتك إلى المنزل في لندن هذا المساء؟»

قال: «ذلك سيكون بعد رحيلنا. لقد حجز أبي مائدة للعشاء في مطعم إنغيتستون حيث يمكنهم أن يتحدثوا عن حفلة الزفاف كما يشاؤون مهما تأخروا. لقد استأجر سيارة لولديه وسيأخذ في السيارة أمي والبنتين بنفسه. لقد اتصل بوالدك هذا الصباح.»

قالت: «ما أجمل هذا منه.» ونظرت من السيارة إلى الحقول المغرقة بالأمطار ثم سألته: «متى علينا أن نترك لندن؟»

أجاب: «حوالي الثامنة. وسنتعشى أولاً.» وابتسم لها مستطرداً: «لقد استمتعت بعرسنا. وأنت؟»

أدركت بشيء من الدهشة أنها استمتعت هي أيضاً. لقد كانت قد توقعت أنه سيكون من الأحلام التي لا يمكن لها أن تكون حقيقة... ولكنها كانت حقيقة ساطعة أسعدتها.

قالت: «نعم. لقد استمتعت بالعرس، لقد سمعت البعض

يقولون إنهم لا يتذكرون أحداث حفلة زفافهم تماماً، ولكنني أنا يمكنني أن أتذكر كل كلمة.»

صمتت. فقد كانت رغبتها في أن تفصح له عن حبها، من القوة بحيث جعلتها تشد على أسنانها. وسألها هو: «هل أنت متعبة، سنصل قريباً إلى البيت.»

أسرعت تقول إنها غير متعبة أبداً ولكن سعيدة. واستطردت: «لقد كان يوماً حافلاً. لقد انسجمت والدتانا معاً تماماً. أليس كذلك؟»

مضى بهما الحديث إلى أن وصلا إلى ضواحي لندن، وارتاحت عندما أبطأ من سرعته ليوجه انتباهه إلى حركة السير.

أشرق وجه بيرسي وهو يفتح الباب لسيده وعروسه وهتف قائلاً: «تهانئ القلبية يا صاحبي. ولك يا سيدتي كل تمنياتي الطيبة. هذا يوم سعيد مكتمل المحاسن.»

شكره البروفسور وكذلك صوفي التي صافحته وهي تحاول فهم لهجته العامية.

قال بيرسي وهو يتناول معطف صوفي: «هناك شراب في غرفة الجلوس. إن السيدة ويفن تجهز عشاءً رائعاً.» ونظر إلى صوفي واستطرد: «يجب أن أقول إنك تبدين رائعة يا سيدتي. سأدخل الأمتعة حالاً لتغيّري ملابسك قبل الرحيل.»

كانت غرفة الجلوس يغمرها نور خافت وتحوي من الأزهار قدر ما يحويه حانوت الزهور وقال بيرسي: «لقد فكرنا أنا والسيدة ويفن أن نضع لأجلكما بعض الأزهار.» وكان في صوته ما جعل صوفي تجتاز الغرفة لتأخذ يده

www.elromansia.com

بين يديها قائلة: «ما أجمل هذا منكما يا بيرسي. إن الغرفة تبدو رائعة. إنها مفاجأة مدهشة منكما. كم أتمنى لو أننا نأخذها معنا إلى هولندا.»

قال: «حسناً ربما يمكنكما أخذ باقة منها.»

قالت: «سأفعل ذلك حتماً. شكراً لك وللسيدة ويفن. إننا مسروران جداً منكما. أليس كذلك يا ريجيك؟»

سارع البروفسور إلى الموافقة على كلامها. ولشدة سرور بيرسي ذهب إلى المطبخ ليقول للسيدة ويفن إن كل شيء على ما يرام بالنسبة للعروسين وتصرفهما نحوه.

جلست صوفي على كرسي بجانب المدفأة ترتشف الشراب الذي سكبه ريجيك لها. وجلس ريجيك وأخذ يتطلع في كومة من الرسائل بجانب كرسيه، بعد أن اعتذر من صوفي.

نظر إليها باسماً وهو يقول: «يبدو أن عليّ العودة إلى هنا خلال ستة أسابيع. ويمكنك الحضور معي لرؤية والديك إذا شئت. وعليّ أيضاً أن أذهب إلى الدانمرك قريباً جداً لإجراء عملية. أظنك ستجدين الكثير مما يشغلك في البيت...»

علمت أنها ليس لها أن تتدخل في عمله بأي شكل. فوافقت بهدوء وتابعت احتساء شرابها.

كان العشاء ممتازاً تعبت السيدة ويفن دون شك في تحضيره. وتناولا بعده القهوة على المائدة. وقالت صوفي: «هل تمانع فيما لو ذهبت إلى المطبخ لأشكر السيدة ويفن؟ لقد بذلت مجهوداً كبيراً...»

نهض ريجيك واقفاً معها وهو يقول: «سوف آتي معك.»

ودمعت عينا السيدة ويفن وهي ترى العروس بثوب الزفاف واقفة تشكرها وقالت: «أتمنى لكما السعادة من كل قلبي. وأنت يا سيدي أرجو عودتكما دوماً لتأكلا من طعامي.»

قالت صوفي: «أتمنى ذلك. إن البروفسور يأتي كثيراً إلى هنا وسآتي معه.»

صعدت إلى غرفة نوم رائعة. كان الأثاث والأغطية منجدة بالساتان الوردي الذي كان يتألق تحت أشعة المصباح. وخلعت ثوب الزفاف ولفته بحرص. لم يكن ثمة داع لأخذه معها ولكنها لا يمكن تركه هنا.

ارتدت ملابس السفر، لقد كان اليوم بارداً وربما أشد برودة في هولندا. ووضعت في جيب معطفها شالاً وقفازات صوفية.

كان ريجيك واقفاً بانتظارها في القاعة يتحدث إلى بيرسي والسيدة ويفن وقد ارتدى بدلته الصوفية والمعطف الكشمير.

أسرعت صوفي الخطى وهي تقول: «هل تأخرت عليك؟»

أجاب: «كلا مطلقاً يا عزيزتي. أمامنا وقت كاف.»

ودّعت المرأة والفتى وهي تتناول من بيرسي باقة ورد صغيرة قدمها إليها، وهي تقول: «سأضعها في الماء حال وصولي لتذكرني بهذه الزينة الرائعة التي وضعتماها لأجلنا هذا المساء.»

خرج بيرسي والسيدة ويفن يلوحان بأيديهما لهما بينما ريجيك يبتعد بالسيارة.

كان الجو في لندن بارداً، ولاح لصوفي وهما يتركان هوك في الصباح التالي، أن البرد في هولندا أشد وأقسى،

www.elromancia.com

مع أن السيارة كانت دافئة. وقد توقفا لتناول القهوة في الطريق.

سألته صوفي: «كم يوماً إجازتك؟»

أجاب: «عندي عدة مرضى يجب أن أراهم خلال يومين، وبعد ذلك عليّ أن أكون في أمستردام لعدة أيام، ثم أعود إلى البيت لبعض الوقت.»

كان كلامه قليلاً، ولكن عينيه لم تكونا تفارقان وجه صوفي. وتكلفت صوفي الابتسام باهتمام قائلة: «أوه، طبعاً، لا بد أن عندك سكرتيرة رائعة ترعى مواعيدك.» وحدثت نفسها أن هذا ما توقعته على كل حال. فهو لم يكن عريساً عاشقاً، وعليها هي أن تنتبه إلى نفسها فلا تنقلب إلى عروس عاشقة. ولو لم تكن قد وقعت في حبه لرضيت تماماً بجوابه هذا.

تابعا طريقهما شمالاً شرق جسيلمير ثم إلى دراتشن وكان النهار قد بدأ يقترب من نهايته، عندما وصلا إلى البوابات التي تقود إلى موطنه. وكانا قد توقفا قبل زوول بعدة أميال حيث تناولا غداءهما في مطعم صغير بعيد عن الطريق العام. وكان غداؤهما نموذجاً للطعام الهولندي. عجة باللحم، وخبز وجبن ولحوم باردة وقهوة. وكان المطعم ممتلئاً بالزبائن تقريباً ودافئاً إلى درجة جعلت صوفي تتباطأ في الخروج منه لتعود إلى السيارة في ذلك اليوم الكئيب البارد. ولكن ما أن جلست في السيارة إلى جانب ريجيك حتى دبّ فيها النشاط من جديد. لقد كانا يبتدئان حياتهما الزوجية، وكانت مليئة بالرغبة في أن تحقق النجاح لحياتهما المقبلة هذه وكان هذا أقل ما يجب

أن تفعله، وبالطبع بشيء من التشجيع من جانبها، ربما مع الوقت يقع هو أيضاً في حبها.

تلقيا استقبالاً حاراً من «مات» الذي اندفع إليهما ليستلقي عند قدمي سيده، ثم «روك» و«تيسك» والخادمتين وكلهم كانوا ينتظرونهما خارجاً على الرغم من برودة الطقس.

كان الشاي بانتظارهما. وأسرعت صوفي بالنزول من غرفتها قدر استطاعتها لتجد ريجيك جالساً على كرسيه الهزاز قرب المدفأة، يتطلع في كومة من الرسائل. ونهض واقفاً حال دخولها واضعاً الرسائل من يده وسارعت هي بالقول: «يمكنك إنهاء قراءة رسائلك، فقد يكون فيها ما يهمك.» ثم جلست إلى جانب صينية الشاي وابتدأت تسكب الشاي شاعرة بشيء من خيبة لا مبرر لها عندما أطاعها عائداً إلى رسائله. ذلك أنهما كانا قد تزوجا أمس فقط.

شربت الشاي وأكلت شيئاً من الكعك الذي صنعته «تيسك» محاولة أن تظهر الشعور بالراحة والاسترخاء اللذين يبدوان على ريجيك وهو يطالع رسائله وكأنما هما متزوجان منذ سنوات. وما لبثت أن عادت إلى غرفتها الجميلة تخرج ثيابها من الحقائب وتوزعها في الخزانة والأدراج. ولم يكن أمامها ما تفعله سوى الاغتسال وتغيير ملابسها بالتنورة المخملية البنية وقميص حريري يناسبها. وعندما انتهت، جلست إلى النافذة تتطلع إلى الظلمة المنتشرة حول المنزل. تلك الظلمة التي كانت تتخللها حزمات النور الزاحفة من النوافذ العديدة. وسمعت نباح «مات» وما لبث

www.elromancia.com

ريجيك أن تتبعه. ونظر هذا إلى أعلى، وعندما رآها رفع يده ملوّحاً.

عند ذلك نزلت إلى الطابق الأسفل لتراه واقفاً بانتظارها وهو يقول برقة: «أظن بأنك متعبة. العشاء هو عادة في الساعة الثامنة أثناء وجودي هنا، ولكنني طلبت من «روك» أن يجهزه قبل ذلك. تعالي وخذي شيئاً تشربينه أولاً، هل غرفتك مريحة تماماً؟ أي شيء آخر تريدينه يمكنك طلبه حالاً.»

خامرها شعور غريب بأنها مجرد ضيفة في هذا البيت، حين أكدت له أنها ليست بحاجة إلى شيء. ثم أخذت الكأس الذي قدمه إليها. وشعرت ببعض الراحة، وقد بدا على ريجيك وهو يجلس متحدثاً عن الشراب وكأنه متزوج منذ سنين ومهما كان الأمر، فإن ريجيك كان في بيته حيث «روك» و«تيسك» يرعيان شؤونه.

كانت مائدة الطعام مغطاة بغطاء شامي، تتألق بالأواني الفضية والبلورية وتتوسطها الأزهار الجميلة المختلفة الأنواع ذات الشذا العطر. وكان البروفسور الذي كان قد بحث مع «روك» بالنسبة إلى أول عشاء لهما بعد زواجهما، في بيتهما يتطلع إلى تأثير كل هذا على وجه صوفي ليشعر بعد ذلك بالرضاء وهو يتبين الدهشة والسرور اللذين غمراها. وكان العشاء نفسه لذيذاً رائعاً. وأخذا يأكلان ببطء وقد شعرت صوفي بكل خيبتها ووحشتها تتلاشيان بوجود ريجيك وحديثه الرقيق. وعندما عادا إلى غرفة الجلوس لتناول القهوة بجانب المدفأة، قالت له: «ما أجمل العودة إلى البيت وما أحسن رعاية «روك» و«تيسك» لك.»

قال: «إنهما سيرعيانك بالعناية نفسها يا صوفي. وفي خلال أيام عندما تستكملين راحتك تماماً، ستأخذك «تيسك» في جولة حول البيت. وهي متلهفة إلى تفحص البياضات المنزلية وخزائن المطبخ معك. وسيقوم «روك» بالترجمة بينكما. ولكنني متأكد من أنه سيمكنك التصرف في كل هذا بنفسك بعد مدة قصيرة. وأظنك بحاجة إلى دروس في اللغة الهولندية. وسأرى في ما بعد ما أفعله بهذا الشأن. وغداً سنذهب لزيارة أفراد الأسرة الذين لم يحضروا حفل الزفاف. وإذا أحببت أن تصحبيني إلى ليواردن بعد غد، فسأريك المستشفى وأعرفك إلى رئيس المستخدمين حتى إذا حدث واحتجت إليّ يمكنهم أن يتدبروا الأمر حالاً.»

وافقت على كلامه بهدوء. ستكون الحياة غريبة عليها لبعض الوقت، ولكنها ستتعلم بسرعة. وفهمت أنه يتوقع منها أن تشتغل بأمورها الخاصة في غيابه. وعليها أن تتوخى الحذر من أن تتعدى على أسلوب حياته، ولكن أن تكون حاضرة عندما يريد صحبتها.

كل هذا يمكن له أن يتغير، ولكنه يتطلّب وقتاً. لقد نال هو ما يريد من نوع المرأة والزواج الذي أراد، وعليها هي الآن أن تغيّر من أسلوب تفكيره.

كانت صوفي تحدث نفسها بكل هذا وهي تختلس النظر إليه، تراقب قسمات وجهه بحب ولهفة، متمنية لو تستطيع التصريح بمشاعرها بصوت عالٍ... ولكن بدلاً من ذلك وبعد مرور فترة من الوقت، وقفت تتمنى له ليلة سعيدة، ثم انسحبت صاعدة إلى غرفتها. لقد فتح الباب لها وطبع على رأسها قبلة لحظة أن مرت به. وفي

فراشها، استعادت هذه الحادثة في ذهنها وهي تفكر في المستقبل.

كان عليهما أن يتناولا الغداء مع أخواته الثلاث اللواتي لم يحضرن حفل الزفاف. وقد رحبت بهما «سيسكا» وهي الشقيقة الكبرى، في منزلها لتجدهن صوفي، هن الثلاث هناك. لقد احتضن ريجيك وقبلن صوفي بحرارة وأخذن يسألنها عن كل تفاصيل حفل الزفاف. وتمنت «سيسكا» لو كانت قد حضرت الحفل، قائلة: «إنك تعرفين مرض الحصبة الذي منعني من ذلك ولكننا سنقيم احتفالاً عائلياً عند عودة أبي وأمي وبقية الأسرة. فهناك الكثير من الأعمام والأخوال وكلهم يتمنون مقابلتك.»

بعد أن طمأنت صوفي أخت زوجها بأنها سبق وأصيبت في طفولتها بمرض الحصبة أدخلتها لتريها الصغار ذكوراً واناثاً، وقد انتشرت البقع على وجوههم.

في ما بعد وهي في طريقها عائدة إلى البيت مع ريجيك قالت له: «ما أحسن أسرتك يا ريجيك... إنني أحب كل فرد منها.»

قال: «وهم يحبونك كذلك. وسترين الكثير منهم.»

تناولا طعام الفطور باكراً في الصباح حيث أنه كان على ريجيك أن يكون في المستشفى عند التاسعة. وجلست صوفي بجانبه في السيارة وقد تدثرت جيداً من برد الصباح القارس، متوجهين إلى ليواردن وقد أراها ريجيك مكان المستشفى وأخبرها عن الوقت الذي يجب أن تكون فيه بعد الظهر، ثم أعطاها حزمة أوراق، وطلب منها أن تذهب لتتنزه. وقد قامت بذلك فعلاً. كان هنالك الكثير مما يستحق

الرؤية. وقد أمضت وقتاً طويلاً في اختيار مختلف أنواع الصوف. فقد تمنت دوماً أن تجد وقتاً للحياكة، وها قد سنحت لها الفرصة الآن لذلك. واشترت أيضاً كانفا وأقمشة صوفية للتطريز وكذلك مفكرة وكتاباً اسمه «مرشد السياح في اللغة الهولندية» يمكن أن يكون ذا فائدة.

في اليوم التالي، ذهب ريجيك إلى أمستردام عند الفجر، ولما كان غير متوقع عودته قبل المساء، أمضت صوفي الساعات تتفحص خزائن البياضات التي كانت من الكثرة بحيث تبقى أبداً. وكذلك خزائن الأواني في المطبخ وغرفة المؤن. وأخيراً رأت المكان الذي تحفظ فيه الأسرة الفضيات. وحين عاد ريجيك كانت صوفي قد ابتدأت تشعر بأنها امرأة متزوجة تدير بيتها الخاص.

في اليوم التالي ذهبت إلى المطبخ وجلست إلى الطاولة مع «تيسك» بينما أخذ «روك» يترجم بينهما كل التفاصيل التي أخذت زوجته تخبر بها صوفي عن إدارة المنزل. لقد أحبت صوفي كل ذلك وكان على الموقد إناء تتصاعد منه رائحة شهية. وكان ثمة قطة مع جرائها في سلة قرب الموقد بينما كان «مات» جالساً بجانبها يراقبها بشغف بعينيه الصفراوين.

عندما عاد ريجيك كان يبدو مرهقاً، ولكن ذلك لم يمنعه من أن يحدثها عن يومه. وكانت تستمع إليه باهتمام وهي تحوك الصوف، وتسأله من وقت لآخر أسئلة منطقية متفهمة، بصوت هادىء رقيق. وبينما كان يحدثها عن تفاصيل علاج أحد المرضى، توقف فجأة ليقول: «هل أخبرتك مرة كم أنت فتاة مريحة يا صوفي؟ إنه ليسرني

www.elromancia.com

حضوري إلى البيت متوقعاً رؤيتك، عالماً أنني سأتحدث إليك وأنك ستستمعين إليّ بذكاء واهتمام، وأن الصداقة الحميمة التي بيننا تجعلك لا تترددين في تنبيهي حالما تشعرين بالملل من حديثي.»

قالت بحيوية: «أوه، سأفعل ذلك وإن كان هذا غير محتمل أن يكون.»

قال: «سأرتب الأمور لتتعرفي إلى بعض أصدقائي بحيث يصبحون أصدقاءك أنت أيضاً، وكذلك يجب أن تأتي إلى المستشفى.»

ابتسم فجأة وهو يقول: «ليس ثمة أحد يتوقع منا الظهور في المجتمعات قبل أسبوع أو أسبوعين.»

تكلفت ابتسامة حاولت فيها أن تبدي تفهماً كما يحدث بين الأصدقاء.

انتهى ريجيك من عمله في أمستردام وكان يتردد في نفس الوقت على ليواردن أو غرونيغن يومياً. وازدادت رؤيتها له. وكانا يتمشيان معاً في الأوقات المبكرة مع «مات» صحيح أنه كان يمضي أكثر وقته في غرفة المطالعة، ولكنه كان في البيت على كل حال، وابتدأت صوفي تشعر بالسعادة.

كان قد مضى على عودته من أمستردام عدة أيام، حين صممت على الذهاب إلى ليواردن ولما كان «روك» سيأخذ السيارة اللاند روفر لإحضار بعض الحاجيات فقد ذهبت معه مؤكدة له أنها ستذهب إلى المستشفى لتعود مع البروفسور. وأمضت بعد الظهر في التفتيش عن بعض الصوف والإبر للتطريز والحياكة، ثم

توجهت إلى المستشفى في الوقت المناسب لمقابلة ريجيك.

كانت في مقابل باحة المستشفى، تنتظر هدوء حركة السير، عندما لمحته خارجاً من مدخل المستشفى، ولم يكن وحده، بل كان بجانبه امرأة رشيقة طويلة القامة تنظر إليه ضاحكة. وكان هو يتأبط ذراعها بينما يتوجهان نحو سيارته. وأقفلت صوفي عينيها لتفتحهما ثانية. لم تخدعها عيناها، فقد كانا هما الاثنان في السيارة، لتتحرك هذه بهما خارجين من باحة المستشفى. وأكثر من ذلك، كان ذاهباً في الطريق المخالف لاتجاه بيته.

www.elromancia.com

الفصل السابع

أخذت صوفي تراقب النور الخلفي لسيارة ريجيك وهو يتلاشى، غير آبهة لدفع المارة لها، وهم في طريقهم مسرعين..

من تراها تلك المرأة التي كانت مع ريجيك وإلى أين كانا ذاهبين؟ كان واضحاً أنهما يعرفان بعضهما البعض. لقد كان ريجيك يضحك...

صرّت صوفي على أسنانها الجميلة، ثم التفتت إلى ما حولها تفتش عن رجل شرطة.

أوقف رجل الشرطة حركة السير لأجلها وهو يدلها على موقف الحافلات لا بد أن يكون هناك حافلة إلى «غراو» ولكن يجب عليها أن تسرع. وشكرت الشرطي شاحبة الوجه، ثم أسرعت خلال الشوارع لتجد الحافلة وكانت ممتلئة وعلى وشك التحرك. وعندما أصبحت في داخلها، مندسة بين عجوزين يحملان سلالاً تحوي أسماك الحنكليس تفوح منها رائحة نفّاذة. أخذت تفكر ماذا في استطاعتها أن تفعل في «غراو» فقد كانت «إيرنوود» تبعد أميالاً منها إلى نهاية الطريق الثانوي الذي يدور حول البحيرة. عليها إذن أن تأخذ سيارة أجرة.

تحدث إليها أحد الرجلين العجوزين لترد عليه بكلمات مهشمة بلغته، (إنني انكليزية) واتبعت ذلك بابتسامة، واندفع هو يتحدث دون توقف، وفكرت بيأس أن ما يتحدث به لا

يمكن أن تكون الهولندية وإنما لغة أهالي «فرايسلند» التي يبدو انها أكثر صعوبة من اللغة الهولندية. ونبه صوتها بعض ركاب الحافلة، لتسمع صوتاً يقول: «زوجة البروفسور «فان تاك تير ويجسما» الانكليزية.. أليس كذلك؟»

أجابت صوفي بارتباك: «نعم.»

عاد نفس الصوت يقول: «لماذا أنت في الحافلة؟ أليس عندك سيارة؟ هل أنت وحدك؟» وبان في صوت المتكلم صدمة وهو يستطرد: «أيسمح البروفسور بذلك؟»

بطبيعة الحال، في هذه المنطقة القليلة السكان من فرايسلند، لا بد أن يكون البروفسور معروفاً، فكرت صوفي بذلك، لتقول بوضوح: «كان عليّ أن أعود إلى البيت معه. ولكنني فقدته في «ليواردن» وهو سيأتي إلى غراو لاصطحابي.»

تمتمت لنفسها أن ذلك ليس محتملاً حدوثه. وبينما كانت تستمع إلى الأحاديث حولها كان يبدو عليها السرور.

كانت الحافلة تتوقف مراراً تبعاً لرغبات الركاب صاعدين وهابطين، وكانت القرى التي يمر بها قليلة العدد إذ كان يتبع الطريق الريفي، بعيداً عن الطريق العام. ولكن، ينبغي أن يكون هنالك مزارع. وفي الواقع، استطاعت أن تلمح من النافذة أنواراً متفرقة بعيداً عن الطريق. وبدت المنطقة موحشة وتمنت لو كانت في البيت قرب المدفأة تعمل بحياكة الصوف والتطريز. وكان الرجلان العجوزان ما زالا يقفان إلى جانبيها يتبادلان الحديث وكأنها غير موجودة. وابتدأت تتساءل،

أين هو ريجيك الآن؟ وهل إذا هي سألته في البيت عن ذلك، سيخبرها؟

وصلت الحافلة إلى «غراو» فنزلت صوفي منه، وكان عليها أن تجد سيارة أجرة. ونظرت إلى ما حولها لتجد «ريجيك» خلفها مباشرة.

صعقتها المفاجأة ولكن، للحظة واحدة فقط إذ اندفعت تقول: «لقد ذهبت إلى ليواردن مع روك بغرض لقائك في المستشفى، ولكنهم أخبروني انك خرجت، وهكذا اضطررت لأخذ الحافلة و...»

وضع يده على ذراعها قائلاً: «لقد تركت المستشفى مبكراً، وإنني آسف إذ تعرضت لمثل هذه الرحلة في هذا البرد.» وكان يقودها، وهو يتكلم نحو السيارة.

قالت: «لقد استمتعت بها. كان الجميع حولي يتحدثون دون أن أفهم كلمة واحدة. كيف علمت أنني ممكن أن أكون في الحافلة؟»

قال: «لقد كان روك متوقعاً أن تكوني معي. وأنا أعرف أنك كفتاة ذكية ستفكرين في أن تعود بنفسها. وبما أن هذه هي آخر حافلة تغادر إلى غراو فقد توقعت أن تكوني فيها. وهكذا رجعت إلى السيارة وجئت إلى هنا.»

قالت: «لقد كنت على وشك أن أستقل سيارة أجرة.»

كانت السيارة دافئة، وكانت هي تجلس بكل راحة. كانت تنتظر منه أن يخبرها لماذا خرج مع تلك الفتاة. ولكن، لم يبد عليه أنه سيفعل. مع أنه كان صامتاً، وبالتالي كانت ثمة فرصة لذلك. ولكنه قال يتكلم بموضوع آخر غير الذي تريده: «إن المستشفى سيقيم حفلة استقبال على شرفي في

الاسبوع القادم.» ثم اضاف: «وقد اتصلت أمي هاتفياً اليوم، فقد عادوا من السفر وسيكون هناك حفلة عشاء عائلية في حوالي الاسبوع القادم، وستستمتعين بذلك. أليس كذلك يا صوفي؟ ربما كانت الحياة كئيبة نوعاً ما بالنسبة إليك هنا؟»

قالت: «كئيبة؟ كلا أبداً، إنها ليست كذلك، ولكن النهار قصير وأنا دوماً مشغولة وإن كانت مشاغلي دون فائدة تذكر.»

قال: «إنني مسرور لأنك سعيدة هنا. سمعت أن الجو البارد مع هطول الثلوج، هو متوقع. وهذا يعطينا فرصة للتزلج.»

قالت: «ولكنني لا...»

أوقف السيارة أمام باب المنزل، ثم استدار ينظر إليها قائلاً: «سأعلمك ذلك.. إنها رياضة رائعة. وسيأخذ الأولاد إجازة استثنائية من المدارس.»

وصلا إلى البيت، فخرج من السيارة يساعدها على الخروج والسير فوق الجليد حتى الباب. وأومأ بالتحية «لروك» حين دخل. ولكنه لم يحاول خلع معطفه.

قال: «عندي اجتماع في ليواردن هذا المساء. هل يسوءك تناول العشاء وحدك؟ إذ إنني قد أعود متأخراً.»

كان ذلك يسوءها كثيراً، ولكنها لم تقل له ذلك بل قالت: «وأين ستتعشى؟»

أجاب: سنتناول هناك بعض الشطائر والقهوة. وكذلك روك سيحفظ لي شيئاً من الطعام في الثلاجة. لا تنتظريني يا عزيزتي.»

www.elromancia.com

طبع على وجنتها قبلة عادية قائلاً: «سأراك في الصباح.»

أخذ معه مات مما أشعرها بالمزيد من الوحدة أثناء العشاء وبعده، حيث جلست إلى المدفأة تحوك الصوف بتوتر.

صعدت إلى فراشها مبكرة إذ أنه أوضح بجلاء أنه لن يراها عند عودته. وبقيت مستيقظة إلى أن سمعت صوت سيارته تحت نافذتها، ومن ثم صوت خطواته الهادئة تدخل المنزل.

تمتمت صوفي ودموعها تغرق الوسادة، «لقد أفسدت كل شيء.» وفي الصباح إلى مائدة الفطور، كانت تبدو متألقة منشرحة الصدر. وأعطت ملاحظة مختصرة عن الاجتماع دون انتظار جواب منه. وسألها هو عما تنوي القيام به لهذا النهار فأخبرته بأنها ستقوم بجولة في الطابق العلوي، ثم تأخذ مات خارجاً للتريض، فتعود قبل حضور شقيقه «لويرت» الذي اتصل هاتفياً قائلاً إنه سيزورها.

بدت الدهشة على ريجيك وقال: «سأكون في المنزل باكراً هذا المساء بالتأكيد.»

قالت صوفي برقة: «ما أجمل هذا.» ورأته ينظر إليها مفكراً، فاستطردت: «أتظن المطر سيتساقط هذا النهار؟»

أجاب: «محتمل جداً. والأفضل أن لا تذهبي قريباً من البحيرة فقد ابتدأت تتجمد. ولكنها لن تكون آمنة قبل عدة أيام. ونهض واقفاً من حول المائدة وناولها مجموعة من المغلفات. قائلاً: «إنها دعوات. هل لك بإلقاء نظرة عليها وسنقرر ما الذي ينبغي عمله بشأنها.»

منحته ابتسامة بالغة الاشراق وهي تقول: «بالطبع سأفعل.»

وصل لويرت قبل الغداء مباشرة. وقال لها بسرور: «إنني غائب عن الكلية، إذ ستبتدىء الامتحانات في نهاية الاسبوع وأظن ان الابتعاد عن الكتب ليوم واحد قد يفيد.»

سألته وهي تسير معه إلى غرفة الجلوس: «وما نوع تلك الامتحانات؟» وجلسا معاً أمام المدفأة يتناولان القهوة.

أجاب: «إنها عن أمراض الأنف والحنجرة والأمراض النسائية.»

قالت وهي تناوله كوب القهوة: «أتظن بأنك ستنجح؟»

ابتسم مكشراً. وفكرت وقلبها يخفق، أن ريجيك لا بد كان يبدو بهذا الشكل عندما كان أصغر سناً. وقال هو: «أظنني سأنجح، لأصبح مثل «ريجيك» ولماذا لا؟ إنه إنسان نابغة بالطبع ولو أنه سيضربني لو سمعني أقول ذلك.» ونظر إلى صوفي وقد بان عليه الجد، للحظة ثم استطرد: أتعرفين أنه شخص رائع؟ طبعاً أنت تعرفين ذلك، فأنت زوجته.» وناولها الكوب يطلب المزيد من القهوة وتناول قطعة بسكويت مستطرداً: «لقد كنا ابتدأنا نقول إنه لن يجد لنفسه زوجة ثم كنت أنت الجواب لصلواتنا. ملاك جميل وغالٍ.»

فقالت صوفي ضاحكة: «إنك ستملأني غروراً. ولكن هذا لطف منك وأشكرك على هذه المجاملة.»

قال لويرت وهو يبتسم مرة أخرى: «ولكن، لا بد أنك تسمعين من ريجيك ما يكفي من هذا.»

احمر وجهها قليلاً، وهي تتذكر الأشياء التي كان يقولها لها قبل الزواج. لم يكن فيها شيء من الشاعرية أو الخيال، بالطبع ولكنها كانت حلوة على كل حال. ومن المؤسف أنه لم يعد يكرر أياً منها الآن بعد الزواج. كان يبدو عليهما

www.elromancia.com

وكأنهما استكانا إلى الحالة التي يكون عليها زواج المسنين، وذلك في خلال أسابيع...

كانت تستمع إلى أحاديث لويرت المرحة وهي تفكر في ما ينبغي عليها عمله في هذا الشأن. لو لم تكن قد وقعت في غرام ريجيك لما همها الأمر ولتركت حياتهما تسير كما يشاء هو، صحبة ممتعة، مضيفة لزائريه وعدم اهتمام بحياته الخاصة. إنها تحبه الآن مما يجعل الأمور مختلفة تماماً. والآن، لا بد لها من أن تفعل شيئاً لإصلاح هذه الأمور. وقال لويرت: تبدو عليك العصبية. هل تشعرين بصداع؟»

قالت: «كلا، كلا... وإنما أحاول أن أتذكر ما إذا كان مات قد تناول فطوره قبل أن يخرج مع ريجيك. آسفة لأنني لم أكن أستمع. أظنك كنت تخبرني عن تلك الممرضة الشقراء في العيادة الخارجية. هل هي جميلة جداً؟»

استغرق وصفه لشقرائه ذات العينين الزرقاوين بعض الوقت. ولكنه قال لها في النهاية بلهجة حازمة: «ولكنني لست جاداً بطبيعة الحال، فإنه سيكون عندي ما يكفي من الوقت لذلك كله بعد تخرجي واستقرار أحوالي. أنظري إلى ريجيك الذي كان دوماً له صديقات، ولكنه لم يفقد نظرته الواقعية إلى الأمور لأنه صمم على أن يصل إلى القمة قبل أن يستقر نهائياً. ولو وصلت أنا إلى نصف ما وصل هو إليه عندما أكبر، فسأكون راضياً تماماً.» ثم تنهد.

احتجت صوفي: «ولكن ريجيك ليس كبير السن.»

قال: «كلا، كلا، إنني أعرف ذلك، فهو أكبر مني بإحدى عشرة سنة، وثماني سنوات من «لويرت» الذي يعتبر ناجحاً

هو أيضاً. ولكن ريجيك هو مثلنا الأعلى. لقد حقق لنفسه شهرة وإسماً.»

قالت: «إنني متأكدة من أنك ستنجح. هل ستختص بفرع ما؟»

قال وقد شرد ذهنه في رؤى مستقبله الوردي: «ولو أنني لن أصبح بمستوى ريجيك.» وأضاف بخجل: «ولكنني أرجو أن أصادف من هي بمستوى جمالك لأتزوج منها.»

قالت: «شكراً يا لويرت.. لا بد أنها ستكون فتاة محظوظة.»

وقفت قائلة: «هل نتمشى قليلاً قبل الغداء؟ لقد قال ريجيك إن الثلج قد يتساقط.»

سارا حتى البحيرة حيث وقفا يتطلعان إلى المياه الباردة الرمادية اللون. وقال لويرت: «إن الثلج سيتساقط حتماً. أنظري إلى تلك السحب.»

كان الأفق متلبداً بسحب رمادية مصفرة تسوقها رياح قوية. ولم يتأخرا في الخارج بل عادا إلى البيت حيث تناولا طعام الغداء. وكانا جالسين يتناولان الشاي بجانب المدفأة عندما دخل ريجيك البيت. ونظرت إليه مبتسمة له لحظة دخوله، وانحنى هو يقبل وجنتها قبل أن يحيي شقيقه.

قال لويرت: «لقد أمضيت يوماً رائعاً. لم أكن أظن أن زوجة الأخ يمكن أن تكون بهذا المرح. أرجو أن تدعوني دوماً إلى هنا...»

قال ريجيك: «يمكنك الحضور متى شئت. هل ستتناول العشاء معنا؟»

www.elromancia.com

قال لويرت: «لقد وعدت أمي بالعودة إلى البيت، فالأفضل أن أذهب الآن قبل أن تظن أنني نسيت.»

نهضت صوفي واقفة، فقبلها بسرور قائلاً: «سأبقى في المرة القادمة للعشاء إذا دعوتماني لذلك.»

قالت: «لقد استمتعت بصحبتك هذا النهار، حاول أن تنجح في امتحاناتك وسنقيم لك حفلة عشاء.»

خرج ريجيك معه بينما عادت هي إلى مقعدها وتناولت الصوف تحيكه لتبدو أمام ريجيك، حين عاد إلى الغرفة، كأية عاملة رصينة تعمل بهدوء.

قال بهدوء: «إنني مسرور لاستمتاعك بوقتك، فإن لويرت فتى مرح. هل وجدت وقتاً للنظر في بطاقات الدعوة؟»

أجابت. نعم. لقد فعلت. وهناك دعوة من والدتك تدعونا للعشاء الأسبوع القادم.»

قال: «ستكون كل الأسرة هناك، الأعمام والأخوال، وأبناء العم. وأيضاً الجدة. وهذا يذكرني بأنني فتحت لك حساباً في المصرف الذي أتعامل معه فقد تحبين أن تشتري بعض الملابس.»

ناولها دفتر شيكات ففتحته بهدوء. كان يشبه كثيراً دفترها هي. وقد ذكر على أول صفحاته مبلغاً معيناً من المال. وقال ناظراً إليها: «هذا المبلغ لك كل ثلاثة أشهر. وإذا احتجت إلى مزيد من ذلك يمكنك أن تطلبي.»

رفعت إليه عينين منزعجتين قائلة: «هذا المبلغ هو ثروة.»

قال: «ستحتاجين كل قرش منها، إذ لا يليق بك أن تظهري بنفس الملابس مرات عديدة. إن ملابسك جميلة يا

صوفي، ولكنني لا أحتمل أن يقول أصدقائي إنني لا أعطيك نقوداً كافية.» وابتسم لها وهو يستطرد: «أتريدين أن تتسوقي في لندن أم في دينهاغ؟ سأذهب معك عندما تريدين ذلك.»

قالت: «كلا. كلا، هناك حوانيت جميلة في ليواردن، سأذهب لإلقاء نظرة عليها. لقد أحضرت معي ثوباً أو ثوبين ولكنني لا أظن انهما فخمين لدرجة كافية.»

اجتاز الغرفة إليها يمسك بيديها قائلاً: «ليس ثمة حاجة إلى أن تكون الملابس فخمة يا عزيزتي، إنما سيكون هناك حفلات عشاء، وحفلات شاي، وحفلات قهوة، لا نستطيع رفضها. ألا تحبين ارتداء الملابس الجميلة؟»

ابتسمت له قائلة: «لم يسمح لي الحظ كثيراً بذلك. ولكنني أظن أنني سأستمتع بذلك ما دامت لا تتكرر كثيراً.»

قال: «أعدك بذلك. إنني لست اجتماعياً أيضاً. فقط الآن، حيث أصبح عندي زوجة، سيوجه إليّ أصدقائي ومعارفي الدعوات.»

أقبل «روك» يأخذ صينية الشاي وقد جاء معه «مات» مسروراً برؤية صوفي. يحرك ذيله طالباً نزهة المساء.

قالت صوفي تخاطبه: «سآتي معك.» وارتدت معطفها وخرجت في ظلمة المساء. ولفحها الهواء البارد، بينما كان ريجيك آخذاً بذراعها.

قال بسرور وهو يرى الثلج يبدأ بالتساقط: «لقد سبق وتنبأت بقرب سقوط الثلج.»

سارا مسرعين ناحية البحيرة ثم عادا بينما «مات» يتواثب هنا وهناك نابحاً بسرور.

www.elromancia.com

دخلا يتناولان العشاء ويتناقشان في أي من الدعوات ينبغي قبولها. ثم يعودان إلى غرفة الجلوس يتصفحان الدعوات مرة أخرى. وسألته: «من هي إيرينا فان مورين؟ لقد وضعت ملحوظة صغيرة أسفل البطاقة لم أفهمها.»

قال: «إيرينا؟ إنها صديقة قديمة جداً. يجب أن نقبل دعوتها.» ومد يده يتناول البطاقة وينظر إليها قائلاً: «لقد كتبت (يجب أن تأتي إكراماً للمعرفة القديمة)» ونظر في التاريخ وتابع: «يجب أن أجتهد في أن أكون فارغ العمل. إنك ستحبينها.»

أجابت على ذلك برقة. وحدثتها نفسها بأنها ستكرهها. وماذا يعني (إكراماً للمعرفة القديمة). وماذا لو كانت هي التي رأتها مع ريجيك ذلك اليوم!

جلست بهدوء دون أن تنظر إليه، ولو كانت فعلت ذلك لأدهشتها النظرة التي بدت على وجهه وهو يراقبها.

عندما نهضت من فراشها في الصباح، كانت الثلوج تتساقط بكثرة وتغطي كل شيء في الخارج. ونزلت لتتناول الفطور لترى روك في القاعة. وقال لها بحنان الأب: «لقد ذهب البروفسور باكراً إثر اتصال هاتفي عاجل في الساعة الرابعة صباحاً.»

قالت: «وكذلك عنده عمليات هذا الصباح ابتداء من الساعة التاسعة. أرجو أن يستطيع تناول شيء من الفطور...»

«لا بد من أنه سيتوفر له ذلك في المستشفى. هل أحضر لك القهوة؟ يجب أن تتناولي الفطور.»

عندما وضع القهوة بجانبها سألته: «إنك تتكلم الانكليزية جيداً يا روك. هل سبق وكنت في انكلترا؟»

أجاب: «كلا يا سيدتي. وإنما كنت مع والد البروفسور أثناء الاحتلال، طبعاً تحت الأرض، وعملنا معاً في تهريب المسجونين والمقاومة السرية.»

مدت يدها هاتفة: «أوه، روك، إنني فخورة بك.» فأخذ يدها يهزها بتأثر وهو يقول: «شكراً يا سيدتي. أتريدين بيضة مسلوقة؟»

كانت على وشك الانتهاء من الإفطار عندما اتصل بها ريجيك هاتفياً: «صباح الخير يا صوفي. هل نمت جيداً؟»

قالت متلعثمة: «أنا؟ نمت؟ أوه.. نعم. شكراً. هل نجحت العملية؟»

أجاب: «أظن ذلك. والثماني والأربعين ساعة القادمة ستقرر ذلك.»

سألته: «هل تناولت الفطور؟»

أجاب: «أوه، نعم.» وخيل إليها أنه يضحك. وتابع «سأذهب إلى غرفة العمليات بعد دقائق. انتبهي إذا أردت الخروج وارتدي ملابس داخلية صوفية وتجدين منها في خزانة المطبخ. وخذي مات معك.»

قالت: «نعم، سأفعل. هل ستكون هنا في وقت تناول الشاي؟»

لقد حاولت جهدها أن يكون صوتها هادئاً.

أجاب: «غير مؤكد. وسأعلمك بذلك في ما بعد.»

أقفل الهاتف، ووضعت هي السماعة ببطء. إن من الحماقة أن تشعر بالرغبة في البكاء دون سبب. ومسحت

www.elromancia.com

أنفها الجميل، وذهبت إلى غرفتها لتقوم بعمل صعب ولكنه ضروري وهو اختيار ما ستلبسه لهذا النهار.

ابتدأ الثلج بالهطول بينما كانت هي خارج المنزل مع مات مما جعلها تشعر بالسرور لارتدائها الملابس الصوفية الداخلية. فقد كان البرد قارساً والأرض متجلدة. ونزلت إلى البحيرة تسلك الطريق الذي ينحدر بجانبها، والذي يقود إلى القرية. وكانت مياه البحيرة القاتمة تعكس لون السحاب المتراكم فوقها في السماء. وكانت الثلوج تتراكم حولها.

قالت تخاطب مات: «إنه يوم حقيقي من أيام الشتاء. وإنني أحبه وأشعر بنفسي داخل لوحة مرسومة تمثل روعة الطبيعة.»

في القرية، دخلت حانوتاً حيث اشترت طوابع بريدية ولوحاً من الشوكولاتة. وكانت تجيب على التحيات بلغتها الهولندية المهشمة بينما تتلقى الابتسامات والإيماءات. كانت صاحبة الحانوت امرأة متقدمة في السن ترتدي ملابس سوداء، وقد عقدت شعرها إلى الخلف. واختفت عيناها الزرقاوان اللامعتان تقريباً بين تجاعيد وجهها، وانطلقت بالحديث غير عابئة ما إذا كانت صوفي تفهم كلمة واحدة من بين عشرين كلمة. ولكنها أظهرت لها المودة وعندما كان الزبائن يدخلون، كانوا يشاركون في الحديث، أيضاً، ببعض الكلمات.

خرجت صوفي مسرورة وهي تمضغ الشوكولاتة وتطعم منها «مات» الذي كان يمشي ملاصقاً لها إلى حين وصولهما إلى الطريق المؤدي إلى البيت.

كان «روك» يزيح قشرة الثلج عن النوافذ. عندما اتصل

ريجيك هاتفياً بعد الظهر. وخطفت صوفي سماعة الهاتف هاتفة: «متى ستأتي إلى البيت يا ريجيك؟»

أجاب بهدوء: «أخشى أنني سأتأخر. فعندي عملية أخرى بعد وقت قصير. وسآكل شيئاً هنا. لا تنتظريني. ماذا فعلت اليوم؟»

قالت: «لقد خرجت مع مات قرب البحيرة، ثم إلى القرية، وبعد الظهر اشتغلت ببعض الحياكة...» وسكتت فجأة وقد انتبهت إلى أنها تعطي عن نفسها صورة بليدة سرعان ما تتحول بعدها إلى امرأة تافهة، فيتملكه الضجر منها... فسارعت تقول: «وإنني أتطلع إلى الوقت الذي أبدأ فيه بأخذ دروس في اللغة الهولندية.»

قال: «سأتدبر الأمر. إنني أعرف شخصاً يصلح لذلك. ماذا تحيكين؟» كانت لهجته من الرقة والحنان بحيث شعرت بالدموع تجول في عينيها. وتمتمت: «إنها سترة لك.»

فهتف: «هذا أحسن ما سمعت هذا النهار.»

كان بانتظارها على مائدة الفطور عندما نزلت من غرفتها في اليوم التالي. وحياها ببشاشة وهو يقف ويقدم لها كرسياً قبالته.

جلست صوفي وسكبت لنفسها القهوة وهي تسأله: «هل تأخرت كثيراً أمس؟»

مع أنها بقيت ساهرة إلى أن سمعت خطواته في القاعة في حوالى الثانية عشرة من ليل البارحة، إلا أنها لم تشأ أن تقول له ذلك.

أجاب: «أكثر مما تصورت. فالثلوج تملأ الطرق الريفية، مع أن الطرق العامة مفتوحة حالياً.

www.elromancia.com

قالت: «أوه، وهل سيستمر تساقط الثلوج؟»

أجاب: «نعم. وقد انخفضت درجة الحرارة. ويمكننا أن نبدأ التزلج في نهاية الأسبوع.» وناولها كوبه لمزيد من القهوة، وقال متابعاً: «لا تحاولي الذهاب إلى البحيرة يا صوفي، فقد يبدو لك أن الثلج صامداً إلى حد كاف ولكنه ليس آمناً تماماً.»

قالت: «هل ستحضر على العشاء؟ أريد أن أعرف كي تستطيع تيسك أن تقرر ما ستطهوه.»

أجاب: «سأكون هنا حوالي السادسة، فاخبري تيسك بذلك. ستتصل بك اليوم السيدة ميغرو سميث لأجل دروس اللغة الهولندية.»

قالت: «أوه، شكراً يا ريجيك هل ستأتي هي إلى هنا أم سأذهب أنا إليها؟»

قال: «يمكنكما تدبر الأمر معاً. وستكون ثمة سيارة تحت تصرفك خلال أيام قليلة. وأنا أقترح أن تنتظري تحسن الطقس قبل أن تقودي سيارة بمفردك، فالطرق رديئة جداً حالياً.»

عند خروجه وضع يده على كتفها مودعاً دون أن يقبلها.

ناولت صوفي «مات» بقية خبزها، ثم نهضت ودخلت المطبخ، إذ أن من الأفضل أن تبقي نفسها في انشغال دائم. يجب عليها أن تجيب على الدعوات، هذا الصحيح، ثم تأخذ «مات» إلى النزهة بعد الغداء. وهناك حفلة العشاء العائلية التي يجب أن تفكر فيها أيضاً.

توقف هطول الثلج في الصباح، وبعد الغداء، لبست

معطفها ووضعت على رأسها قبعة صوفية، ودست يديها في قفاز سميك كانت قد ابتاعته من «ليواردن» ومن ثم انطلقت بنشاط ناحية القرية مع «مات.» كان الجو قارس البرد والأرض لزجة تحت قدميها، ولكن الهواء كان منعشاً. وعندما وصلت إلى القرية، كانت الحوانيت القليلة منارة، وناداها أصحابها الذين سبق لها ورأتهم، محيين. وكان هنالك نور في الفندق أيضاً، وفكرت في أنه سيستقبل كثيراً من الزبائن عندما يبدأ التزلج على الجليد. فقد كان مركزاً رياضياً برغم صغره.

واشترت لوحاً من الشوكولاتة «لمات» ولما كان ضوء النهار لم يتلاش بعد، فقد صممت على العودة في الطريق الملاصق للبحيرة.

أثناء الليل، كانت مياه البحيرة قد أصبحت جليداً. وبدت صلابتها مناسبة، ولكنها تذكرت ما قاله لها ريجيك. ذلك انه عندما يعلن عنها أنها آمنة، فسيمتلىء وجه البحيرة بالمتزلجين. لقد أخبرها ريجيك أنها ستجد البحيرة مناسبة للتزلج، ولكن الشك راودها. لقد بدت البحيرة باردة وموحشة.

انحرف الطريق عن البحيرة مسافة قصيرة، ثم استدار عائداً إلى البحيرة. واستطاعت الآن رؤية أنوار المنزل، وخلال دقائق قليلة، ستجتاز البوابة الخشبية الصغيرة إلى الباحة، حيث سيكون الشاي بانتظارها وربما، كذلك، إتصال هاتفي من ريجيك.

فجأة، صعقها في مكانها زعيق مفاجيء. كان هناك قبالتها بعض الأولاد يقفون بشكل خطير على حافة البحيرة

www.elromancia.com

ويصرخون. لقد كانوا يمرحون ويلعبون إلى أن اندفع واحد منهم إلى الثلج وأخذ يركض.

ركضت صوفي هي أيضاً، ولما وصلت إليهم، كان الثلج قد بدأ يتكسر ليبدأ الصبي بالإختفاء شيئاً فشيئاً. وساد الأولاد الصمت وقد بلّدتهم الصدمة. واستدارت هي إلى أقرب مكان تنادي «النجدة» وجمعت ما تعرفه من كلمات هولندية لتقول للأولاد: «اذهبوا ونادوا من تجدونه بسرعة.»

نظر إليها طفل في السادسة أو السابعة بخوف، ثم ركض يتبعه بقية الأولاد، بينما خلعت هي معطفها وحذاءها وأخذت تعبر البحيرة، ليتكسر الثلج في الحال تحت وزنها.

اندفع «مات» منزلقاً إلى جانبها ليضرب الماء المثلج بقوة. وكان الصبي الغريق يقف الآن، وقد بلغ الماء صدره، يزعق دون أن يتحرك من مكانه. وسكت الصبي عندما وصلت إليه وقد أزرق لونه واصطكت أسنانه من البرد. ووضعت حوله ذراعها المثقلة بالماء المجلد وهي تقول محاولة الإبتسام بوجه قد قلصه البرد: «تعال. سنعود معاً. لا تخف.» ولكنه لم يتحرك. وتذكرت أنها هي أيضاً ستصبح مثله خلال دقائق، فقد بدأ الخدر يزحف إلى ساقيها، وفي وقت قصير جداً لن تستطيع استعمالهما.

بقي «مات» ملاصقاً لها، وقالت له برجاء، غير متأكدة مما سيحدث: «اذهب واحضر سيدك يا مات.»

تردد الكلب في تركها، ولكنه ذهب مخبطاً الثلج المتكسر ليركض بعد ذلك قافزاً من فوق البوابة، ليصل إلى البيت.

راقبته وهو يبتعد، ثم ابتدأت تناضل ضد البرد القارس.

فأخذت نفساً عميقاً ثم أخذت تصرخ طالبة النجدة. لا بد أن يسمعها أحد في هذه الأمسية الهادئة.

كان ريجيك يوقف سيارته أمام الباب حين وصل «مات» فقال له بحدة: «إنك مبتل.. لقد كنت في البحيرة إذن.» ووضع يده عليه ولكن مات نفضها عنه وهو ينبح بضراوة، ثم تحول راكضاً حول المنزل.. ليظهر بعد لحظة وهو ما زال ينبح راقصاً بغير صبر حول سيده، يركض متعثراً مرة أخرى.

كان البروفسور خفيف الحركة سريعها على الرغم من حجمه، فركض يسابق «مات» مجتازاً البوابة ليقف أمام البحيرة في الوقت الذي كانت صوفي تصرخ فيه. وكان «مات» قد أصبح في الماء. وسرعان ما خلع «ريجيك» معطفه وقفز خلفه. لقد كان الماء متجلداً تماماً.

قالت صوفي وهي تصر على أسنانها: «ساقاي...»

أجاب: «أعرف ذلك. سأحيطكما أنت والصبي بذراعي... إنها فقط ياردات قليلة.»

كانوا قد قطعوا منتصف المسافة عندما وصل الرجال يحملون الحبال والمصابيح اليدوية، وأخذوا يخوضون في المياه، وعندما أخذ واحد منهم الصبي بين ذراعيه أخذ رجل آخر صوفي من ذراعها لينقلاهما معاً، هي وريجيك إلى الضفة.

قال ريجيك شيئاً للرجال، ثم حمل صوفي وانطلق بها نحو المنزل ومعه الرجل الذي يحمل الصبي بينما «مات» يتواثب بجانبه. وكذلك ركض أمامهما الرجل الآخر.

كان الباب الذي يقود إلى المطبخ مفتوحاً يتدفق منه

الضوء، بينما روك كان واقفاً ينتظر. وقال له البروفسور شيئاً لينطلق خارجاً ثم يعود بعد دقائق يحمل عدداً من الحرامات. وبعد ذلك بلحظات كانت تيسك قد خلعت ملابس الصبي بمساعدة أحد الرجال، ثم لفته بحرام كما لفت جسم صوفي المبتل بأكثر من حرام، ثم وضعا بحرص على كراسي قش بجانب الفرن.

دون أن يقول شيئاً، مشى ريجيك إلى الصبي بينما أخذت «تيسك» مكانه بجانب صوفي وخلعت عنها جواربها ثم أخذت تدلك لها ساقيها وقدميها بمنشفة، وهي تكلمها بحنان بينما كانت صوفي تعض على شفتيها تحاول منع نفسها من البكاء إذ شعرت بالحياة تدب فيها من جديد. وحوّلت رأسها لتنظر إلى الطفل، وسألت: «هل الصبي بخير؟» فأومأت تيسك برأسها وهي تبتسم متابعة التدليك.

بدا المطبخ غاصاً بالناس، وقد حضر والدا الصبي وكان الطفل قد جلس ومضى يشرب الحليب الدافىء، وهو ما زال يبكي ويرتجف. وكان البروفسور قد أجرى اتصالاً هاتفياً من هاتف في زاوية المطبخ، والولد جالس على ركبتي والده وهو ما زال يبكي.

رفعت صوفي أنظارها نحو ريجيك تسأله: «هل الصبي بخير؟»

أجاب: «حالته حسنة جداً، وسأرسله إلى المستشفى في غراو ليلة واحدة حيث يبقى تحت المراقبة هناك. وفي استطاعة والده أن يستعير سيارة اللاند روفر.»

ابتسم لها قائلاً: «سآخذك إلى غرفتك حيث تساعدك تيسك في الاغتسال بماء دافىء ثم تضعك في فراشك.»

وستأتي اليك الخادمة بشراب دافىء.» وتفحصت عيناه وجهها وهو يتابع: «وستشعرين بالتحسن بعد ليلة مريحة.»

قالت: «ولكن.. إنك أنت أيضاً مبلل الثياب.» فوقف وقبلها على رأسها المبتل قائلاً: «إننا جميعاً بخير.»

سألته: «هل مات بخير؟»

أجاب: «إن روك يدلك له جسمه. ويطعمه. ويمكنه المجيء لرؤيتك الآن.»

حملها صاعداً بها إلى غرفتها، بينما أسرعت تيسك أمامه تفتح له الباب وتفرش حراماً على الفراش.

قال لها: «سأعود.» ثم خرج من الغرفة.

بعد ذلك بنصف ساعة، كانت تجلس في الفراش وقد عاد إليها الدفء، وقد ربط شعرها الذي غسل حديثاً إلى الخلف، وهي تشرب الحليب الدافىء، بينما كانت تيسك تجول في أنحاء الغرفة تعيد تنظيمها وترفع الثياب المبتلة.

عندما قرع ريجيك الباب، دخل معه مات متقدماً نحو الفراش حيث أقعى يتطلع إلى وجه صوفي وقد تدلى لسانه خارجاً ومضى يلهث مغتبطاً.

قالت له صوفي وهي تربت على رأسه: «إنك كلب شجاع.» وكانت بذلك تشغل نفسها إذ تشعر بالخجل من ريجيك الذي جلس على حافة سريرها.

تناول يدها، ولكن ليراقب نبضها فقط، وكانت تصرفاته ودية خالصة لا تحمل أي معنى شخصي. وسألها: «هل تشعرين بتحسن؟»

أجابت: «إنني بأتم خير وأشعر أنه ليس لي أن أكون في فراشي.» وجلست مستقيمة وهي تتابع: «أشكرك يا ريجيك

لإنقاذنا. لقد تصرفت بسرعة... لم يكن باستطاعتنا الحراك... إنك تعرف...»

كان ما يزال ممسكاً بيدها وهو يقول باسماً: «كان البرد شديداً، أليس كذلك؟»

قالت: «بالتأكيد، هل غيّرت أنت ملابسك؟ كيف حال الصبي؟»

أجاب: «لقد ذهب إلى المستشفى. ليمضي ليلة واحدة وقد طلب مني والده ووالدته أن أخبرك بأنهما سيبقيان مدينين لك بقية حياتهما.»

قالت: «لقد كنت خائفة عليه...»

قال: «وهذا يضاعف من شجاعتك.» ووضع يدها على الغطاء متابعاً قوله: «ستتناولين عشاءك في الفراش ثم تنامين.»

وقف مشرفاً عليها بقامته المديدة، وهو يقول: «سآتي لأتفقدك في ما بعد للإطمئنان إلى أنك نائمة.»

سألته: «أليس عليك الذهاب إلى أي مكان. هل ستبقى هنا؟»

أجاب: «سأكون هنا.» وخرج بهدوء يتبعه مات.

أحضرت إليها الخادمة العشاء. وكان مؤلفاً من حساء، ودجاج بالقشدة، وبطاطا مهروسة. وأكلت الجميع بشهية عارمة، وعندما عادت الخادمة لتأخذ الصينية، أخبرتها بأنها لا تريد شيئاً آخر.

كان المنزل دافئاً بالغ الهدوء. وقد حجبت الستائر المسدلة على النوافذ الظلمة الباردة في الخارج. وأغلقت صوفي عينيها واستسلمت للنوم.

وقف ريجيك، الذي جاء ليطمئن عليها، ينظر إليها لعدة دقائق. كانت متجمعة في فراشها وقد استندت بوجنتها على يديها، وانفرجت شفتاها الجميلتان قليلاً. وانحنى يطبع قبلة على رأسها ثم خرج من الغرفة.

كانت شابة قوية حسنة الصحة. ونهضت من فراشها في الصباح غير شاعرة بشيء مما حدث لها أمس. وكانت في منتصف الدرج هابطة إلى غرفة الطعام، عندما أوقفها صوت ريجيك الذي كان في غرفة المطالعة التي كان بابها مفتوحاً بينما هو يتكلم هاتفياً، وإذ سمعته يذكر إسمها، وقفت تصغي. كان يتكلم باللغة الهولندية، ولكن كلمة فهمتها من هنا، وكلمة من هناك، جعلها تدرك أنه يتحدث عن حادثة البحيرة. وعندما قال ضاحكاً، «أوه إيرينا» جمدت في مكانها. واستطاعت أن تفهم بضع كلمات تتعلق، بهذا المساء، والعشاء... وصمت يستمع بينما تراجعت هي بخفة صاعدة الدرج عائدة إلى غرفتها. وعندما خرج هو من الغرفة إلى القاعة، عادت تهبط الدرج. ورآها فوقف ليرافقها بعد ذلك إلى غرفة الطعام.

سألها مستطلعاً: «هل تشعرين أنك بصحة جيدة؟ أظن من الأفضل أن تلازمي البيت هذا اليوم، فأنا مشغول جداً هذا النهار، وآسف لعدم إمكاني تناول العشاء معك. فتناولي شيئاً، ثم اذهبي إلى فراشك مبكرة.»

قالت: «حسناً جداً. لا أظن أن عندك عملية تجريها في المساء.» وسرها أن صوتها كان طبيعياً.

أجاب وهو ينظر إليها: «كلا. إنه موعد مسائي مع مريض قديم أفضل أن لا أتخلى عنه. طبعاً يمكنني أن ألغي الموعد

www.elromancia.com

إذا أردت بقائي في المنزل. ولكن، بما أنك عدت إلى طبيعتك وأن لهذا الموعد أهمية خاصة، فإنني أفضل الذهاب.»

قالت: «كلا، كلا. ليس عليك طبعاً أن تأتي إلى المنزل. فإن عندي الكثير مما يشغلني فالنهار قصير، وإلى جانب ذلك فإن تييل قادمة لتناول الشاي.»

ابتسمت له بذهن شارد وهي تقول: «ربما كان من الحماقة أن أطلب منك الحذر في قيادة السيارة، أليس كذلك؟»

فنهض واقفاً يتهيأ للخروج وهو يقول: «إنها حماقة فعلاً، ولكنها حماقة حلوة.» وربت على وجنتها برقة وهو خارج قائلاً: «لا تنتظريني.»

الفصل الثامن

بقيت صوفي جالسة إلى المائدة، عقب خروج «ريجيك» ومضت تطعم «مات» قطعاً من الخبز المحمص بينما استغرقت في التفكير. إنها تعرف أن تنصتها إلى المكالمة الهاتفية كان خطأ منها. ولكن، كيف كان لها أن تعرف ما هناك لو لم تتنصت؟ لم تكن واثقة من صواب ما فعلت. إنما يبدو بجلاء أن «ريجيك» يقابل امرأة كان يعرفها وربما كان يحبها قبل أن يقابلها هي ويصمم على أن تملأ الفراغ الذي ينبغي أن تملأه زوجة مناسبة. وهمست صوفي في صوت متحجر. «إنه وحش دون قلب».. ولكنها، في الواقع، لم تكن تعني كلمة مما قالت وقلبها عامر بحبه.

لقد اخبرت «ريجيك» أنها ستبقى داخل البيت. ولكن يجب أن يخرج «مات» للنزهة... فارتدت معطفها، ووضعت على رأسها «القبعة» الصوفية وارتدت جورباً من الصوف، ثم أخذت «مات» لنزهة سريعة حول البيت. كانت السماء ما تزال ملبدة بالغيوم والبرد قارس ولكن الثلج كان قد توقف. وعندما عادت إلى البيت، أخبرها «روك» أن كل انسان سيخرج للتزلج غداً.

جاءت «تييل» بعد الغداء تصحبها امرأة شابة كانت قد تغدت معها وأبدت رغبة قوية في التعرف إلى عروس «ريجيك» كانت أكبر سناً من «تييل» شقراء طويلة القامة ذات عينين باردتين وأنيقة جداً. ولم تحبها صوفي وأحست

www.elromancia.com

بأن هذه تبادلها نفس المشاعر. ولكنهما أظهرتا مودة مصطنعة، كل للأخرى، على كل حال. ولم تلاحظ «تييل» الرقيقة الطيبة القلب شيئاً من هذا. وكان ثمة مواضيع كثيرة للحديث، الأولاد، الأسرة، الحفلة العائلية التي ستقام بعد يومين فقط، وأخيراً، خطبة «اليزابيت ويلنسترا». الضيفة.

قالت هذه لصوفي: «سيكون لي عرس كبير إذ أن لي كثيراً من الأصدقاء.» وطبعاً ستحضران أنت و«ريجيك»، وذلك سيكون خلال شهرين، ومن المؤسف أنني لن أكون موجودة أثناء حفلتك، ولكننا سنتقابل في ما بعد بالتأكيد. فإن «لريجيك» أصدقاء كثيرين - ونظرت إلى صوفي بحدة - وأظنك قابلت «إيرينا»، «إيرينا فان مورين.» إنها احدى صديقاته القديمات.»

تشاغلت صوفي بسكب الشاي وهي تقول: «لم نجتمع بعد إذ لم يكن ثمة وقت. ولكننا تلقينا دعوة...»

قاطعتها اليزابيت: «إنني واثقة من أن «ريجيك» سيجد وقتاً.»

كان في صوت «اليزابيت» وهي تقول ذلك، ما جعل «تييل» ترفع أنظارها وتتطلع إليها قائلة: «إذا كان عنده وقت، فهذا لا بد أن يكون من قبيل المصادفة. وأنا متأكدة من أن صوفي قد سمعت عنها على كل حال، أليس كذلك يا صوفي؟»

أجابت صوفي: «أوه، طبعاً.» وكان مدهشاً أن ينطق لسانها بهذه الكذبة بمثل هذه السهولة. ولكنها حدثت نفسها بأنها كذبة بيضاء حسنة الغاية كما ظهر من إمارات الخيبة التي بدت على وجه إليزابيث.

عندما خلت إلى نفسها بعد ذلك أمضت نصف ساعة من التفكير القلق في «إيرينا». لقد حاولت إليزابيث أن تشغل بالها.. حسناً، لا بأس. أما إيرينا فيجب أن تحسب لها حساباً الآن. وشعرت صوفي بأن من الأفضل لها أن تقابل تلك المرأة...

جاء ريجيك إلى البيت متأخراً وكان هذا حسناً إذ أن مزاج صوفي كان سيئاً مستعداً للشجار.

نفس المزاج السيىء قعد بها عن الذهاب إلى «ليواردن» للتفتيش عن ثوب ترتديه في الحفلة العائلية. إنها سترتدي الثوب الوردي الذي اشترته من لندن... وغمرتها التعاسة وهي تفكر في جدوى الاهتمام بما ترتدي حيث لن يلاحظ ذلك أحد... وبطبيعة الحال، كانت تعني بذلك الأحد ريجيك نفسه.

لقد حاولت جهدها أن تنسى ملاحظات إليزابيث الخبيثة... لا بأس، فهي أي إليزابيث، لم تنجح بذلك تماماً. ولكن لقد ابتدأت «إيرينا فان مورين» تلوح في أفق حياتها. وتمنت من كل قلبها لو أنها لاتذهب إلى ذلك التجمع العائلي.

كان من المقرر أن يقدم العشاء لأفراد الأسرة أولاً، قبل أن يبدأ المدعوون بالتوافد. وكان ريجيك قد جاء إلى البيت مبكراً حيث أمضى معها نصف ساعة في غرفة الجلوس قبل أن يذهبا لتغيير ملابسهما. وما ان انتهت من ذلك حتى استعدت للنزول إلى أسفل.

كان الثوب الوردي قد رفع من روحها المعنوية. كان جميلاً هادئاً يبرز جمالها وقوامها الرائع. وكانت قد صففت

www.elromancia.com

شعرها بطريقتها العادية، ووضعت القرطين الثمينين في أذنيها وعقد لؤلؤ حول عنقها. ثم ألقت نظرة أخيرة على نفسها في المرآة وهي تضع الشال الكشمير على كتفيها توخياً للدفء أثناء الرحلة، ومن ثم نزلت الدرج.

كان ريجيك في غرفة الجلوس واقفاً بجانب نافذة مفتوحة ونظرت إليه صوفي وهي تفكر في أنه أكثر الرجال الذين عرفتهم في حياتها أناقة. لقد كانت سترة العشاء من روعة التفصيل بحيث أبرزت رشاقة قامته بشكل لم تره صوفي من قبل.

إذ سمع حفيف ثوبها، استدار ينظر إليها بإمعان، ثم قال بهدوء: «إنك تبدين رائعة الجمال.»

شكرته بنفس اللهجة الهادئة، فقد كان إعجابها بنفسها قليلاً في العادة، ولكنها كانت تدرك انها تبدو الآن في أحسن مظهر ممكن... فقط لكي تنافس إيرينا فان مورين...

جاء مات مستعداً للخورج معهما، في حين قال لها ريجيك: «من الأفضل أن نخرج الآن إذا كنت مستعدة.»

أخذ يحدثها، وهما في طريقهما إلى ليواردن، عن أيام عمله، سائلاً إياها عما فعلته في يومها، واعداً إياها بأخذها في الغد، حيث أنه لن يكون مشغولاً، إلى البحيرة لإعطائها أول درس في التزلج. وكانت تجيبه بكلمات مناسبة بصوت مختلف عن عادته حتى أنه سألها إن كانت تشعر بالتوتر، وقال مطمئناً: «لا تسمحي لهذا الشعور بأن يتملكك، فإن الأسرة، برغم ارستقراطيتها تحبك. وبالنسبة للضيوف فسأكون حاضراً لأمسك بيدك مشجعاً.»

قالت: «إن لك كثيراً من الأصدقاء، أليس كذلك، لن يكون

بإمكاني تذكر أسمائهم، هل هم جميعاً يتكلمون الإنكليزية؟»

أجاب: «أوه، نعم. وأظن أن جدتي ستصر على التحدث إليك بالهولندية، كما انني علمت من والدتي أنها تحبك وتعترف بك مثلاً لما يجب أن تكون عليه المرأة.»

قالت: «أتعني بذلك ثيابي؟»

أجاب: «كلا يا صوفي، وإنما شخصك. فإن تكوين جسمك رائع التناسق.» ونظر إليها في ظلمة السيارة وهو يستطرد: «وأنا أوافقها على ذلك تماماً.»

توهج وجهها، وسرت لعدم قدرته على رؤية ذلك. وتفوهت بكلمة شكراً بطريقة دفعته إلى الابتسام.

عند دخولهما غرفة الجلوس، كانت الأسرة جميعها بانتظارهما. وشعرت بالسرور لارتدائها الثوب الوردي. فقد شعرت فيه بالراحة كما انه انسجم مع بقية الأثواب بشكل حسن.

بعد أن قدما التحية إلى والدي ريجيك، أخذ هذا بيدها ومضى يدور بها على أفراد الأسرة مذكراً إياها بأسمائهم. الأعمام والأخوال وأبناء العم وأبناء الأخوة، مما بدا لها أن كل ذلك دون نهاية. ولكن، بعد أن تناولا الشراب وتبادلا الحديث مع الجميع، وجدت نفسها تجلس إلى المائدة إلى يمين حميها، وليورت إلى يسارها مما سرّها. وكان ريجيك في الناحية المقابلة من المائدة يجلس إلى جانب والدته. وقد قدمت أنواع الطعام بشكل رسمي لأن حفلة العشاء هذه كانت أكثر المناسبات أهمية في الأسرة.

www.elromancia.com

كان الطعام لذيذاً، واستمتعت صوفي بوجودها بين الأب والإبن، وعندما نهضوا جميعاً متجهين إلى غرفة الجلوس، كانت تحس بالراحة والانتعاش. وعندما جاء ريجيك يلف خصرها بذارعه، ابتسمت له وقد نسيت مخاوفها، وإنما لفترة قصيرة لتعاودها تلك المخاوف من جديد وتتجمّع في نفسها عندما ابتدأ الضيوف يتوافدون وظهر ما كانت تخافه.

كانت إيرينا فان مورين من اوائل الذين وصلوا وكانت هي نفس المرأة التي سبق ورأتها صوفي مع ريجيك في السيارة وفوق ذلك، كانت صارخة الجمال وإن كانت لم تعد شابة. وكانت تلبس ثوباً أسود مفرط الأناقة.

كان من الواضح انها تعرف كل شخص هناك. وعندما وصلت إلى حيث كان ريجيك وصوفي واقفين، قدمت إليه وجنتها لتقبيلها بشكل كان يوحي بأنها فعلت ذلك مراراً من قبل. وقبلت صوفي أيضاً، وأمسكت يدها قائلة إنها في غاية السرور لمقابلتها. وقالت بلهجة تعني تماماً ما تقول: «يجب أن نصبح صديقتين.»

فكرت صوفي في انها لا يمكن أن تلوم ريجيك لو كان هذا قد وقع في حبها من قبل، فقد كانت إيرينا امرأة ساحرة وبالغة اللطف، دافئة المشاعر. ولو لم تكن صوفي قد سبق وكرهتها، لكان ممكناً أن تحبها. ولم يكن ثمة ما يدل على أن لها زوجاً بين الموجودين مع أنها لا بد وأن تكون متزوجة أو أرملة حيث انها تضع خاتماً في اصبعها. واسترسلت صوفي في تكهناتها مفكرة في أن ريجيك لا بد أنه لم يكن ليستطيع الزواج من إيرينا، عندما كان زوجها

على قيد الحياة، ولكن عندما مات زوجها، كان بوسع ريجيك ان يتزوج وانتهى الأمر.

انتبهت إلى أن إيرينا كانت تحدثها. كانت تقول: «لقد اقترح ريجيك أن آتي معكما أنتما الإثنان للتزلج ذات يوم في البحيرة.»

قالت صوفي باكتئاب: «ولكنني لا أحسن التزلج.» وتصورت نفسها واقفة تراقبهما بينما هما يتسابقان بالتزلج معاً.

قالت إيرينا: «ستتعلمين بسرعة إذ تكونين بيننا أنا وريجيك.»

لم يقل ريجيك شيئاً، بينما قالت صوفي بحماس مصطنع: «هذا يبدو رائعاً. يمكنك أن تأتي.» ونظرت إلى ريجيك قائلة: «إنني غير متأكدة من وقت فراغك. ولكني أتمنى أن تحضر إيرينا لتناول الغداء معنا يوماً ما.»

لم يذكرها بأنه سبق وأخبرها أنه خال من المشاغل غداً. وقال مخاطباً إيرينا: «سأتصل بك غداً وسنتناول الغداء مبكرين لكي نربح وقتاً بعد الظهر.»

أضافت صوفي: «أوه، نعم. وستبقين للعشاء؟»

انضم إليهما بقية المدعوين، ولم تر صوفي إيرينا، بعد ذلك إلا عند نهاية الحفلة عندما جاءت تودعهما لتقول لها صوفي بمرح: «لا تنسي غداً. سأنتظرك بغاية الشوق.»

كانا آخر من خرج. لقد بقي أفراد الأسرة فترة قليلة بعد خروج آخر المدعوين ليذهب بعد ذلك كل إلى بيته ليبقى فقط والدا ريجيك وشقيقاه.

قالت صوفي وهي تودع أفراد الأسرة بالقبلات: «كانت

أمسية رائعة. ألف شكر لكم جميعاً. لقد أصبحت أشعر بنفسي فرداً من الأسرة الآن وآملة أن تسمحوا لي ببقائي هكذا.»

عانقتها والدة ريجيك بحرارة: «يا ابنتي العزيزة. لقد أصبحت فرداً من الأسرة في اللحظة التي رأيناك فيها. وإنني أتطلع إلى المستقبل المشرق معك. إنك المرأة المناسبة تماماً لريجيك.»

ابتسمت صوفي وهي تفكر انها طبعاً مصيبة في ما يتعلق بريجيك، ولكن هل هذه هي فكرة ريجيك أيضاً؟ هل عليها أن تكون الثانية الفضلى في حياته؟ إنه سيعتني بها وسيعاملها معاملة طيبة كزوجة له، ولكن هل سيكون حبه دوماً لإيرينا؟

لكن، إذا كان شعوره كذلك، فإن شيئاً من هذا لم يبد عليه وهما في طريقهما إلى البيت. كان الجو صحواً والقمر يتألق في سماء خالية من الغيوم، وقد أسبغت الثلوج على تلك المنطقة الريفية، جمالاً خرافياً. وتكلم هو عن الحفلة وعن مختلف الأشخاص الذين كانوا حاضرين، دون أن يبدو عليه أنه قد لاحظ صمتها. ولكن، عندما أصبحا داخل المنزل، قال لها إن المساء كان حافلاً وإنها لا بد متعبة. وتابع قائلاً: «إذهبي إلى الفراش يا عزيزتي وخذي قسطاً من النوم. ولا حاجة لك للنزول لتناول الفطور، وسأتصل أنا بإيرينا بشأن الغداء.»

عند ذلك فقط، خرجت عن صمتها قائلة: «لقد كانت الحفلة جميلة، وقد أتعبتني قليلاً، ولكنني لا أريد أن أبقى في الفراش عند الصباح، وبما أنك خالٍ من العمل غداً، يمكننا إذن أن نتناول فطورنا متأخرين قليلاً.»

أجاب: «بالطبع، ويمكنك إخبار روك بذلك قبل صعودك للنوم. أتريدين شاياً أم قهوة الآن؟» فهزت رأسها نفياً وهي ترجو له ليلة سعيدة، وكلمت روك بشأن الفطور، ثم صعدت إلى غرفتها. خلعت ملابسها ببطء ثم استلقت على سريرها حيث بقيت مستيقظة مدة طويلة بعد أن عم الهدوء المنزل. كان التفكير في قضاء ساعات برفقة إيرينا يشعرها بالغثيان.

استسلمت أخيراً لنوم حافل بالأحلام عن إيرينا وقد أقبلت إلى المنزل، تحمل أكواماً من الأمتعة بينما هي قد نقلت، في الحلم إلى منطقة ثلجية حيث طلبوا منها أن تتزلج عائدة إلى موطنها في انكلترا. وفي الصباح، اقتضى منها التعود على مواجهة ضوء الصباح الباكر نصف ساعة كاملة.

نهضت شاكرة أن كل ذلك لم يكن سوى حلم، وارتدت ثيابها بعناية وهي تتمنى لو كانت قد استمعت إلى نصيحة ريجيك بالذهاب إلى ليواردن وشراء بعض الملابس الجديدة. ارتدت سروالاً وسترة صوفية ثقيلة، ليقابلها ريجيك هاتفاً بابتهاج: «أوه... أنت مستعدة للتزلج كما أرى.» وألقى على وجهها الذي بدا عليه القلق والأرهاق بجلاء، نظرة سريعة وهو يتابع قائلاً: «لا بد أن الجو ممتاز عند البحيرة إذ لا توجد رياح كثيرة. لقد ذهبت لإلقاء نظرة.. هناك الكثير من الثلج الصلب الذي يناسبك.» وأضاف برقة: «بالطبع، إذا لم تكوني تشعرين بالرغبة في التزلج اليوم فلا حاجة بك إلى ذلك، فالثلوج ستبقى بعض الوقت كما أظن.»

أخذت رشفة من قهوتها وهي تفكر. إن فكرة أن تفسح لهما، هو وإيرينا المجال لقضاء نصف النهار وحدهما عند

البحيرة، كانت كافية لتضاعف حماسها للتزلج... لقد كانت الغيرة حافزاً لها، كما اكتشفت، كما أنها لامت نفسها للسماح للغيرة بأن تتملكها. وقالت: «ولكنني بغاية الشوق إلى أن أتعلم، إذ لا بد أنني الشخص الوحيد في فرايسلند الذي لا يحسن التزلج.» فضحك، وانتقل بموضوع الحديث إلى أمور أخرى مختلفة وما لبث أن دخل إلى غرفة المطالعة ليجد بعد ذلك وقتاً يأخذ فيه مات للنزهة قبل أن يذهب لإحضار إيرينا.

بعد أن تأكدت صوفي من أن الغداء سيكون جاهزاً بعد عودتهما، أخذت تفكر كيف ستجتاز بقية اليوم.

من النافذة، رأت السيارة تقف لينزل منها ريجيك وإيرينا، كانت إيرينا تضحك بسعادة وقد بدت جلية الأناقة. وخرجت صوفي إلى القاعة لاستقبالهما بنفس الابتسامة التي ترسمها المضيفة عادة على وجهها، وأخذت منها المعطف بنفسها. وهي تثرثر بمرح خارج عن طبيعتها حتى أن ريجيك، وهو يعد الشراب، أشاح بوجهه مدارياً ابتسامته وهو يشعر بالحيرة إزاء تصرفها هذا، في نفس الوقت.

خرجوا جميعاً، يصحبهم «مات» إلى البحيرة بعد الظهر مباشرة، وثبت ريجيك زحافتي التزلج في حذائي صوفي، وكانا كبيرين ولكنه طمأنها إلى أنهما مناسبان للمبتدئين.

على الثلج، بذلت صوفي جهوداً طيبة في التزلج إذ تمسكت جيداً من الجهتين وهي تتزلج حتى أن ريجيك هنأها على ذلك قائلاً إنها ممتازة. وعلمها كيف تنحني إلى الأمام قليلاً دون أن تهتم بقدميها. ثم قال: «ستتركك إيرينا وحدك الآن فلا تخافي لأنك لن تقعي.»

لكنها لم تقع. وحفزها منظر إيرينا التي كانت تتزلج برشاقة طبيعية، على الصمود، فقالت له: «أظن أنني أستطيع الذهاب وحدي. هل أحاول؟»

قفزت بشجاعة وهي تطلق صرخة سرور: «أنظر، أنظر. إنني أتزلج يا ريجيك... إنني أستطيع...»

في اللحظة التالية كانت تترنح وقد رفعت ذراعيها عالياً تحافظ بذلك على توازنها، عندما شعرت بذارع ريجيك حولها ليوقفها على قدميها ثانية.

قال لها: «كان ذلك رائعاً.» ولم تجد، وهي تتخبط في محاولة استعادة توازنها، في منظر إيرينا وهي تنزلق عائدة بسهولة ورشاقة، ما يساعدها على استعادة ثقتها بنفسها.

هتفت بها إيرينا: «ولكنك كنت ممتازة يا صوفي، ولا يهم فقدانك لتوازنك فستتعودين على ذلك خلال أيام قلائل. سأبقى مع صوفي يا ريجيك بينما تذهب أنت في دورة حول البحيرة.»

فكرت صوفي في أن ريجيك له الحق، بطبيعة الحال في أن يذهب أنّى يشاء، ولكن هل له أن يذهب هكذا دون أي تصرف تجاهها سوى إيماءة وابتسامة؟؟ وأخذت تراقبه وهو ينطلق بعيداً يسابق الرياح وقد تشابكت يداه وراء ظهره.

قالت إيرينا: «إنه ماهر جداً في التزلج، وقد سبق واشترك في سباقات التزلج عدة مرات وفاز مرتين.»

قالت صوفي: «أظن أنه تعلم ذلك منذ كان صبياً صغيراً.»

أجابت إيرينا: «نعم، إننا جميعاً نتعلم التزلج قبل أن

www.elromancia.com

نتعلم المشي. لقد تعلمنا جميعاً معاً، ولكنه كان أفضلنا جميعاً.»

وضعت يداً ثابتة تحت مرفق صوفي قائلة: «والآن، فلنتابع. إدفعي بقدمك اليمنى. هذا حسن. والآن نفس الشيء بقدمك اليسرى.. أيضاً وأيضاً.. أسرعي.. هل تعرفين كل شيء عن ريجيك، وعنا؟»

كانت تتكلم بهدوء بالغ وعندما رمقتها صوفي بنظرة، بان عليها الحزن. وقالت صوفي وهي تنظر إلى حيث كان ريجيك ينسحب على الجليد: «نعم...»

قالت أيرينا: «هذا حسن، إذن لسنا بحاجة إلى التحدث بهذا الشأن. إن الأمر محزن جداً بالنسبة إليّ.» ومرة أخرى استعادت حيويتها وهي تقول: «والآن، انطلقي وحدك، وإذا وقعت فسوف أرفعك أنا.»

تمنت صوفي لو تجد مكاناً هادئاً لتجلس فيه وتنفس عن نفسها بالبكاء. لقد تملكها اليأس، فقد كانت غير قادرة على التعامل مع أدوات التزلج الكريهة هذه، وعلى كل حال ما فائدتها بالنسبة لها؟ كان أسهل لها كثيراً لو أنها كرهت إيرينا، أو حتى لم تكن تحبها... ولكنها قد أحبتها فعلاً. إنها تتفهم تماماً سبب حب ريجيك السابق لها.

اندفعت إلى الأمام غير عابئة في ما لو وقعت وكسرت ساقاً أو ذراعاً. ولكن، لدهشتها، وجدت نفسها ما تزال على قدميها مسافة أمتار قبل أن يتلقاها ريجيك ويعيدها مرة أخرى قائلاً: «إنك تلميذة ممتازة، ولكن هذا يكفي لهذا اليوم. فلنذهب إلى المنزل ونتناول الشاي.»

قالت: «ألا تريدان أنت وإيرينا أن تتزلجا معاً؟ ليس

عندي مانع أبداً، فقط ساعدني على التخلص من أربطة التزلج هذه وسأسبقكما إلى المنزل لأجهز الشاي.»

رمقها بنظرة سريعة وقد بان عليه التفكير ثم قال: «لقد تزلجنا بما فيه الكفاية، أليس كذلك يا إيرينا؟ سنذهب الآن لتناول الشاي ومن ثم أوصلك إلى منزلك.»

فقالت صوفي: «ظننت أن إيرينا ستبقى للعشاء؟» وفكرت في أن أي شخص يمكن أن يخيل إليه أنها تستمتع بهذا الحديث.

قالت إيرينا: «لقد سبق وأخبرت ريجيك وأنا آسفة إذ لم أخبرك أنت أيضاً. ذلك أن عندي موعداً هذا المساء وهو من الأهمية بحيث يستدعي وجودي في المنزل. إنني آسفة يا صوفي.»

قالت صوفي: «لا بأس. يمكنك القدوم في وقت آخر. أما الآن فسنتناول الشاي حول المدفأة.»

حول المدفأة، وقد اجتمعوا يتناولون الشاي، مناولين مات الذي كان مضطجعاً عند قدمي سيده، ما تيسر من البسكويت، أخذوا يتحدثون حول التزلج وتقدم صوفي في هذا المضمار.

ما لبثت إيرينا أن وقفت تعلن رغبتها في الذهاب.

تمتمت صوفي: «المضيفة» المثالية التي تكرم ضيوفها مهما كان مقدار كراهيتها لهم، آسفة وراجية عودة اجتماعهم مرة أخرى. ووقفت بالباب تلوح لهما بيدها مودعة.

وقف مات إلى جانبها ينظر بحيرة من عدم أخذ سيده له وكذلك فكرت صوفي إذ انهما كانا ذاهبين فقط إلى ليواردن على أن يعود ريجيك مباشرة.

www.elromancia.com

عادت صوفي ومات إلى جانب المدفأة. وتملك صوفي القلق وهي تفكر في يومها هذا. لقد شعرت بنفسها منبوذة فوق الثلوج دون أمل. وقبول إيرينا الهادىء للوضع، قد جعلها عرضة للتعاسة والشكوك. لقد تألمت من الأعماق كون ريجيك لم يحدثها عن كل ذلك. فهذا الأمر يمكن أن يحدث لأي إنسان. وكانت صوفي تنظر إلى هذا الأمر نظرة واقعية عادلة، ذلك أن الحب الذي يجمع بين شخصين لسنوات، دون أي أمل في الزواج، ثم ينفسح المجال، لريجيك فقط، للزواج من امرأة أخرى، فهذا شيء مؤلم للغاية. وتساءلت عما إذا كان زوج إيرينا متوفياً أم انهما مطلقان. حسناً، إنها ستسأل ريجيك عن ذلك حين عودته. على كل حال، لقد كانت، وريجيك صديقين وبإمكانهما من ثم المناقشة في أي أمر من هذا النوع دون حقد أو ضغينة.

تنهدت وهي تقول مخاطبة مات الذي فتح عينيه وجلس قلقاً: «أظن أن قلبي قد تحطم. كان الأمر يمكن أن يكون سهلاً لو لم أكن أحبه.»

وقف مات ووضع رأسه على ركبتها، وعندما صعدت إلى غرفتها لتغيير ثيابها، صعد معها. ولم يكن مسموحاً له بالدخول إلى غرف النوم. وارتدت صوفي واحداً من أجمل أثوابها وأصلحت من شعرها وزينة وجهها، ثم عادت إلى غرفة الجلوس في انتظار عودة ريجيك.

لكنه لم يعد. وقبل عدة دقائق من موعد العشاء رن جرس الهاتف.

جاءها صوت ريجيك يتكلم بعجلة: «صوفي، سأتأخر. لن آتي للعشاء ولا تنتظريني.»

قالت صوفي: «نعم.» ثم قاطعته بجواب لا تتذكره.. ربما كان «إنني متفهمة تماماً» أو ربما «حسن جداً...»

تناولت العشاء وحدها، وحمل روك أطباق العشاء التي لم تكد تمس، إلى المطبخ، في جو مشحون بالقلق. لقد رأت نظرته فبادرته مسرعة: «إنني لست جائعة، يا روك» ربما كان التزلج هو السبب. إذا لم يعد البروفسور في الساعة الحادية عشرة، فاقفل الأبواب وأترك باباً له وشيئاً في المطبخ ليأكل فلربما عاد جائعاً. إنه لم يقل متى سيعود ولكن يبدو أن الأمر مستعجل.» وأرادت بجملتها الأخيرة أن يبدو الأمر مقنعاً، ولكنها، في قرارة نفسها، كانت تتخيل ريجيك وإيرينا يمضيان المساء معاً، وما لبثت أن تذرعت بالصداع لتصعد إلى غرفة نومها مبكرة.

لم تستطع النوم، وكانت الساعة الثانية تقريباً حين سمعت خطوات ريجيك الهادئة تصعد السلم. عند ذلك فقط، استسلمت إلى نوم مضطرب.

كان قد سبقها إلى مائدة الفطور حين نزلت في صباح اليوم التالي لتناول الفطور.

قالت له بحدة وقد رأته يهم بالنهوض: «إياك أن تنهض، إذ لا بد أن تكون متعباً بعد ليلتك القصيرة.» ولما كانت متعبة لقلة النوم والتعاسة والقلق، فقد سمحت لنفسها بأن تقول أشياء ما كانت لتقولها أو تعنيها. واستطردت: «إنني فقط أعجب لماذا تكلفت عناء العودة إلى البيت. ولكنك طبعاً لا تعرف انني أعرف كل شيء عن ذلك الأمر.»

توقفت قبل أن تنفجر الدموع من عينيها. ثم سكبت

لنفسها كوباً من القهوة بيد ترتجف. وبعد رشفة منه، أضافت: «كان لك أن تخبرني.»

استند البروفسور إلى الخلف في كرسيه يراقبها. كان مرهقاً تماماً بعد أن أجرى عملية استغرقت ساعات ولكن صوته كان هادئاً تماماً حين سألها: «ولماذا لا أعود إلى المنزل يا صوفي؟ إنني أسكن هنا.»

أجابت صوفي وهي تدهن قطعة من الخبز المحمص في صحنها بصوت مرتجف: «لقد قلت لك إنني أعرف كل شيء عنك وعن إيرينا...»

لم يتحرك البروفسور وإنما قال يستحثها: «ثم؟؟»

قالت: «حسناً. هل سنستمر على هذه الحال بقية حياتنا؟ لقد قالت اليزابيث ويلنسترا إن...»

قاطعها بصوت هادئ ولكن بنظرة قاسية: «آه... اليزابيث؟»

تابعت: «إنك وإيرينا كنتما صديقين قدمين. إنها لم تقل الكثير ولكنني أفهم التلميحات.» واضافة إلى ذلك حبست دموعها ثم تابعت «تلك الليلة التي جئت فيها بالحافلة وكنت قد ذهبت إلى المستشفى لأعود معك، كنت أنتظر حركة المرور لأجتاز إلى باحة المستشفى أمام المدخل، إذ بي أراكما معاً. كانت تبدو سعيدة ضاحكة وكنت أنت تبتسم ممسكاً بذراعها... ثم، أمس، سألتني إيرينا عما إذا كنت أعرف ما بينكما. لقد قالت بالضبط (أتعرفين عن ريجيك وعنا؟) وطبعاً، قلت أنا «نعم.» كانت صوفي وهي تتكلم، تدرك ارتفاع صوتها وارتجافه، ولكنها لم تكن لتستطيع التوقف الآن. وتابعت: «وبقيت أنت بالخارج طيلة الليل

تقريباً. وكانت ستبقى للعشاء ولكنها اعتذرت وذهبت أنت معها.»

ما زال البروفسور لا يتحرك وهو يقول: «أتظنين انني أعاملك بهذا الشكل؟»

وجعلها شيء ما في صوته الهادئ، تشعر بخدر في أطرافها، وقالت: «لا أحد يستطيع منع نفسه من الوقوع في الحب، أليس كذلك؟ أعني أنه يصبح أكثر أهمية من أي شيء في العالم. أليس كذلك؟»

قال: «حقاً إنه كذلك. على كل حال، لا أرى فائدة من متابعة هذا النقاش حالياً، إنني سأتأخر الليلة فلا تنتظريني.»

كان قد وصل إلى الباب عندما سألته بصوت ضعيف: «هل أنت غاضب جداً يا ريجيك؟»

فاستدار ينظر إليها. إنه لم يكن متعباً فقط، وإنما كانت عيناه تقدحان شرراً وهو يقول: «إنني غاضب لدرجة الخطر، يا صوفي.» وخرج مغلقاً الباب وراءه بهدوء.

تمنت هي من كل قلبها لو كانت أمسكت لسانها. وأخذت مات وخرجت في جولة قصيرة في برد الصباح القارس. ومن ثم أصبحت قادرة على التفكير بوضوح. عليها أن تعتذر بالطبع وتسأله المعذرة، مع أنه هو الذي عليه أن يعتذر، ويجب أن تصر على إجراء نقاش منطقي بينهما. لقد كانا دوماً صديقين حميمين يتبادلان الحديث والآراء بسهولة. ومن المؤسف جداً أنها وقعت في غرامه.

عادت إلى البيت متظاهرة بتناول طعام الغداء الذي أحضره روك إليها، ثم أخذت تجول حول المنزل وهي لا

www.elromancia.com

تستطيع أن تستقر على رأي. وكانت في غرفة الجلوس الصغيرة تتطلع من النافذة دون أن ترى شيئاً، عندما أعلن روك حضور إيرينا.

طبعت صوفي ابتسامة على شفتيها واستدارت ترحب بضيفتها. لا بد أن ريجيك قد رآها، وها هي ذي قد أقبلت توضح الأمر لها.

دخلت إيرينا مادة يدها وهي تهتف: «صوفي، إنني عائدة الآن إلى ليواردن ورأيت أن أمر لأراك. هل عندك مانع؟»

قالت صوفي وهي تصافحها: «كلا بالطبع، هل رأيت ريجيك؟ فتطلعت إليها إيرينا بحيرة وقد قطبت جبينها قائلة: «كلا.» ثم بانت عليها اللهفة فجأة لتقول: «هل اتصل بك هاتفياً؟» هل هو يريد رؤيتي عاجلاً؟ اصفر وجهها. «لا بد أن جير ليس بخير. يجب أن أتصل هاتفياً. لقد كانت حالته حسنة فما الذي حدث له الآن؟» وبدا عليها الإضطراب، فقالت لها صوفي: «ولكن، من هو جير هذا؟»

أجابت: «إنه زوجي وأنت تعرفين كما سبق وقلت لي. لقد أصيب بورم في المخ. وقد أنقذ ريجيك حياته، ولكننا لم نخبر أحداً لأن جير هو مدير لمصلحة مالية كبيرة، وإذا ما تسرّب الخبر بأنه مريض جداً، فإن ذلك سيحدث هزة وهلعاً بين مالكي الأسهم قد يخسرون معها أموالهم. ولكن، يجب أن أتصل هاتفياً.»

قالت صوفي: «لا بأس يا إيرينا إنني متأكدة من أن زوجك بخير. فقط، ظننت أنك ربما شاهدت ريجيك. كل الأمر هو انني لم أكن أعرف شيئاً عن زوجك.»

لم تكن إيرينا حمقاء. وقالت: «يا فتاتي المسكينة. لا بد

أنك فكرت أنني وريجيك... ولكنه أفضل أصدقاء جير. لقد نشأنا جميعاً معاً. لماذا ظننت ذلك عنا؟»

قالت صوفي: «إنها واحدة تدعى اليزابيث...»

قاطعتها: «تلك المرأة... إنها تدّعي صداقة كل إنسان، ولكنها خبيثة شريرة. إنها تحب دوماً نشر السموم. لا شيء مما قالته لك صحيح. يجب أن تصدقيني.»

قالت صوفي: «إنني أصدقك. ولكنني تشاجرت مع ريجيك وكما ترين، إنني أحبه وهو لا يعرف ذلك. لا أستطيع أن أوضح لك الأمر...»

قاطعتها إيرينا بلطف: «كلا، كلا، فهذا تضييع للوقت. أحضري معطفك وقبعتك وتعالي معي إلى ليواردن فهو سيكون في المستشفى. يجب أن تجديه هناك وتشرحي له كل شيء. إنه غاضب، أليس كذلك؟ إن له طبعاً سيئاً ولكنه يكظم الغيظ. أخبريه أنك تحبينه.»

فهزت صوفي رأسها قائلة: «لا أستطيع ذلك. وإذا فعلت يكون عليّ أن أتركه...»

قالت إيرينا: «يجب أن تفعلي ما تظنينه الأصلح. ولكني أتوسل إليك أن تحضري معطفك.»

أنزلتها إيرينا على باب المستشفى بعد أن قبلتها بحرارة، وانتظرت في السيارة إلى أن رأت صوفي تدخل.

هز موظف الاستعلامات رأسه قائلاً لصوفي: «البروفسور غير موجود يا سيدتي. لقد خرج.»

قالت: «ولكن سيارته موجودة؟»

قال: «إن له عيادة قريبة من هنا مسافة خمس دقائق على الأقدام.»

www.elromancia.com

سألته: «هل لك أن تخبرني أين مكان العيادة؟»

كانت إرشادات الموظف معقدة، ولم تتأكد من صحة ما فهمته. ولكنها لم تشأ أن تضيّع الوقت، فشكرته، وقال لها: «العيادة تقفل الساعة الخامسة، يجب أن تسرعي.» وأسرعت وهي تحاول أن تتذكر الإرشادات، ولكن بعد خمس دقائق أدركت انها تسير في الطريق الخطأ. فقد كان الطريق الذي تسير فيه ضيقاً تحده من جانبيه بيوت قديمة وحوانيت. ولم يبد أن للشارع إسماً. وشاهدت سيدة تسير نحوها فأوقفتها وأخذت في تجميع الكلمات القليلة التي تعرفها من الهولندية لتسألها عن الطريق.

وقالت المرأة تسألها: «انكليزية؟» وعندما أومأت صوفي بالإيجاب، اندفعت المرأة في فيض من الحديث لم تفهم منه صوفي حرفاً. كانت تضيع الوقت. وعندما توقفت المرأة تجمع أنفاسها، شكرتها صوفي بسرعة وتهذيب ثم ابتعدت.

كان أمامها مفترق طرق ربما قادها إلى مكان ما حيث تستطيع السؤال عن العنوان. وكانت قد أصبحت سيئة المزاج، فقد كانت ضائعة تعسة ولم يكن يبدو انها ستجد ريجيك أبداً، وكان هذا أكثر أهمية من أي شيء آخر في العالم. ولكن، هوذا رأس يلوح لها من المنعطف فوق جسد فارغ في معطف كشمير.

قال ريجيك: «يا لها من مفاجأة لذيذة.» بينما مد ذراعيه يحيطها بهما.

هتفت صوفي في صوت بالغ الغضب: «أنت هنا إذن؟ لقد كنت أفتش عنك.» ثم استرسلت في البكاء.

وقف ريجيك صامداً كالصخر بينما كانت تنشج وتبكي على كتفه الضخمة. وأخرج من جيبه منديلاً أبيض غير عادي الحجم وأخذ يمسح به وجهها وعينيها وهو ما زال حاضناً إياها بذراعه الأخرى.

قال لها: «هيا، انفخي أنفك وتوقفي عن البكاء واخبريني لماذا كنت تبحثين عني؟»

قالت: «إنني لم أعن كلمة مما قلت لك. لقد كنت ضحية الغيرة ودنيئة وحمقاء، وأنا خجلى من نفسي ولا أعرف التزلج، وأنت تريدنا أن نكون صديقتين... ولكنها فهمت كل شيء ودفعتني لأن أخبرك، ولكنني لا أستطيع لأنني وقعت في حبك ويتوجب عليّ عند ذلك أن أرحل. وأنا لن أستطيع الذهاب بهذه الحالة.»

قال: «يا زوجتي العزيزة. لقد كنت أنتظر بصبر سماع هذه الكلمة منك. وابتسم في الظلام، منذ أن رأيتك لأول مرة واقفة على الرصيف خارج مستشفى القديس آغنس وقعت في حبك.»

قالت باستياء: «ولماذا لم تقل ذلك إذن؟»

قال: «يا حبيبتي الغالية، إنك لم تكوني متأكدة حتى من شعورك بالمودة نحوي.»

فكرت بكلامه ثم قالت: «ولكن هل تحبني؟ لقد كنت غاضباً مني هذا الصباح إلى درجة لم أعرف معها ماذا أفعل. ولكن إيرينا جاءت لرؤيتي وأخبرتني عن جير. فجئت لأعتذر لك.»

قال: «ما أحلى وأشجع الزوجة التي عندي. هل عندك فكرة عن المكان الذي أنت فيه؟»

www.elromancia.com

قالت: «كلا. لقد أخبرني الموظف بعنوانك ولكنني لم أستوعب جيداً ما قاله لي.»

انفجر ضاحكاً وهو يقول: «ولكنك وجدتني على كل حال.» وانحنى يقبلها بصوت مسموع ثم قال: «سأرعاك دوماً يا حبيبتي.»

قبلها مرة ثانية، وشاهدهما رجل عجوز، صاح بهما يقول شيئاً ما، ثم ضحك.

سألت صوفي: «ماذا قال ذلك الرجل؟»

قال ريجيك برصانة: «لأترجمها بالإنكليزية المهذبة، لقد توسل إليّ أن أقبلك وأحتضنك.»

رفعت صوفي وجهها إليه قائلة: «حسناً، أليس الأفضل لك العمل بنصيحته؟.»

تمت

www.elromancia.com